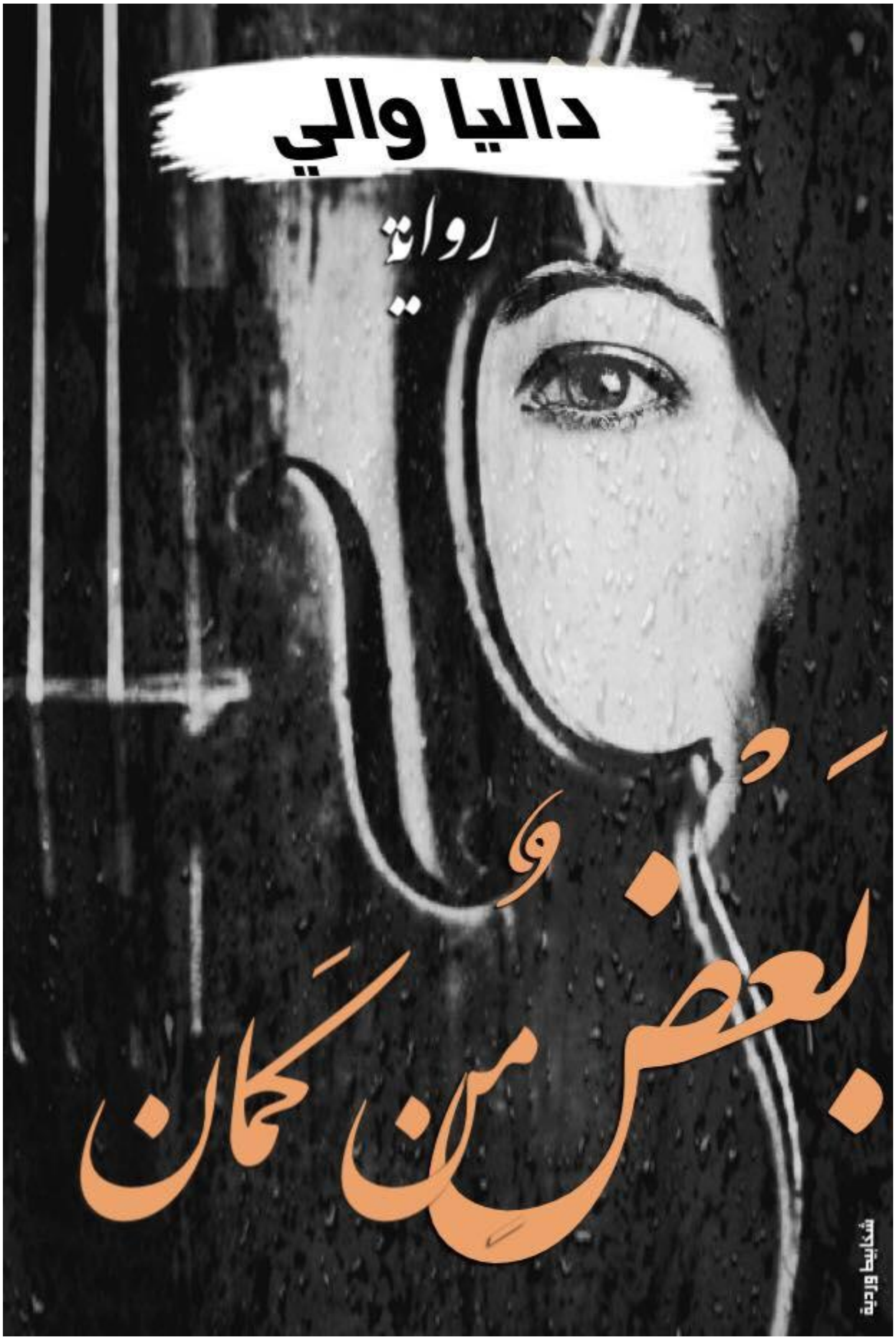
داليا والي
رواية
بعضٌ من كمان
شخابيط وردية

بعضٌ من كـــمان

داليا والي

غلاف وتصميم داخلي

مروة جمال

فريق عمل شخابيط وردية

إهداء

إِلَى اّلِذي َأُخْبَرِني َيْوَماً بَنَقَرَاتٍ على َنِافذَةٍ اِلكترِونّيةٍ

أَنْ اجْمَعِي ماَ تكْتُبِينه وَاطْلِقِي سَرَاحَه.

هَا أَنَا أُطْلِقُ سَرَاحَهُم أَبِي .

وَلَكِنّكَ رَحَلْت .

ربيع 2018

صوت المذياع ينساب برفق ، لم تستطع تمييز الصوت .

كلما خطت خطوة إلى الداخل ازداد الصوت وضوحاً.

ارتسمت بسمة تلقائية على وجهها .

"يا ليلُ الصبُ متى غدُهُ

أقِيامُ الساعةِ موعِدُهُ "

تذكرت أول مرة دلفت من هذا الباب.

أول نظرة لتلك الحجرة.

قطعت تدافع الذكريات وهي تتحسس الكمان ،

وتمرر يديها على ذاك المذياع العتيق .

سوف تخرج من الباب الآن بإرادتها .

ولكن ..

هل لها من عودة .

بَعْضُ مِنْ كَمَانٍ

ألحان الكمان ترتفع بانفعال ،وتنخفض بشجن.

و الحياة ، ترتفع أحداثها صعوداً ،وتنخفض هبوطاً.

يقبض العازف عصاته على الأوتار فتضيق وتحدث

صريراً عال،

وإذا ما بسطها انطلق اللحن للبراح.

كلٌ منا له لحنه الخاص..

وقد يمسك هوعصا الكمان.

أويسلمها طواعية إلى أحدهم يصنع بلحنه ما يحلو له

وقد...

قد يسرقها أحدهم فيعبث بألحانه كما يشاء.

وعلينا ، إما القبول بعبث أوتاره..

أو خوض الحروب حتى نستعيد العصا .

مثلي مثلكم مثل الجميع كانت نجلاء.

ليست بعازفة .

لكنها كانت تبحث تجد تفقد تحارب حتى تصنع

ألحانها الخاصة.

الفصل الأول

صراخ يشق لنفسه مكانا وسط زحام الظهيرة ، حيث الجميع مشغولون بشئونهم الحياتية، وكأنها أبت أن تحمل أحداً مشقة السهر .

صغيرة بوجه دائري ، وأعين واسعة أسماها نجلاء وكان لها من اسمها نصيب .

بيت متواضع ، أهلكته السنون والنوائب ، وحقول مترامية الأطراف لا يملك منها الأب شيئا

لكنه يعمل بها كل يوم ، بكل كلل وبكل ألم ولكن بلا ملل ، فمن مثله لا يصح أن يتسرب إليهم الملل وإلا انتهت حياتهم .

ورائحة الحطب تعبق الأجواء كل يوم ، جسد أنتج خمسة رؤوس ،نجلاء أصغرهم ، باكرا تستيقظ ، ترعى ، تطعم ، تسمع ، تبتسم ، تربت على الكتف ، وتحمل نجلاء على كتفها هي على الدوام.

نشأت برائحة الحطب اليومية تزكم أنفاسها ، لم يمتلكوا رفاهية شراء موقد ، ولكن هذا لم يوقف

الأم يوما عن صنع أطيب الطعام للأبناء ، أو كانوا يظنون أنه أطيب طعام حينها .

ليست الحكاية مكررة هنا ، بأب غليظ يعود من العمل كل يوم غير قادر على سماع صوت ، وأم تستنزف كل طاقتها صباحا فتنكفأ مساء بغير حراك.

بل على العكس كان "اسماعيل " ذلك الودود الذي ينتظم إيقاع البيت برجوعه ، وكانت " سعاد" تلك الأم التي يلتف حولها الأطفال كل ليلة تقص عليهم بعضا من ماض بعيد لأجداد كانوا يملكون الأرض ، وحكايات عن الأعمام

والأخوال الذين كان لهم باع في السياسة وحب الوطن ، حكايا لم يعلم أحدهم يوما مدى صدقها ، لكنهم كانوا يستقبلونها ووالدهم كل يوم بنفس الشغف .

نشأت نجلاء بود لطيف يغلف بيتهم المتواضع ، لا يعكر صفوهم سوى ضيق الحال ، والذي وقف عائقا أمام استكمال إخوتها لتعليمهم ، وبعدها زواج بسن صغير حتى خلا البيت إلا منها وأمها وأبيها .

بعمر الثانية عشر كان يطرق بابهم الخطّاب ، ليس طمعاً للفوز بأميرة ساحرة الجمال ،بل كانت أسرة

اسماعيل بها من الود ما يفضله الجميع ،علاوة على عيون الصغيرة التي كانت تأسر من ينظر إليهما .

بذلك المكان الريفي الطابع بضواحي الأسكندرية كان دارجاً ذلك الزواج المبكر ، يعقد العقد بمسجد القرية ويشهده الحضور ولا يتم التوثيق إلا بعمر الثمانية عشر .

"لقد تقدم خاطب لنجلاء يا أم ابراهيم "

"من يا أبو ابراهيم ؟"

"إنه حسين ابن الحاج برهام "

جفلت الأم قليلا

ابن الحاج برهام!ولماذا يرغب بابنتي ؟"

"وما بها ابنتك يا أم ابراهيم"

كتمت الأم أي اعتراض وقررت المهادنة حتى تفهم منه.

"ست البنات ليس بها شيء ولكنه ابن الحاج برهام كبير تجار البلد، بإمكانه مصاهرة أكبر العائلات لماذا وقع الاختيار على ابنتي بالتحديد "

شرد اسماعيل قليلا في كلام زوجته وطافت به ظنون شتى لكنه بترها في مهدها قائلا :

"أخبرني والده أنه شاهدها وهي في طريقها عائدة من المدرسة وأعجبه أدبها وخجلها عن غيرها من البنات"

وصمت هنيهة ثم أكمل :

"سوف يقومون بزيارتنا مساء الخميس"

وأنهى الكلام معها قبل أن يبدأ.

لم يكن قلبها يحدثها بخير.

وهي ليست أحد الأولياء أو الصالحين، ولكن والدها كان دائما يقول "ما تقوله سعاد يحدث ولو بعد حين "

حقول مترامية الأطراف، وهناك برج حمام، مئات من أفراخ الحمام تحلق في السماء بسلام.

وهكذا كانت نجلاء.

محتضنة حقيبتها في شرود وردي وسلام لطيف محلقة في سماءها الخاصة ذات الغيوم البيضاء الصافية كصفاء قلبها.

بهذا الركن على ناصية الطريق بعد مدرستها بأمتار قليلة وجدته واقفا كما كل يوم.

ينتظر خروجها، ويهديها بسمات، وبالطبع نظرات نظرات صامته، نظرات لم تفطن إليها لولا إشارات

صديقاتها وغمزاتهن عن هذا الأنيق الذي ينتظرها كل يوم.

ولأول مرة يرفع صوته مخاطبا إياها:

"كيف حالك نجلاء"

ولو كان هناك مقياس لحساب دقات القلب هذه اللحظة لكان قد وصل إلى منتهاه.

أطرقت رأسها وحبست أنفاسها حتى خطت تلك الخطوات القليلة أمامه.

وبعد أن تخطته وصلها صوته "سأكون ببيتكم الخميس "

وشهقت خجلا وأسرعت الخطا ولا تدري كيف وصلت إلى البيت دون أن تخونها قدماها وتسقط أرضا، من كلام هذا...

هذا الأنيق الذي أخبرتها صديقتها باسمه قبل أيام وكررته هي بين نفسها مئات المرات،

إنه "حسين"

***

يكفي أن تكون من نسل الحاج برهام حتى يكون لك شأن خاص بأنحاء القرية.

وماذا إذا كان الصغير، و"مدلل أمه" على زعم أخيه الأكبر "عادل"

كل هذا يضمن لك معاملة "خاصة" ومميزة من العامة.

لكن حسين لم يكن هذا النوع، كان المرح المتواضع، المحب للجميع، والمحبوب من الجميع بنقاء سريرته وحلاوة لسانه ووجهه البشوش، وملامحه الودودة بوسامة لطيفة.

أنهى للتو فترة التجنيد بعد حصوله على مؤهل متوسط.

حاول والده معه كثيرا لاستكمال الدراسة لكنه لم يكن من محبي المذاكرة ولا دافع له للتفوق، فالمال موجود والعمل موجود كذلك.

بأول إجازة له كان في طريقه إلى بيت عمه، بعد طلب من والده ليطمئن على صحته.

"عمك عاشور يتمنى رؤيتك، يريد الاطمئنان عليك في التجنيد "

كان سيذهب بكل الأحوال، لكنه يستثقل مقابلتها هناك، ويعلم بم يفكر عمه والذي يغيب عن أبيه تماما.

وفجأة وكأنها ظهرت من العدم، صغيرة بعيون واسعة.

لم تكن الأجمل، بحكم جولاته مع أصدقائه شاهد الجميلات على شواطيء الأسكندرية.

ولم تكن الأرقى بل يبدو من النظرة الأولى رقة حالها.

لكنها أسرته هكذا وبدون أسباب، ولم يبحث ولن يبحث عن أسباب فيما بعد.

وجد نفسه يتابعها بعينيه ويسأل عنها عم "سعيد البقال.

"هل تعرف هذه الفتاة عمي سعيد؟ "

تجول عم سعيد ببصره بين الفتيات العائدات من المدرسة

"من تقصد يا سيد حسين "

غضب حسين " ألم أخبرك أن تكف عن مناداتي بالسيد"

نظر له سعيد نظرة امتنان قائلا :

"جبر الله خاطرك دائما يا بني"

تحول حسين إلى المرح في لفتة "لم تخبرني عن الفتاة "

أعاد سعيد النظر بين الفتيات

"من منهن يا بني إنهن كثيرات "

ركز حسين نظراته على صاحبة العينين الواسعتين

" تلك،صاحبة الحجاب الوردي "

نظر الرجل بتركيز ثم صاح

" آه ،إنها نجلاء صغيرة الحاج اسماعيل"

أدرك حسين آخر لمحة منها قبل أن تستدير مع الطريق يمينا ، وغمغم خافتاً : "ليست صغيرة ليست صغيرة أبدا يا عم سعيد"

استدار مكملا طريقه إلى بيت العمّ، على موعد أخذه معها بغير اتفاق أن يراها كل يوم .

***

الحاج عاشور

أسس وأخوه برهام أكبر تجارة في القرية .

تجارة متنوعة ما بين مزرعة للأبقار والجاموس والماعز إلى معمل ألبان وأجبان ، وصولاً إلى أول صوبة زراعية بالقرية .

ورثا عن أبيهما قطعة من الأرض ،لكن بجهودهما معا وصلا إلى هذه التجارة المهولة.

بمعاونة عادل ابن برهام الأكبر

ومساعدة سامية وحيدته

فالحاج عاشور هو" أبو سامية " لا يحب اللقب فليس له من البنين أحد.

جاد عليه الزمان بسامية فقط ولم يفكر يوما بالزواج من أخرى من أجل الولد كما هو دارج.

"أم سامية " كانت رفيقة كفاح طويل ، وموضع امتنان وشكر له طوال حياته، شكر ربما لم يعبر عنه أبداً.

و سامية كانت "بمائة رجل " كما كان يخبرها دائما منذ نعومة أظافرها .

لعله الآن يندم على ما فعله بعد أن صارت "سامية العانس " كما يلقبها نساء القرية .

ولعله الآن يفكر بتزويجها ممن رآه هو مناسبا وأهل للثقة .

***

سامية

العانس ، هكذا كان لقبها بالقرية ، تناسوا سامية
وأصبحت" العانس "أو "سامية العانس "
وقد يتبادر لمن هو خارج القرية أنها امرأة تخطت
الأربعين بسنوات .

لكن الحقيقة أن سامية على مشارف الثلاثين،
والدارج بمثل هذه القرية الزواج قبل العشرين،
لذلك كانت سامية بعرفهم ناعسا .

عزف الخطاب عن طرق بابها بعد وصولها
العشرين ،

فسامية كانت "ابن أبيها " تقف في المزرعة مع العمال ، وتمر يوميا على معمل الأجبان والذي تشرف عليه مهندسة زراعية خبيرة لكنها تعمل لسامية ألف حساب .

ولا يمر يوم دون أن تزور الصوبة الزراعية وتعطي بنفسها الأوامر إلى المزارعين .

هذا الكيان النصف الأنثوي كان موضه طمع ورهبة في آن واحد .

وبعد أن انفض جمع الطامعين ، أحجم غيرهم عن التقدم لخطبتها وصارت "سامية العانس "

لكن سامية في داخلها كانت أنثى تخشى الظهور ، فبالمقاييس المعتادة هي جميلة ، بشرة حنطية وملامح أشبه بملكة فرعونية .

تلك الأنثى لم تكن تظهر إلا أمامه هو ، هو وفقط حسين.

**

- ببيت العم كان له حضور مميز .

يشاكس زوجة عمه (أو عمتي فادية) كما كان يناديها .

ويثرثر بالكثير مع عمه ، ممّا يخرجه من حالة الضيق المسيطرة عليه بعد مرضه وجلوسه في المنزل .

و...

ويتحدث مع سامية .

أو بالأحرى هي من تتحدث معه ، فقد توقف عن مبادرتها إلى الحوار بعد وضوح مخطط عمه أمامه.

تكبره سامية بثمان أعوام ، ربما ليس بالفرق الكبير ولكن تلك لم تكن المعضلة .

بل كونه يرى سامية أخته الكبرى وأحيانا أخيه هي المعضلة .

لم يطف بذهنه يوماً أن ينظر إليها نظرة رجل لامرأة وليس باستطاعته تغيير ذلك.

" حمدا لله على سلامتك يا حسين " نطقتها فادية بسعادة حقيقية فحسين لديها بمثابة الولد الذي لم تنجبه.

على النقيض من أخيه عادل الذي لم يصل أبدا إلى تلك المرتبة ، ربما لفظاظته قليلا وربما لأنه النموذج المصغر من عمّه عاشور ، ولكن قبل المرض.

" سلمك الله عمتي فادية ، كيف صحتك؟"

"بخير حال يا بنيّ"

"وكيف حال عميّ؟"

تنهدت السيدة بتعب " كما هو يا بُنيّ ، بالكاد يؤدي صلواته ثم يعود إلى الفراش "

"هل بإمكاني الدخول إليه "

"بالطبع يا حسين "

خطا نحو الحجرة بتردد لم يكن يريد أن يلقاها الآن ، تلك المماطلة باتت ثقيلة جدا على قلبه.

نقر على باب الغرفة بهدوء ، كان "عاشور" ممسكا بمصحفه التفت على إثر الخطوات.

تهللت أساريره في الحال .

"حسين" تلقفه بين أحضانه وغمره بدفء أبويّ خالص ، وانكب الفتى على يد عمّه يقبلها .

"كيف حالك عمي"

قاطعه العم سريعا " كيف حالك أنت بني ، يبدو و كأنك جندي شجاع "

ضحك حسين "بالطبع شجاع جدا "

بلهفة وتعجل سأله عاشور " حدثني ، قُصّ عليّ كل ما يحدث معك هناك "

تحدثا طويلا ، وضحكا كثيرا، وأصبح العم بوجه غير الوجه.

وهم حسين بالرحيل قبل أن يتطرق عمه إلى "سامية "

" استأذنك عمي ، الإجازة قصيرة ولم أجلس مع أمي بعد "

لم يرد عاشور أن يفاتحه بشأن سامية اكتفى بالتلميح فقط

" ألن تنتظر سامية ، كانت تود رؤيتك "

ارتبك حسين لكنه أدرك نفسه سريعا

" بالطبع سوف أراها عندما أمر عليكم قبل الرحيل "

"حسنا يا بني أعانك الله "

دلف حسين إلى المطبخ ألقى على فادية السلام ثم رحل وحمد الله أنه لم يلقاها .

***

ليومين متتاليين كان ينتظرها أمام المدرسة ، وإجازة تلو إجازة كان يتقصى الأخبار ، علم برقة حال والدها ، وعلم بالود المغلف لأركان المنزل ،

علم بأدبها المشهود له من الجميع ، وعلم أنها بالفعل صغيرة بالكاد ثلاثة عشر عاما .

وقرر أنه لن يتركها مهما حدث ،وقرر أنه سيخوض كل حرب مع والده ، أخيه ، والأهم مع عمّه "أبو سامية "

والبداية كانت مع أمه "فاطمة " والتي كان يعلم أنها أكبر مناصر له

"ست الكل ، اشتقت إليك يا حاجة فاطمة "

ابتسمت فاطمة بحنو ، فهي تعلم صغيرها ، وأنه حتماً سيطلب منها طلبا صعبا .

" ماذا تريد يا ابن الحاجة فاطمة؟ "

ضحك حسين وأسند رأسه على قدمها كما يفعل دائما

"ألا تريدين أن تفرحي بي كما تكرري دائما "

نفضته من على رجلها ونظرت له بفرحة حقيقية

" حقا يا حسين"

توسعت ضحكته "حقا يا أم عادل "

بادرته السيدة بفضول " هل أعرفها ؟ "

ثم تغضن جبينها فجأة " حاشاك أن تكون إحدى فتيات المدينة "

لاحقها بالإجابة " بل من قريتنا ، وبنت على أدب وجمال وأخلاق "

"من يا ولدي؟"

صمت قليلا ثم اصطنع اللامبالاة " ابنة الحاج اسماعيل "

عصرت السيدة ذاكرتها "الحاج اسماعيل ؟" وبدا عليها التركيز الشديد "الحاج اسماعيل صاحب ماكينة الطحين ؟"

هز رأسه نفيا

" بل الحاج اسماعيل السيد "

زعقت الأم " المزارع "

وافقها "نعم هو"

انطفأت الفرحة بعينيها

"ابنة المزارع يا حسين ، هل عدمت القرية البنات"

حاول استجلاب موافقتها

"لم تعدمها .ولكنك لم ترِ نجلاء "

حدجته بنظرها

"وعرفت اسمها أيضا ، يبدو أنها تلاعبت بك "

لم يرد حسين أن يبدأ معركته مبكراً وكانت والدته هي أهم نقطة يريد إحرازها لذلك تحلى بضبط النفس وبذل جهده لإقناعها .

"وهل تعلمين عن حسين ذلك يا حاجة فاطمة !!"

" البنت غاية في الأدب والأخلاق ، وسألت بنفسي عن سلوكها ، ووالدها مشهود له من الجميع بالأمانة والإخلاص وعزة النفس "

نظرت له الأم بطيف رضا

" كل هذا علمته عنهم؟"

أمسك يدها وقبلها " أقسم لك أنك سترين بها البنت التي كنت تتمنين دوما ، وتربيها على يديك ، وتكون لك عونا دائما "

صمتت الأم قليلا ثم أخبرته بما يعلمه ويخافه بنفس الوقت

" وهل تظن والدك يوافق؟ أو عادل والأدهى عمك عاشور ؟"

شرد قليلا ثم استعاد مرحه

" البركة بك يا ست الكل ، أعلم جيداً أنك ستقنعين أبي "

وبداخله كان يعلم أنه سيخوض حربا متدرجة ، بداية من أبيه صعودا إلى الأخ الأكبر المتوسم به الدلال دائما وصولا إلى العمّ الذي سيفقد بزواجه فرصة سامية الوحيدة بالاقتران بمن يتمناه وتتمناه هي.

***

غبار شديد وصوت مكابح سيارة ، وشاب بمنتصف الثلاثين ، مهندم بهدوء ، وملامح عادية مكسوة بآثار المسؤلية والعمل مبكرا ، فالأب بدأ الاعتماد عليه بعدما أكمل عامه الخامس عشر .

وربما ولد عادل بتلك الجينات القادرة على العمل المستمر ، والسعي وراء النجاح ، والتجديد نحو الأفضل دائما .

وتلك الحياة فرضت عليه بعض الخشونة ، وبإرادته اختار هو بعض التملك ، أو أنانية إن صح التعبير .

فهو يرى بجميع ممتلكات والده بصمته الخاصة ويستشعر أنها من تعبه وأنه صاحب الفضل لذلك كان ينظر لأخيه الأصغر ـبفارق سنوات لا بأس بها ـ نظرة تعالي وبعض الاستخفاف المغلف بسخرية على دلاله وعدم تحمله أي مسؤلية حتى انتهى من التجنيد .

فهو بمثل عمره كان يدرس ويباشر مهامه مع والده بكل يسر وسهولة وبعدما انتهى من الشهادة المتوسطة للزراعة تفرغ للعمل وأجاد به وتوسع وكانت سامية معينة له في ذلك .

ولانهماكه بالعمل لم يفكر يوما بالزواج حتى عرضت عليه أمه ابنة خالته لم يبد اعتراضاً تزوج وأنجب لكن زوجته كانت دوما على الهامش ، لا هي غائبة وليس مسموح لها بحضور قوي.

خطا إلى داخل المنزل بخطوات واسعة ، ألقى التحية على والدته ، ولم يكن ذلك الودود الذي يقبل الكف ويسأل عن الأحوال .

وأكمل خطواته إلى شقته بالطابق العلوي لكن نداء أمه استوقفه

"عادل "

عاد إلى الوراء بعض خطوات

" نعم يا حاجة "

تسلحت السيدة بالهدوء

" تعال يا بني اجلس إلى جواري "

زفر في هدوء فهو متعجل سيتناول طعامه وبالكاد يرتاح قليلا قبل العودة للعمل مجدداً

جلس غير مرحب منتظرا بداية الحديث .

"كيف حالك يا بني "

كان سؤالاً حقيقياً ، نابعاً من قلق أم على ذلك الذي أوقف جلّ حياته على العمل .

" كيف حالي ؟ أنا أمام ناظريك دائما يا حاجة !"

"أريد الاطمئنان عليك "

حاولت أن تبثه بعضا من حنانها تفعل ذلك من حين لآخر ، حقاً أنه يبدو غير مكترث لكنها تريد ذلك ككل أم محبة لابنها .

أخذ نفسا عميقا وأخرجه بهدوء ، تعلم أنه لا يجيد تلك الحوارات " أنا بخير حال الحمد لله "

ترددت قليلا ثم حسمت رأيها

" هل تعرف الحاج اسماعيل ؟"

بغير تركيز قال" الحاج اسماعيل من يا أمي ؟

"الحاج اسماعيل المزارع "

بدا وأنه يبحث في الذاكرة ثم عثر عليه

"نعم أعرفه ، ماذا به ؟؟"

بدون أي مقدمات ألقتها في وجهه

" حسين أخوك يريد خطبة ابنته "

ولو كان هناك تعريف للبركان فيبدو أنه يحدث الآن على صفحات وجهه

وبصوت هادر زعق

" وهل هذه آخر طلبات السيد المدلل ؟"

وبدأ يروح ويجيء حتى يفرغ غضبه

" بدلا من اختيار بيت له اسمه يرفع من شأننا وتجارتنا يختار هذا النسب "

ثم زعق ثانية " بل بدلا من مزاولته العمل معنا يمشي في الطرقات ويحاكي الفتيات ويأتي إلينا بهذا الخبر "

وأخيرا استعاد بعضاً من هدوءه

" أخبريه أن هذا الطلب صعب أن نجيبه ، وليتحمل المدلل الرفض هذه المرة "

وختمها بالقاضية " لن تحدث هذه الزيجة طالما بداخلي نفس "

حاولت السيدة تمالك أعصابها ، وقررت تركه لبعض الوقت حتى يهدأ تماماً ثم تعيد فتح الموضوع معه .

"اصعد، وتناول غداءك يا بنيّ ولنا حديث آخر "

زفر غيظاً وغادر يدق الأرض بقدميه ،بداخله يغلي وليس السبب سوء اختيار البيت والنسب كما وضح لأمه ، ولكنه هذا الجزء بداخله الذي يرى بحسين دائما غير جدير .

غير جدير بمحبة أمه ، غير جدير بدلال أبيه ، غير جدير بتعبه وتجارته التي يفني شبابه به ولا يملك هو سوى استنزاف الأموال من أرباحها.

رأى في رفضه الزواج فرصة للثورة على ذلك الصغير المدلل، ولو من باب العناد أو مجرد عدم رغبته في تحقيق مطلبه من أول مرة .

صعد شقته ودخل فورا إلى حجرته دون كلمة ، تبعته "سلوى" زوجته متعجبة من الحال التي دخل بها .

ربتت على كتفه برفق " ماذا بك عادل ؟"

نفض يدها سريعاً واستدار لها بأعين حمراء

"ماذا بي! ليس بي شيء ،حضري لي الطعام ليس لدي وقت"

شعرت بغصة في حلقها ،لكنها ليست المرة الأولى هذا هو عادل ،وهذه هي حياتها ، وعلى الرغم من محبتها الشديدة لخالتها فهي لا تستطيع إنكار أنها لم تحلم يوما بعيشة كتلك التي تحياها أبداً.

"الطعام جاهز ، بدل ثيابك والحقنا "

جلس على المائدة تعصف به أفكار شتى ، تنظر له سلوى تتمنى لو بإمكانها سبر أغوار نفسه ، وتختلس

ابنتاه النظر إليه كل حين ، لقد اعتادتا أن تصمتا تماماً إذا كان والدهما بهذه الحال ، وهو ما يحدث كثيراً جداً.

"لماذا لا تأكلان ؟" نطق بها بكل خشونة ولا مبالاة ممكنة .

ارتجفت الفتاتان رغم أنه أبدا لم يرفع كفه عليهما ، لكن صوته وغضبه الدائم كانا يبعثان الرعب بنفسيهما .

"نأكل يا أبي "

نطقت بها كل منهما ، والتفتتا تنهيان صحن الأرز باللوبيا دونما كلمة .

أنهى طعامه ،واحتسى الشاي على مهل وبشرود تمام كما هي عادته وأخذ يفكر بهدوء بما عرضته أمه ، ولاحت له فكرة ربما يكون نسب حسين من تلك الأسرة البسيطة بمصلحته ،

هو يعلم "اسماعيل" جيداً لن يكون طامعا به فابنتاه تزوجتا من بعض متوسطي الحال وأبدا لم يقبل مساعدة من أي منهما ،

كذلك سيضمن خضوع حسين وطاعته لكل أمر ضمانا لموافقته على هذه الزيجة.

والأهم بالنسبة له أنه كان يعلم برغبة عمه في تزويج حسين من سامية وهو ما كان يسبب له قلقاً ،فذلك سيجعل سامية وحسين بمرتبة أعلى وهو ما لم يكن يقبل به أبدا .

لاحت على شفتيه شبح ابتسامة ، فقد قرر العبث مع أخيه قليلا ، ومماطلته ومضايقته حتى يحصل

على موافقته على الزيجة ، وهو كفيل بإقناع أبيه بكل بساطة ،

أمّا العمّ فلن يكون لديه خيار ولن يستطيع فض الشراكة مع أبيه وهو بهذه الظروف الصحية ، وهو "عادل برهام" سيكون المتحكم بكل شيء.

***

الفصل الثاني

على عتبات الحياة نقف بخطى متعثرةٍ

لا نملك حق الاختيار..

وليس لدينا فرصةً للرفض..

لكننا نتحمل دوماً النتيجة..

لم يكن يوماً ضعيفاً ، بل كان مِمن تقذف إليهم بالصعاب يصوغها لكَ ماء جارياً.

كان مِمن يستطيع تحويل بضع جنيهات إلى شيء يدر أرباحاً وفيرة ، لعلها منحة من الله ، ولعلها دعوة والده له قبل وفاته " الله يرضى عليك يا ولدي ويجعل في يدك الصعب سهلاً"

وبدأ برهام وأخوه تجارتهما من القاع ، لم يكونا رقيقي الحال لكنهما استطاعا تحويل القليل الذي تركه الوالد إلى أكبر تجارة بالقرية ، لم يظلما أحد ولم يبسطا أيديهما إلى ما ليس لهما .

كان عاشور قاسياً قليلاً لكن برهام كان يضبط كفّة الميزان ، ويستطيع امتصاص الاختلاف بينه وبين أخيه دون أن يفسد شيئاً بينهما فهو كما كان يردد على مسامعه دائما "من بقي له من رائحة أبيه،وعائلته وظهره"

وكبر عادل،وبإرادته أو دونها ترك له الكثير من المهام والمسؤليات ليس عن ضعف وإنما رغبة في مشاركة ابنه الذكر الأكبر بكل تفاصيل العمل ،ومع التقدم بالعمر أراد الراحة قليلاً من تلك الضغوط.

لكنه أبداً لم يترك له الدفة كاملة ، فقد كان يرى بعيني ولده ذلك البريق الذي يرغب بالتقدم والسيطرة والالتهام وكان وجوده إلى جواره كثيرا ما يقنن جموحه المخيف .

كبِر الأولاد ولمح من أخيه رغبته بالنسب ، لكنه تظاهر بعدم المعرفة أمام الجميع ، لم يكن يرغب بتلك الزيجة أبدا ، حسين صغيره الأثير لديه لا يصلح لتلك العلاقة ، إنه يحتاج لمن يستشعر حنانه وروحه الشفافة الجميلة .

لا يتهم سامية بشيء،إنما فقط النشأة التي نشّأها عليها والدها أكسبتها صلادة وحزم أبعد ما يكون

عن طبيعة حسين اللينة ، وإن كان على يقين مما تكنه سامية له بقلبها ، لكنه وحده غير كاف لإتمام الزواج.

**

عاد من صلاة العشاء يتمتم بتسابيح بصوت خفيض،استقبلته فاطمة بابتسامة هادئة تخفي ما حدث مع الأكبر .

"حمدا لله على السلامة يا حاج"

"سلمك الله يا أم عادل "

وبذكر اسمه تبدل وجهها ، لكنها سريعاً ما تقدمت أخذت منه العباءة والعصا علقتهما بموضعهما جوار الباب الواسع ذي الضلفتين.

"ماذا بك يا فاطمة "

باغتها بسؤال، كانت تظن أنها كتمت انفعالاتها جيدا،سريعا قبل أن تخونها الكلمات أجابت

" لا شيء بكل خير يا حاج"

جلس على الأريكة وطلب منها أن تجلس جواره

"هل هي عشرة يومٍ حتى تظنين أنني لن أعلم ما بك "

هي رفيقة العمر ، وما بينهما يتخطا تلك الكلمات المحشوة من هيام وغرام إلى آخر تلك المصطلحات ، هي من يتكيء عليها وتتكيء عليه وكفى.

ترددت قليلا ثم حسمت أمرها لم تستطع قبلا أن تخفي عنه شيئا ولن تستطيع الآن:

"حسين يريد أن يخطب "

أصابته بعض الحيرة لطالما أرادت هذه الخطوة ما الذي يدعو للحزن إذاً !

" هل اختار أحدا؟"

صمتت قليلا ثم نطقت بصوت خفيض

"ابنة الحاج اسماعيل المزارع "

وجم الأب ، إذاً هذا ما أحزنها ، اختيار غريب يا حسين .

" وما رأي عادل ؟"

انطلقت كالقطار

" وهل لعادل رأيّ ،إنه ابنك أنت ، ليس لأحد ولاية عليه ولا يملك أحد حق القبول والرفض سواي وإياك"

الآن اتضحت الصورة أمامه الأكبر الذي يرى نفسه مسيطراً، رفض الزيجة ،وبالطبع أغضب والدته ، ولا شيء عنده يساوي إغضاب فاطمة .

بكل هدوء ممكن نطق

" دعيني أتحدث مع حسين أولاً".

****

حياتها أنغام عادية ، ليست أوركسترا لبيتهوفن،وليست لحن ناي شجي .

هل جربت أن تحيا داخل بوتقة انصهار،أسفل منك شعلة دائمة،والبوتقة محيطة بك لا تستطيع القفز خارجها،ومطلوب منك تمام الانصهار كل يوم ثم العودة لحالتك الأولى مساء لتنصهر من جديد في الصباح .

هل جربت أن يصدح صوتك بجنون داخل قلبك فقط ،أن تركل روحك بكل اتجاه وتبقى جوارحك ساكنة كسكون الموتى .

تلك كانت "سامية " تعلم جيدا نظرات الجميع لها رجالاً ونساء .

النساء يرون بها العانس التي نفضت عنها موكب الرجال .

والرجال يرون بها الصلدة القاسية "ابن أبيها" المفتقدة لكل نعومة.

أبوها نفسه يراها مثلهم ، لكن أليس هو السبب ؟

"اذهبي مع العمال يا سامية "

" أنت ولدي يا سامية "

"احفظي مال أبيك يا سامية "

" ارفعي صوتك حتى يهابك المزارعون"

"ليس خاطباً جيداً ، انه مجرد طامع "

واقتنعت سامية أن الجميع يطمع بها ، وترسخ لديها أنها ليست أنثى محل إعجاب ، ودارت بساقية الحياة التي اختارها لها أبوها وما فعل ذلك إلا خوفا عليها لكونها وحيدته_ وإن كانت دوما تظن أنه فعل ذلك للحفاظ على تجارته_.

حتى شبّ الصغير أمام عينيها ، صار شاباً وسيماً مرحاً حنوناً ، رأت به ما ينقصها ، ومال القلب دون أي تخطيط.

وتبدلت سامية ، صارت ترقق الصوت وتخفضه ، وتزين الوجه ، وتتصيد اللقاء .

صارت أنثى بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، وتبحث عن إعجاب بعيون آخر وهي التي لم تبحث عن إعجابها لدى أحدهم من قبل.

أنثى تطمع بوصال أبدي تعلم أنه بعيد المنال ، لكنها أبداً لم تفقد الأمل .

لمحته خارجاً من دارهم وهي عائدة من معمل الأجبان ، لعنت اللحظة فهي محاطة بعبق الألبان ،

وِشاحها مطويّ حول وجهها بإهمال ، وتنتعل حذاء أشبه ما يكون بذلك الخاص بعمال الحريق .

لكنها لم تقاوم رغبتها بالتوقف لمخاطبته .

"حسين" نطقتها بعد عدة محاولات لاختبار طبقة صوت أنثوية.

التفت لها ، رأت بصفحة وجهه انفعالات شتى لم يكن من بينها أبدا الاشتياق .

رسم بسمة متكلفة على وجهه وخاطبها بحنوه المعتاد

" سامية ... كيف حالك؟"

تجاهلت ما رأت وأكملت

" بخير حال ، أوحشتنا لم نرك منذ زمن "

وأطرقت بخجل حقيقي ، سامية تجلى بوجنتين

ورديتين!.

استدعى حسين مرحه ومزاحه حتى ينهي حرج

الموقف

" ها قد انتهيت من التجنيد وسوف تملون من

لقائي كل يوم "

ازداد ارتفاع أنفاسها وهي تجيب

" لن نمل يوما من رؤيتك "

أراد الرحيل دون أن يسبب لها الحرج، دوما ما يحدثه شيء منه بالتعاطف تجاهها ، ليس ذنبها كونها وحيدة والدها .

"حسناً سامية ،يبدو أنك عائدة لتوك من العمل لنا لقاء آخر ، سلام يا ابنة العمّ"

رحل بخطوات واسعة ولو كان نظر خلفه لرأى تلك الصلدة القوية غارقة ، غارقة بحر ليس بإمكانه أبدا أن ينقذها منه مهما حاول .

****

أنت ثمرة لم يحن موعد قطافها لكن المزارع يصر على أنها ناضجة .

هل بإمكانها التشبث بعودها ؟ هل تستطيع إقناع المزارع بتركها قليلا؟ والأدهى هل تفلح محاولاتها في تقديم النضج عن موعده ؟

والإجابة عن كل هذا ، لا !

كان على موعد مع رفاقه ، يتسامرون سويا عند ذلك المقهى الذي افتتح حديثاً بالبلدة ، على الأرجح لا يعلم عادل بوجود هذه الأشياء بقريتهم .

وعلى الرغم من مفاتحته لأمه بأمر الزواج ،إلا أن لقاء سامية أصابه بالضجر ، لا يريد أن يجرحها ، ولا يريد أن يخسر حب عمّه وعمته فادية ، لكن ما للقلب حيلة فيما يريد وفيما يرُدّ.

وتذكر ما سمعه بين أمه وأخيه ، كان غافيا واستيقظ على صوت عادل الزاعق بشدة .

و شرد ، شرد بكلماته ، هل هو حقا مدلل ؟

لطالما حاول مشاركته في فهم سير العمل لكنه لم يلق سوى السخرية والاستهزاء من قدراته

مرة تلو أخرى حتى توقف تماما عن المشاركة مدعياً الانشغال بالدراسة ثم التجنيد.

والآن صار لزاما عليه التعامل مع الوضع ، واقتحام غموض أخيه ومحاولة مجاراته في إتقان العمل .

لو كان بيده لاختار الرحيل من القرية والبدء بمشروع بسيط جدا بعيدا عن عادل وتسلطه ، لكنه لا يقو على كسر والده أو والدته .

لاحظ رفاقه شروده

"ماذا بك حسين ؟هل يذهب الحب العقل هكذا "

وقهقهوا ضاحكين من حاله .

زفر بضيق و تركهم وانصرف عائدا،استقبلته والدته أخبرته برغبة والده بالحديث معه.

تدرك أن لديك مهمة تعلم تفاصيلها جيدا تخطط لكل خطوات التنفيذ لكن عندما تعلم الموعد تتلاشى كل تلك التفاصيل من رأسك .

وهو كان يعلم أن أباه سيطلب لقاءه وكان يعد العدة ويجهز ردود التساؤلات وبمجرد أن علم أنه بانتظاره ،تناسى كل الحجج والبراهين التي فندها سابقاً وسار إليه بذهن خالٍ تماما.

نقر على باب الحجرة بهدوء ثم دلف إلى الداخل .

بصوت رخيم قال والده

" اجلس يا حسين"

جلس على مجلس والده الأرضيّ ، صمت تام ورائحة البُن تفوح من قدح القهوة الساخن للأب .

" حسناً ماذا هناك ؟"

تملك التوتر منه "ماذا هناك يا والدي"

رفع وجهه قليلا ونظر إليه نظرة جانية وأخفى ابتسامة تجاهد للخروج من ذلك الغارق بخجله أمامه .

"تقول أمك أنك تودُ بمحادثتي بموضوع "

حاول ابتلاع ريقه فلم يجده،وبدأ يحاول استجماع الحروف.

"نعم يا أبي أريد التقدم لخطبة ابنة الحاج اسماعيل"

بدا عليه التفكير

"حسْبَ علمي فبنات الحاج اسماعيل متزوجات بالفعل "

سارع حسين بالرد " تبقى لديه واحدة ، نجلاء "

نظر إليه والده مليّاً " هل رأيتها ؟"

ازداد تعرق جبينه "نعم يا أبي رأيتها لدى عودتها من المدرسة "

"المدرسة! صغيرة هي إذاً؟"

" لا لا يا أبي ليست صغيرة انها بالمرحلة الإعدادية بنفس عمر سلوى ابنة خالتي حين تزوجت عادل "

"وهل تظن أن هذا النسب مناسب ؟"

سقط أول حجر فوق رأسه .

تنحنح قليلاً ثم أجاب " الحاج اسماعيل معروف بالبلدة يا أبي ، لا غبار عليه"

"وماذا عن وضعه الماديّ؟" وهذا الحجر الثاني .

"لا يفرق معيّ ، لن يقلل مني الارتباط بها،الجميع يعلم تعففه ونزاهته "

"وماذا إن أخبرتك أني لا أوافق" إنه الحجر الثالث

"لا يمكنني إغضابك أبدا يا أبي،و لكن فلتسمح لي فأنا متمسك بنجلاء وأتمنى أن تفسح صدرك لي ، لا يعيب المرء رقة حاله ما يعيبه حقه هو سوء الخلق "

صمتا لبرهة من الزمن ثم أخبره والده بما كان يخشاه :

"تحدث مع أخيك الأكبر ، ولنا حديث آخر"

رفع عينه قليلاً ينظر لوالده ، ثم أخذ نفسا عميقاً واستقام ناهضاً " حسنا يا أبي سأفعل "

خرج من المجرة بحيرة من يقف على الشاطيء

يستطيع السباحة لكنه يخشى الغرق مع أول موجة.

لم يكن بحمل مواجهة جديدة اليوم لذلك أرجأ

محادثة أخيه للغد ، داعياً الله أن يلقى منه قبولاً

وألاّ يضطر لمخالفته أو مخالفتهم جميعا .

****

صباحاً استيقظ باكراً سبق أخيه إلى العربة ، رآه

قادماً ابتسم ابتسامة واسعة كقلبه

" سوف أذهب معك إلى العمل"

التوت شفتا عادل بسخرية ترجمها لكلمات

"منذ متى هذا النشاط يا صغير والديك ؟"

ابتلع السخرية والإهانة بجوفه وأكمل ما انتوى فعله

" منذ اليوم يا أخي الأكبر "

قام معه بجولته الصباحية بداية من مزرعة الأبقار والأغنام ثم معمل الأجبان ثم الصوبة الزراعية وأخيراً مصنع الأعلاف الجديد.

واستقر بهما المقام بمكتبه الصغير بالمصنع فهو رغم شعوره أنه صاحب ومؤسس تلك المشروعات الجديدة إلا أنه لم يمل يوماً لمظاهر الترف والثراء تلك .

بادر حسين بالحديث

" عادل أريد خِطبة نجلاء ابنة الحاج حسين "

هكذا قذفها وارتاح من تردده.

هل رأيت يوماً ثعلباً ينظر إلى فريسته؟ ، دعك من هذا التشبيه ، هل رأيت إحدى الدعاسيق الصغيرة تنقاد طواعية إلى شبكة عنكبوت ؟

أتعلم كيف يكون شعور الثعلب والعنكبوت ، تلك اللحظات من الترقب قبل النصر المحقق ، هذه الثقة التي تعتليهما لكونهما أحكما إغلاق الحلقة على الفريسة .

نظرة ثاقبة نظرها تجاه حسين تلاها نصف ابتسامة ملتوية ثم صمت ، كان يحاربه بالصمت ، يعلم أنه بموطن قوة ويلعب بأعصابه بسعادة هو نفسه يستنكرها أحيانا (أحياناً فقط).

وأخيرا تحدث

" لماذا ؟"

حاول حسين استحضار القوة أمام هيمنة أخيه التي يحاول فرضها على الحديث

" لأنها الزوجة التي أتمناها ، على أدب وأخلاق وجمال ،ومن بيت طيب و .."

قاطعه قبل أن يكمل مستهزئاً بضحكة عالية

"بيت!عن أي بيت تتحدث؟بيت المزارع الذي

لازال بالطوب النيء"

كاد أن يحتد حسين عليه أن المال ليس كل شيء

كما يفكر هو دائما لكنه حبس تلك الحروف بحلقه

وحاول التمسك بمخططه

"لكن الرجل صاحب خلق وأمانة ولا يطمع بما

بيد غيره ، وربى أولاده جميعاً كذلك"

صمت جديد ، كأنه يريد سماع صوت أنفاسه العاليه

، يشعره أنه يعلم بتوتره.

"لماذا أوافق؟"

"لأني أخيك"

أشار بأصابعه دلالة على استكمال الكلام

" و ... أخيك وماذا ؟؟ أيّ نفع قد يعود عليّ أنا بتلك زيجة"

أخذ حسين نفسا عميقاً ثم نطقها

" ماذا تريد يا عادل ؟"

ظهرت الابتسامة،ابتسامة النصر، الآن أحكم العنكبوت شباكه.

"تعلم جيداً أن موافقتي تعني موافقة أبيك ومن بعده عمك عاشور "

وغمز بعينه " وما أدراك ما عمك عاشور "

"فلنقل أن العمل يومياً بمزرعة الأبقار من السابعة صباحاً كفيل أن يعلمك نظام العمل "

نظر إليه حسين نظرة غضبى ،لم يتوقع أن يساومه عادل أبداً

"حسناً ، بالطبع أريد التعرف على العمل "

استطرد عادل سريعا

"ليس هذا كل شيء ، الأموال معي دائما،سوف تصرف لك حصة شهرية أنا من يحددها "

فكر قليلا ثم توصل أنه ربما استطاع أن يفاوض أبيه بهذا الأمر لاحقاً

"موافق"

ابتسم عادل ابتسامته الساخرة تلك

" لهذه الدرجة تريدها !"

ثم أكمل سريعا

" أخيرا لا داعي أن تتعامل هذه الفتاة معي بأي شكل من الأشكال "

"حسناً عادل لا يوجد ما يسمح بتعاملكما سوياً"

بكل ادعاء ممكن نهض ماداً كفه إلى أخيه

" مبارك أخي الأصغر "

أن تسقط بشبكة العنكبوت يعني أنه سيعتصرك

حتى يحولك إلى سائل قابل للهضم ، لكنك

للأسف سقطت بإرادتك .

****

مساء تجمعت الأسرة بتلك الغرفة ذات الجدران العالية والمجلس الأرضي، أشعلت الأم "السبرتاية" لصنع القهوة للوالد.

كان حسين يبادلهم النظرات الصامتة ، كم يمقت هذا الصمت ، وهذا الضعف الذي يضطره للجلوس في انتظار الحكم على أمر يخصه هو.

هل كان بيده أن وُلِد الأصغر ،وهل له إرادة في كون أخيه مدمن للعمل ، وهل لزاماً عليه أن ينصاع لاتفاقه معه دون أن يخبر أبيه كما اتفقا.

قطع والده الصمت وهو يرتشف من قدح قهوته

" ما رأيك يا عادل بموضوع الخطبة"

اعتدل عادل في جلسته قليلاً ، وبدا كمن يفكر .

ألقى نظرة نصف ساخرة على الصغير ثم أجاب

"بيت محترم يا حاج ، رغم رقة حالهم لم نسمع

عنهم سوى كل خير"

بدت فاطمة كصغير شاهد إحدى الحيل السحرية

بمولد القرية ، فاغرة فاها ،محدقة بعينيها ، لكنها لم

تجرؤ على الرد .

لم يتعجب الأب ، كان يعلم أن عادل سيصل لاتفاق مع أخيه ، اتفاق يحقق له رغبته في السيطرة .

"حقا!"

"بلى،الحاج اسماعيل ربى أبنائه جميعا على الخلق القويم ، وبناته يضرب بهن المثل في القرية بعيدات تماما عن أي شك "

نظر له برهام نظرة ثاقبة ، تظن يا ولدي أني لا أفهمك ، لكن لا أحد يعلم داخلك مثلي .

لم ينطقها بالطبع ، ارتشف رشفة من قدح القهوة، وتمتم بتسابيح على مسبحته ثم التفت إلى حسين:

" حسنا يا ولدي أريدك أن تعلم أنك كبرت الآن ، سوف تتشارك العمل مع أخيك ، وعليك أن تبذل كل جهدك"

تبادل الأخوان النظرات ، عادل بنصف النظرة الساخرة ، وحسين بنظرة كلها ...

لم تكن نظرة محددة كانت خليط من غضب وخوف وحيرة وأمل ولم يكن من بينها السعادة .

"لقد تقصيت أخبارهم ،ووصلني كل طيب عن الفتاة "

"سوف أخبر عمك عاشور بالأمر ثم أفاتح الحاج اسماعيل "

وبات حسين ليلته يحسب كل حساب لتلك المواجهة بين أبيه وعمه، ثم تذكر سامية يخشى عليها الصدمة ، لكن بنجلاء أو غيرها كان سيتزوج ،وعاجلاً أم آجلاً كانت ستنال الوجع ، ودعا الله أن يمر الأمر بسلام .

****

دوما ما أخبرتها أمها

" عندما تضحكين يشرق الكون، تبسمي يا سامية"

واستيقظت صباحاً بأكبر ابتسامة ، ذهبت للاستحمام ،وانتقت أفضل ثيابها ، واكتحلت بكحلها الخاص الذي تصنعه لها إحدى نساء القرية ، ووضعت وشاحاً ذا ألوانٍ زاهية .

اختصاراً ، كانت مشرقة ، وكانت ترى الكون مشرق ، سوف تقابله اليوم، و دعت الله ألا تتلبسها حالة البلاهة كما يحدث كل مرة ، سوف تحادثه وتجبره على محادثتها ،

حتماً إذا عرف سامية من الداخل وليس سامية العانس سيتغير الوضع ، هكذا كانت تظن.

خرجت من حجرتها ، رأتها أمها ، لم يخفي وجهها تعجبها من طلتها ، لكنها لم تشأ إحراجها .

" هيا نفطر مع والدك بحجرته "

نظر كل من عاشور وفادية إلى بعضهما البعض ولم ينطقا ، تناولت إفطارها ورحلت إلى العمل وتحدث عاشور

"ألا ترين أنه لا حرج أن أفاتح برهام بالأمر"

لم تدعي جهلا ، هي وهو يعرفان ما تكنه نجلاء لابن عمها ، لكن أن يفاتحه بالأمر ..

"كنت أود أن يتقدم هو أولا ، ابنتي ليست معطوبة يا عاشور "

ونطقتها بألم داخلي وحزن منه أولا فهو السبب بما آل إليه حال ابنتها

"من يتزوج سامية قد نال كل السعادة ، ولا ضير أن ألفت نظر أخي ولو من بعيد "

"كما ترى"

وقبل أن تبتلع ريقها كان الباب يدق ،فتحت الخادمة وأخبرتهم أنه الحاج برهام .

" تفضل يا أخي ، للتو كنت أخبر فادية أني أود لقاءك"

نطقها بكل فرحة ، ظنا منه أنها إشارة من الله بالقبول .

" سامحني يا عاشور لم أمر عليك منذ يومين " وهذا نطقها بأسف حقيقي أسف لتقصيره فعلا في الزيارة ، وأسف لما سيلقيه على مسامعه.

" ربما ما أخبرك به يكون تعويضا عن التقصير ، وسبباً للفرح بإذن الله "

نظر كل من عاشور وفادية لبعضهما البعض غير مصدقين ، هل حقا استجاب الله دعاءهما .

" خيراً يا أخي "

" كل خير إن شاء الله "

وسكت هنيهة فقط

" حسين يود خطبة ابنة الحاج اسماعيل "

هل تعلم ذلك الجهاز الموصول بالقلب والذي يظهر عليه مؤشر النبضات ارتفاعاً وهبوطاً مصدرا طنيناً مميزاً.

لقد ارتفع معدل النبضات مع أول حروف نطقها ، وبختام الجملة كان بأدنى مؤشر ، وبات الطنين في رأسيهما الآن .

انتظر برهام ردّ، أي ردّ ، لكنه لم يلق سوى الصمت والوجوم.

اضطر إلى مقاطعة صمتهما المؤلم هذا

" ما رأيك أخي؟"

ازدرد ريقه،ثم طلب من فادية قارورة الماء الفخارية ،وحاول تدارك الموقف

" فليسعده الله،مبارك يا أخي "

هكذا فقط ! لن يستفسر ؟ لن يرفض ؟ لقد ظن أنه سيقيم الدنيا ويقعدها .

" سوف أحدد موعد مع أبيها لزيارتهم وخِطبتها"

وبذات الوجه المكفهر ،ضف عليه لمحة من انكسار

" على بركة الله "

وغادر برهام سريعا ، وتحدثت فادية أخيراً

" لماذا لم تخبره ؟ ، لو أخبرته لما استطاع الرفض !"

" كيف لم تُعَقِّب؟ "

" هل ستترك ابنتك هكذا يا عاشور "

"سوف ينفطر قلبها "

" من سوف يتزوجها بعد أ ن وصلت الثلاثين "

ولأول مرة تثور على هذا الذي أذاقها من القسوة أنواع

" أنت السبب ، حولتها من تلك الرقيقة إلى ابنك الذي لم تنجبه ، أخبرتك أن تتزوج وتنجب صبياً ، أهون علي أن تتزوج على أن أرى ابنتي عانساً هكذا"

"لماذا لا ترد ؟"

نظر لها بانكسار تام ، هي لا تدري شيئا عن كسرة قلبه على ابنته ، ولا تدري أنه لا يستطيع الوقوف بوجه أخيه كما يظنوا جميعا.

هو المقعد طريح الفراش بعد جلطة ، سببها كلام سمعه من نساء القرية عن (ابنته العانس ، التي لابد وقد وقعت في خطيئة لذلك ترفض الزواج) لم يخبر أحداً بما سمع لكنه لم يتحمل .

كيف له أن يثور على أخيه ،وماذا بعد ؟ ،وتجارته وأمواله من سيديرها ، يعلم أن عادل هو صاحب

الرأي الأول ، لابد وأنه موافق ، لو رفض هو سيخبره عادل أن يفض الشراكة وهو لا يستطيع ، ولا يريد أن يصنع عداوة بين سامية وابني عمها وهو على قيد الحياة .

رفع رأسه إليها بانكسار

" هو اختار من يتزوجها، وابنتنا ليست معطوبة كما ذكرتي سوف يأتي صاحب النصيب حين يأذن الله"

" والآن اتركيني لأنام "

شعرت بالخوف عليه ، خشيت أن يصيبه ضرر جديد ، يكفيه ما أصاب قدمه .

" حسناً يا حاج ، إذا احتجت شيئاً أنا بالحجرة المجاورة "

خرجت من الحجرة لتنال الصدمة ، سامية بغرفتها تعبث بالخزانة.

" متى رجعت يا سامية؟"

نطقتها بحروف مرتعشة .

" منذ قليل يا أمي ، نسيت بطاقتي الشخصية "

نطقتها بكل صلادة في الكون وانصرفت .

زهرة "شب الليل " تتفتح أوراقها عصراً ، تنشر شذى في الأجواء وتظل متفتحة طوال الليل فإذا ما طلع الصبح أغلقت أوراقها حتى وقت العصر، مخالفة بذلك طبيعة النباتات كلها .

وكانت سامية مثلها تعود من عملها تدخل حجرتها تتحرر من سامية الأخرى التي تزعق بالعمال وتجادل المهندسين ، تبدل ثيابها بأخرى هادئة ، تحتفظ ببعض الروايات بخزانتها تخرجها وتبدأ القراءة.

لا تصادق أحدا ، ولا توجد أم تسمح لابنتها بمصادقتها ، فإذا لاح ضوء الصباح انغلقت على

نفسها ولملمت شذاها وغدت سامية العانس كما يلقبونها.

اليوم فقط قررت أن تخالف سيرتها ، أشرقت بالصباح ، وتفتحت ونشرت شذاها على كل من مرت جواره ، وبعد وصولها المعمل لم تجد البطاقة عادت المنزل سمعت صوت عمها ، أسرعت لترحب به وصلها أول حروفه

" حسين يريد خطبة"

وقبل أن تمسك النجوم بيديها جاءت التتمة

"ابنة الحاج اسماعيل"

كزهرة شب الليل أغلقت نفسها سريعا ، وبسرعة تحسد هي نفسها عليها تمالكت رباطة جأشها ، دخلت غرفتها وانتظرت رحيله.

لم يؤلمها كلام العمّ ما آلمها حقاً هو كلام أمها ، هل باتت تتسول الزواج الآن ، وكزهرة شب الليل قررت أن تعود إلى سابق عهدها ، أن تتفتح ليلاً فقط لنفسها ،وصباحاً لا يليق بهم سوى وجه العانس الذي يليق بهم وبها.

****

سمكة لا تستطيع السباحة ! تبدو الجملة غير منطقية،تحمل من عبثية التضاد ما يدعو إلى عدم تصديقها.

لكن أمها اعتادت أن تقص عليها هذه القصة كل مساء ، سمكة تشعر أنها سوف تغرق في البحر الواسع فاستعانت بقطعة خشبية سقطت من أحدهم بالبحر ظلت واضعة إياها بفمها تحركها دائما حتى جرفها التيار بمرة وضاعت وتفاجئت السمكة أن ما لديها من الزعانف يمكنها من السباحة بكل سهولة .

ولا تدري لماذا الآن بعد أن أخبرتها أمها بأمر الخاطب ، ورأت على وجهها علامات القبول ، ثم أخبرتها بأنها خائفة عليها من هذه الزِيجة ، لا تدري لماذا الآن تذكرت قصة السمكة .

هي صغيرة بالفعل ، لكن معلمها بالمدرسة كان دائمًا ما يثني على ذكائها

" أنت يا نجلاء تسبقين عمرك بالكثير ، لو كنت بالمدينة لكان لكِ شأن "

كان معلم الرياضيات ، لكنه محب للغة العربية،

كان يعطيها كتباً للعقاد وطه حسين وتعود إليه بنقاشات ينبهر بها .

وكثيراً ما أخبرها أن تؤخر الزواج حتى إتمام الشهادة الثانوية على الأقل

" صدقيني يا ابنتي سوف يأتي الزواج بوقته ، تعلّمي ، أنت نبيهة ولديك ذاكرة ممتازة سوف تدعين لي بعد وفاتي "

ولكنها الآن حيرى ، حسين شاب ممتاز ، زميلاتها جميعهن يحسدنها عليه ، وهي تشعر بشيء نحوه ، سوف تكمل عامها الرابع عشر

"ما الذي يحدث إذا تزوجت وأكملت الدراسة !"

" لن يرفض حسين ، أعلم ذلك "

أرادت أن تصدق ذلك ، وهي بالفعل صغيرة لم تر من الحياة شيئاً ، ولا تدري أي شيء قد يخبئه القدر .

رسمت خطتها زواج ودراسة ، وظنت أن ما تخطه يدها الصغيرة لابد وأن يحدث.

****

الحركة بالبيت على قدم وساق ، ذلك البيت المتواضع سيستقبل عائلة الحاج برهام .

لم يرد والدها التكلف جميع من بالقرية يعلم حالهم ،لكنه أراد تكريم ابنته..

طلب من فاطمة إعداد عشاء فاخراً ، ذبحت زوجين من البط ، وجهزت بعض الأرز بالفرن الحطبي ، وطاجنا من اللحم والبطاطس لا أحد يصنعه مثلها ، وأخبرها أن تصنع محشي من أوراق الكرنب .

وجهزت شربات الورد وخففته بالماء قليلاً .

ثم ذهبت إلى نجلاء ، وضعت قليلا من الكحل بعينيها ،ورشة عطر على ملابسها البسيطة ، وصارت الصغيرة كالقمر المنير .

وجاء الخُطّاب ، جلس الرجال مع بعضهم ، ودخلت النسوة إلى الداخل ،

مهلا هل تعلم من هن النسوة ؟

الحاجة فاطمة وسلوى وابنتيها والحاجة فادية و... وسامية .

قررت أن تحضر الخِطبة ، لكنها لم تفكر أبداً كيف سيكون وقع رؤيته مع أخرى عليها.

رحبت سعاد بالضيوف ، كانت ابنتها معها منذ الصباح ، سلما على الجميع وتبادلا حديثا بسيطا مع سلوى فقد كانت زميلة لهم منذ زمن .

ثم دخلت نجلاء.

قمر صغير بريء ينير البيت .

سلمت عليها فاطمة بود حقيقي،وكذلك سلوى ، وفادية حاولت إظهار ذلك الود ، أما سامية فلم يظهر على صفحة وجهها أي انفعال سلمت عليها ونظرت لها مليّاً حتى تعجبت الصغيرة.

ثم أجلستها أمها جوار فاطمة .

عند الرجال كان عادل واضعاً وجهاً ساخراً منذ خطا أول خطوة .

سلم على الرجل باستعلاء ، لكن اسماعيل أظهر حفاوة حقيقية بادله برهام إياها .

وُضع الطعام أثنى الجميع على مذاقه المميز ، ثم تحدث الحاج برهام

"بسم الله ، يشرفنا يا حاج اسماعيل أن نخطب يد ابنتك نجلاء لولدي حسين "

كان حسين متوترا من البداية وبعد أن لفظها والده ازداد تعرقه ، نظر إلى وجه اسماعيل فقرأ قبولا طمأنه

"ونحن يشرفنا الموافقة يا حاج "

"فلنقرأ الفاتحة إذا "

ثم توجه اسماعيل إلى زوجته طالبا أن تدخل نجلاء حتى يلبسها خاتم الخِطبة .

خطت نجلاء خطوات صغيرة ، ارتفعت دقات قلبها ، لم تجرؤ على رفع بصرها ، ولو كانت رفعت كانت سترى :

نظرة ساحرة تغمدتها من رأسها حتى قدميها .

نظرة حنونة من أب يرغب بسعادة ولده.

ونظرة تقفز من السعادة .

جلست بخجل ، تقدمت النسوة يزغردن ، مدّ

حسين يده بحلقة ذهبية وضعها ببنصرها الأيمن ،

لم تستطع إلباسه خاصته لارتجاف يدها من الخجل ،

ثم همس قرب أذنها

" مبارك يا قمري المضيء"

توردت كثيراً ثم رفعت عينيها وحينها رأت

سامية...

وهذا الذي رأته على وجهها لم يكن يدخل بأي باب من أبواب الفرح ، هي صغيرة نعم لكنها قرأت الخيبة والحزن دونما جهد.

الفصل الثالث

والصَّبُّ تفضحُهُ عُيونُه

عند الخسارة ..

تقف بين عدة خيارات..

إما القبول والرضا...

أو الصدمة والرفض ..

أو..

أو البحث عن سبب للخسارة وإلقاء اللوم عليه .

وقد يكون السبب شيء في ذواتنا.

أو ظلم رأيناه ممن مكناهم قلوبنا .

الفارق كيف نترجم خسارتنا مع أنفسنا ومع من ظننا به الظلم

وهي!!

هي جمعت السببين .

رأت به الغادر بقلبها ، المتمرد والجاحد لما أنعمت به من فيض مشاعر سبق وأن ضنّت بها على الجميع.

ورأت بنفسها النقص، كانت تبحث عن اكتمال بعينيه فأصاب قلبها بعطب دائم ؛ بل ربما توَقف. وقت أن رأت خاتمه يزين بنصر الأخرى شعرت بنصل حاد يغرس بقلبها ، استشعرت النزف حتى آخر قطرة .

أرادت أن تقف تمد الكف وتصافح وتمنى حياة سعيدة لكن جوارحها لم تستجب لما أمر به العقل، تصلبت كمنحوتة عجز صانعها أن يكمل الابتسامة على وجهها فبدت كقطعة هاربة من متحف شمع قبل تمام الصنع .

تداركت والدتها الموقف أخيراً،سحبتها من يدها ،أرسلت بعض المباركات ، ورحلتا في صمت .

باتت ليلتها تعدالعدة لملاقاة الغد وملاقاة كل يوم يليه ، فقد علمت بأمر التزامه بالعمل معهم.

وهي سامية عاشور يجب أن تقف كالوتد ، فالآن

لم يعد لها سوى سامية ، سامية وفقط

****

يوم تلو يوم كان يندمج بالعمل أكثر.

يتحمل مضايقات الأكبر.

ويتألم أمام جفاء سامية .

ويحاول مراضاة العم .

وتأتي نجلاء لتكون بلسم الحياة دون أن تعي ذلك.

اليوم هوذاهب لزيارتهم،انتهى من عمله متأخرا

ككل يوم ، سبق أخيه إلى المنزل

اغتسل وبدل ملابسه وفي طريقه إلى الخارج وجده جالسا مع والده.

رمقه عادل بإحدى نظراته السخيفة ، تجاهلها كأنها لم تكن وخرج مسرعاً.

ببيت نجلاء جلس مع اسماعيل ، تبادلا أطراف الحديث حتى أتت نجلاء ووالدتها .

رفع بصره إليها وظن أنه وجد ملاكًا على الأرض.

كانت بشدة الخجل، تفرك أصابعها وتتلاشى النظر إليه، وقف فجأة وخاطب الأب :

"تسمح لي يا عم اسماعيل بالجلوس في الشرفة أشعر بالحر!"

نظر الرجل إليه نظرة نصف ما كرة تخبره أنه العارف بالأمور "حسنا يا ولدي"

"اصحبيه إلى الشرفة نجلاء وأنا سأتفقد شيء بالداخل وألحق بكما ، ريثما تعد والدتك بعض الشاي "

نظرت له سعاد بدهشة ، أخفى طيف ابتسامة لم يكتمل على وجهه وتصنع الجدية وتوجه إلى الداخل .

والآن هي وهو وضوء القمر ونسمات بداية الربيع حاملة عبق الأشجار القريبة .

" كيف حالك؟"

قالها بكل سلام نفسي وابتسامة تحمل من الراحة والمحبة الكثير .

"بخير"

خرجت بصوت خفيض وحروف مترددة .

نظرإليها مليا وشرد بملامحها ، تلك الصغيره تبدله ولا يدري سببا .

"نجلاء"

ونطقها بحيرة وأمل ودفء ووصال

" هلا نظرِتِ إلي "

رفعت وجهها بخجل شديد وتوردت كزهرة

جوري بالربيع

نظر بعينيها وصَمَت .

وتعلقت هي بعينيه وصمتت كذلك .

قليلا فقط قبل أن تخفض بصرها خجلا.

تنحنح قليلاً لكسر هذه الهالة التي أحاطت بهما

وتكلم بما أتى على خاطره

"كيف حال الدراسة ؟"

خرج صوتها مبحوحاً بخجل " جيدة"

أراد الحديث معها عن أي شيء ، سماع صوتها ، وجودها قربه ببراءتها وخجلها وسلامها .

"متى موعد امتحانك ؟"

"بعد شهر "

"وهل تذاكرين جيداً؟" وهنا انطلقت بالحديث " نعم، أذاكر جيدا جداً ، ومعلمي سعداء بي ، أنا أحب الدراسة وأحب التعلم "

هل ظن أنه سمع أنغام موسيقى !! صوتها أنغام وأنفاسها سَكينة وقربها راحة وفاصل من الأمان .

" حسناً ابذلي جهدك ، فالزفاف بعد اختباراتك "

وعلى ذكرالزفاف تخضب وجهها بحمرة قانية ،

وأرادت أن تترك الشرفة

"انتظري "

"حتى الآن لم تخاطبيني باسمي ، ألا تعلمينه!"

وغمزها بضحكة هادئة

وتمكنت منها البراءة " بالطبع أعرفه !" وكانت

عيونها متسعة باستنكار ، تنفي التهمة عن نفسها .

تبسم قليلا ثم سألها " وما هو ؟" ونطقتها " حسين "

أطال النظرإليها بل ربما شرد بكل حرف من اسمه

خرج من فمها وأخيرا قال بصوت خفيض "عودي إلى الداخل نجلاء.....

الطقس بارد هنا وأنا أبحث عن الدفء "

**

في طريق عودته كان محملاً بشحنة من السلام النفسي ، كان يحتاجها بشدة .

بسمته متملكه من وجهه وغفل عمن كانت جالسة خلف الشباك ورمقته من بين دفتيه وهو بحالة هيام وشرود تام .

*****

هل تنبت الكراهية من باطن الحب ؟

هل تزهر الأشواك ببستان الأمل ؟

صباحاً كان بمكتب عادل بالمصنع يتابع العمل مه عندما نقر الباب ودلفت هي بوجه ذابل ، وفور أن لمحته تبدلت ملامحها .

رسمت بعضا من القسوة على وجهها ، وخطت خطوات ظاهرها ثقة مفرطة وباطنها ..... باطنها انكسار .

لمح الانكسار، وهل بيدي شيء سامية !

يقتله الشعور بالذنب ، يود لو ربت على كتفها وأخبرها أنها أخته ، أنه سيظل جوارها دائما داعماً وسندا،يتمنى لو يخبرها أنها تستحق الكثير!

لكنه مكبل ولا يقو على فكاك .

فكر أنه لو تجاهل الأمر برمته ، لو عاد لسابق عهده معها ربما يمكنهما معا اجتياز تلك الفترة.

وظن أن الحالمية التي يحيا بها لربما تنعكس على الجميع ، وقطعا كان واهماً.

رسم ابتسامة واسعة وبصوت كله بهجة حادثها :

" سامية ؟ كيف حالك اليوم ؟"

هل يجوز أن تحيي القلب بعد مواتٍ ثم تجهز عليه!

أن تعيد ترتيب الدقات ثم تفنيها بيدك!

أن يكون صوتٌ ....صكا للحياة!

هكذا كان استقبالها لصوته دائما، وهكذا كانت تجلد نفسها كل يوم لضعف يتملكها أمامه .

رغبت أن تكرهه، أن تنفر من وجوده،والأدهى وما يقتلها أنه يعلم بما تكنه له بصدرها،ليست ساذجة لكنها غارقة ببحر ليس له شاطيء.

تصنعت اللامبالاة "بخير حسين"

والتفتت بكلِهِا إلى عادل وكأنها تمحوه من بصرها لينمحي من القلب

" عادل ، هل بإمكانك محادثة موزع الأجبان ، إنه يتأخر علينا يومياً"

رمقهما عادل بنظرة غير مكترثة

"حسناًً سامية سوف أرتب الأمر معه "

ورحلت سريعا بنفس الخطوات ذات الثقة المزعومة .

نظر إليه عادل لكنه لم يجد ما يعقب به ،فما حدث بمصلحته أولا وأخيراً.

اجتازت نجلاء الاختبارات .

وبدأت الاستعدادات للزفاف على قدم وساق، فقد تحدد موعده بآخر أغسطس.

ببيت برهام يتم إعداد شقة الزوجية ويبحث حسين يومياً عن الأثاث المناسب فقد تركت له نجلاء تلك المهمة .

وببيت اسماعيل تتفقد والدة نجلاء المحال المجاورة لانتقاء أواني المطبخ وشراشف السرير إلى آخر مستلزمات العروس.

أما نجلاء فكانت منتظرة لنتيجة اختباراتها بفارغ الصبر ، تود الالتحاق بالثانوي العام

وتقضي الأيام المتبقية بمنزل والدها بإتقان أعمال المنزل ،فابنة الحاج اسماعيل لابد و أن تكون ماهرة بالطهو والتنظيف وترتيب المنزل.

وبظهيرة أحد الأيام فاجئها حسين بزيارتهم .

شعرت بحيرة وخوف من تلك الزيارة المفاجئة والموعد الغريب خاصةً أن والدها ليس بالمنزل.

استقبلته بالباب

" حسين ! ماذا هناك !"

أراد مشاكستها قليلا قبل أن يبلغها بسبب الزيارة :

"أوحشتني ، وأوحشتني تلك ال(حسين) التي لم أسمع مثلها من أي فتاة "

ابتسمت بخجل ابتسامة أذابت قلبه ثم استدركت رافعة حاجبًا واحدا في شراسةٍ لا تليق بها

" هل حادثت فتيات غيري؟"

طابت له اللعبة فاستمر بها

"بالطبع الكثير "

حدجته بنظرة صارمة واحمرت أنفها ووجنتيها غضباً

"حسين ! هل أحببت أحد غيري ؟"

رفع كلا حاجبيه وضحك ضحكة كبيرة

"وهل قلت أني أحبك نجلاء! "

أطرقت بحزن " ماذا !"

اقترب منها قليلا وهمس بنعومة

" ما أكنه لك لا تصفه الكلمات ، ولن أعبر عنه قبل أن تكوني ببيتي حبيبتي"

هل قال حبيبتي ؟ نعم قالها والآن هي كثمرة طماطم ناضجة .

ملأ عينيه من ملامحها ثم استعاد مرحه

"حسناًً ألا تودين معرفة سبب الزيارة السعيدة ؟"

"بلى"

التوت شفتيه ببسمة ماكرة

"هل تقبل مدرسة القرية الثانوية الفتيات الحاصلات على تسعين بالمائة ؟"

"ماذا ؟"

"كما سمعتِ حبيبتي "

قفزت فرحاًً ، أرادت أن تمسك النجوم ، أن تعانق السحاب .

" مبارك يا قمري المضيء"

دنا منها خطوة واقترب يمسك كفها ، لكنها زجرته

" حسيييين"

تأفف بضيق " أوووف حسناً ، هي أيام معدودة

وستكونين ببيتي يا صغيرة "

نجلت بشدة لا تدري ماذا تجيب " حسيييين"

"حسناً، غدا سنذهب للمدرسة نجهز الأوراق

ونقدم بالمدرسة الثانوية "

نظرت له بامتنان حقيقي " شكرا حسين "

"هذا حلمك ولن أترك أي حلم لك دون تحقيق "

ودعها وقفل عائدا إلى عمله، وهي ظلت شاردة

بالكلمات والهمسات ، هائمة بأحلام وردية،غارقة حتى أذنيها بكل ما يخصه،حسين وفقط .

******

رآه عائدا والابتسامة تملىء وجهه.

ذلك الجزء بداخله الذي يستشعر بحسين الغير جدير بدأ يتحول إلى غيرة .

هو لم يختبر تلك مشاعر.

لم تكن يوما بنطاق اهتماماته .

عمل ومنزل وسلوى التي اختارتها الأم ... لم يجرب أن يخطف قلبه وينبض لأحدهم.

لم يعلم معنى الاشتياق واللهفة والحب .

والآن يرى الصغير غارق لأذنيه بحب صغيرة، يلمح نظراتهما معاً ، ويشاهده وهو عائد من الزيارة يكاد يلمس النجوم .

وهو من حرم نفسه من كل شيء ،قد أصبح مساوياً له بالعمل .

تولد لديه دافع لتكدير حياته أكثر من الأول .

"ألن ننتهي من تلك التصرفات الصبيانية؟"

باغته بالجملة فأصابه بالحيرة .

"ماذا تقصد عادل ؟"

احتد عليه " لماذا رحلت وتركت العمل ؟"

تنحنح حسين " كنت بمهمة بالخارج "

عقد ذراعيه وبدت نظرته مشمئزة "أي مهمة ، تلك المهمات ببيت اسماعيل المزارع"

زفر حسين بغيظ وفرك جبينه بكفيه

"ماذا تريد مني يا عادل ؟ العمل يسير بوتيرة رائعة ولا يوجد تقصير بشيء"

التوت شفتيه بسخرية وحدجه بنظرة باردة

" هذا اتفاقنا يا صغير والديك ، العمل حتى السابعة ،أي تقصير سيتبعه خصم من حصتك الشهرية "

استغفر بسره عشرات المرات "حسناً عادل سوف أقدم طلبا مسبقًاً بالمهمات الخارجية "

ضحك عادل بصوت مرتفع ضحكة ساخرة

"لن تحتاج لأي طلب سوف تأتي الأميرة الصغيرة للبيت قريباً ، وسنحتاج لتحويل مقر العمل إلى المنزل "

نظر له حسين بألم " هل بإمكاني الرحيل الآن ؟"

" بلى"

كاد أن ينفجر من الغليان هذا الصغير الذي لا يعلم من الدنيا شيئاً سوف أجعل من نفسي مدرباً له .

سألقنه كل الدروس التي فاتته بالحياة .

وسأقتنص لنفسي متأخرا بعض اللحظات التي رحلت ر غما عني.

****

ابحث عن السعادة وتعلق بها .

لا تدع مشتتاً ينغص عليك الفرح .

كن لحوحاً في استجلاب السرور .

خذ ما تطاله يدك وتشبث به .

حياة واحدة نعيشها ، وعمرٌ واحد نقضيه.

هو يوم العمر ، ابتاع لها حسين أجمل فستان رآه ،

وأوصاها بالفرح مهما حدث .

لم تكن تحتاج لزينة لكنها عادة الفتيات بتلك الليلة.

انتهت من زينتها وفستانها كانت واضعة لحمرة

ورديه على شفتيها وظلالا هادئة محيطة بعينيها

ووضعت تاجاً صغيرا لامعاً فوق رأسها المغطى بحجاب أبيض هادىء أصرعليه حسين قبلها .

انتعلت حذاء بكعب مرتفع لتواكب حسين في الطول .

ونظرت لنفسها بالمرآة وأصابها الذهول ، لم تعرف نفسها ولا تدري لما أصابتها انقباضة وخاطر طاف بها أنها ودعت البراءة للأبد .

لكنها نفضت تلك الأفكار سريعا مستجيبة لطلب حسين منها بالسعادة .

دلفت والدتها إلى الغرفة وشهقت لدى رؤياها .

أجلستها وجلست بجوارها وبدأت تمتم بآيات الرقية ، تستدعي ثباتاً وسكينة ليستا موجودتين ، أرادت التشبث باللحظة صغيرتها عروس بطلة ملائكية ، لم الخوف سعاد ؟

ذلك الهاجس الذي لا ينبئها بخير يجثم فوق صدرها وتريد الفكاك منه .

ترقرقت عيناها بالدموع " نجلاء "

وكادت أن تجهش نجلاء بالبكاء لكنها تداركت نفسها لأجل زينتها ولأجل طلب حسين

"نعم أمي "

" صغيرتي منذ اليوم ستكونين بكنف رجل آخر غير أبيك ،تسبدلينني وأباك بالحاجة فاطمة والحاج برهام ، اجعليهم لك أب وأم،

اكسبي ودهم بحلو الكلام وجميل الصنع ، حاشاك أن تثرثري بكلام سمعته أو لم تسمعيه ، كوني كالنسمة اللطيفة بأنحاء المنزل لا يسمع لها صوت لكن تترك كل أثر .

زوجك بين عينيك وفوق رأسك ،أحسني إليه يحسن إليك أضعاف ، هو محب لك حافظي على هذا الود .

أسرة أخيه كاخوتك وأولادهم ، لا تقحمي نفسك بما بينه وبين أخيه ، بيت عمه خط أحمر لا تزوري ولا ترفضي "

واحتوت وجنتيها بين يديها

"فهمتِ حبيبتي "

شعرت نجلاء بالدوار والخوف لكنها تداركت نفسها "فهمت أمي"

احتضنتها برقة وقبلت جبهتها

" فليجلب الله لكِ كل سعادة بنيتي ، أسأل الله ألا يريك شقاء قط ... هيا لتسلمي على والدك"

خطت خطوات بسيطة ثم عادت ونظرت إلى غرفتها وبدا كأنها تودعها بكل ما فيها وداعا أخيرا.

انتظرها والدها ببهو المنزل ، رآها تخطو لم يصدق أن هذه هي نجلاء صغيرته فستان زفاف ، وعقد ، وزوج .

رغما عن ادعاءه التماسك فاضت عيناه بالدموع ، فهرولت إلى حضنه .

احتضنها طويلاً ، ثم رفع وجهها إليه

"مثل البدر أنت صغيرتي"

"أوصيكِ بزوجك وأهل بيتك خيرا "

"لا أود أن يصلني عنك إلا كل طيب "

هزت رأسها "حسنا أبي "

كان إخوتها واقفين منهمرة دموعهم كذلك ، نجلاء روح البيت الرقيقة الوديعة التي تنبض عطفا وحنانا على الجميع .

مسح والدها وجهه ثم طالبها بالانتظار ريثما يدِخل حسين .

كان حسين بالخارج ومعه أخيه وبعض أقاربه وأصدقائه سوف يأخذ نجلاء بالعربة حتى مسجد القرية حيث يتم إشهار الزفاف .

خرج إليه إسماعيل وطلب منه أن يحادثه

"بني ، أعلم أنكم من عائلة كبيرة ،ولكني أريدك أن تعلم أن نجلاء هي حبة القلب ، إن أغضبتها يوما سوف يكون لك معي شأن ولن يوقفني شيء ، وإن هي أغضبتك سوف أكون لك أنت الأب "

"أعلم بما تكنه لها من محبة ، حافظ عليها يا ولدي فهو وقود حياتكما معا ، ولا تدخلا بينكما أحداً ، واعلم أن نجلاء زهرة رقيقة إذا أحسنت سقياها سوف تتفتح وتنشر شذاها على حياتك كلها "

استمع إليه بإنصات ثم أجابه " أعدك عم اسماعيل أن تكون نجلاء بقلبي ، ولن أقبل أن يمسها سوء"

احتضنه الأب ثم دعاه أن يتقدم داخل المنزل

دلف بهدوء تصحبه زغاريد نساء العائلة ووجدها واقفة بمنتصف الدار نظرها معلق بالأرض .

وملاك ....

ملاك أبيض كما تخيلها حين انتقى الفستان ، ليس فستانا يظهر منحنيات أنثوية أو يكشف شيئا من مفاتنها ، بل اختاره يضفي عليها ملائكية لا تنقصها بكل تأكيد .

كانت بزينتها ووشاحها والتاج الصغير فوق رأسها أكثر مما تمنى أو تخيل يوما .

اقترب منها ثم همس قرب أذنها

"صِر ت مَلِكا على الدنيا الآن "

تعلقت بذراعه ورِكِبا العربة متجهين إلى المسجد.

هناك كان قد سبقهم برهام وفاطمة وفادية وسلوى وبناتها وجميع أفراد العائلتين .. وسامية بالطبع

واليوم كانت متألقة ، ارتدت ثوبا زهريا مشغول بحزام من الورووود بالمنتصف وعلى رأسها حجاب

بلون أبيض ابتاعتهما من الاسكندرية نفسها خصيصًاً لهذه المناسبة .

وانتعلت حذاء أنثويا رقيقًاً بكعب مرتفع كذلك ، بدا متماشيًاً مع جسدها ممشوق القوام ، وكانت بالفعل جميلة في طلتها هذه .

حضر إلى المسجد المحامي الذي سيقوم بتوثيق عقد الزواج ومأذون القرية الذي سيقوم بإشهار صيغة العقد .

وسمعوا صوت أبواق السيارات مع زغاريد النساء ووصل العروسان المسجد .

جلس كل من والد العريس والعروس متقابلين

مد برهام يده إلى إسماعيل

وبدأ المأذون صيغة العقد بمكبر الصوت الخاص بالمسجد

زوجتك موكلتي -قبلت زواجها

وأحضر المحامي العقود وقع عليها العروسان ووكيليهما وعادل وأحد أصدقاء حسين كشهود .

ثم توجه الجمع إلى بيت برهام حيث كان هناك حفل زفاف بسيط .

بالطريق أوقف حسين العربة بجوار بيت عمه ،

دلف إلى الداخل قبل رأسه

نظرإليه عاشور كان يبدو وسيماً بحلته السوداء

وشعره الأسود المصفف بعناية.

احتضنه بصدق ،هو يحب هذا الفتى رغم كل

شيء .

"مبارك يا ولدي ، أسعد الله أيامك ورزقك البنين

والبنات "

وكتم دموعه فقد كان دوما متصورا أن يلقي على

مسامعه هذا الدعاء وهو يسلم سامية إليه .

قبل حسين كفه ثم رحل .

ببيت برهام اجتمع النساء حول نجلاء يزغردن ، ويستمعن إلى بعض أغنيات الجدات التي يتوارثها جيل بعد جيل.

وتحلق الرجال حول أحد أصدقاء حسين صوته عذبا يدندن بنغمات جميلة .

وهي شعرت بثقل على صدرها ، مرأى الصغيرة بثوب الزفاف وتلك الهالة من البراءة المحيطة بها ،ومرأى حسين بحلته الأنيقة وسعادته البادية بكل ملامحه ، كل هذا لم تحتمله ،تسللت من الجمع

ووقفت خارج الدار بجوار سور الشرفة حتى ينتهي الحفل.

وفجأة سمعت صوتا جوار أذنها

"هل يهرب القمر وينزل على الأرض "

شهقت فزعاً واستدارت

كان أحد أصدقاء عادل رأته أكثر من مرة بالمصنع

"تبدين اليوم رائعة الجمال "

شعرت بغضب شديد من جرأته

"كيف تسمح لنفسك أن تتحدث معي هكذا؟"

"وهل هناك من طريقة أخرى لمخاطبة زوجتي!! "

الفصل الرابع

دَوَاؤُك فِيكَ وَمَا تُبْصِر

ودَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تَشْعُر

"هل هناك من طريقة أخرى لمخاطبة زوجتي !!"

عندما سمعت العبارة اهتز داخلها شيء ، بدا أن وجنتيها في طريقهما إلى التورُد ، لاح طيف من خجل الإناث ، لكنها لم تسمح لأيٍ من هذا أن يطفو على وجهها.

بأي حال ليس له الحقّ بمخاطبتها هكذا،هي سامية عاشور وتقرب لصديقه،ليست لقمة سائغة، لابد وأن يلتزم حدود الأدب .

وقفت باتزان ورسمت بسمة ساحرة على وجهها أخفت كل ما دار بينها وبين نفسها وواجهته بجرأة

" هل أصابك مسٌّ من الجنون يا هذا "

" اسمي هشام "

قالها وهو مبتسماً غامزاً بعينه اليسرى.

ثم اقترب منها اقتراباً غير مسموح هامساً قرب أذنها

"لن أسمح بهذه الإهانة بعد الزواج ، لابد أن تحفظي مقام زوجك"

ارتفعت دقات قلبها ،والأسباب كثيرة،واحتقن وجهها غضباً ونجلاً،و تحركت مبتعدةً عن حصاره هذا.

بصوتٍ حاول التماسك وأعين محذرة خاطبته "حاشاك أن تحادثني هكذا مجدداً "

ورحلت سريعاً قبل أن يضيف كلمة .

حكّ ذقنه ، وأشعل سيجارة وراقب خطواتها المبتعدة بخليط من مشاعر، بعضها يعلمه تمام العلم وبعضها تفاجيء هو نفسه بحضوره.

وهناك بمدخل دار برهام ، كانت هناك أعين كأعين الصقر راقبت ما حدث ولم يفوتها منه فائته.

****

والباحث عن السعادة مُتعَبٌ في رحلته

لكنه يقدر قيمتها وقت الوصول

يتلقاها بحرص ويتجرعها على مهل.

يسلك درب السعداء بجبوٍ مبتديء .

لذلك لا يسقط من علُو ، ولا يخيب له أمل.

أمّا أولئك من يحطّوا رحالهم بعد أول نقرة للسعادة

يتناولونها كوجبة دسمة لذيذة على معدةٍ خاوية .

قد تصيبهم بتُخمة تفسد المتعة .

وقد يفقدون الشهيّة لأي نكهة تليها .

وقد ..قد يخبيء أحدهم الوصفة ، فيفتقدون النكهة وما صاحبها من لذة كل مرة.

ثم..

ثم يبدأون هم رحلة البحث عن سعادة هادئة.

نقر دفوف ، وزغاريد نساء.

مزمار يصدح وصهيل خيول .

بيت ينير وآخر يظلم .

أحدهم عاشقًا، والآخر ساخطاً

إحداهن مشرقة والأخرى تائهة

وليلة كانت لهما من ألف ليلة ، وعروس رآها

أميرة خرجت من كتاب أساطير .

وقرب وبدايات وخجل واحتواء وامتلاك وسَكَن

وسكون.

وفيضان مشاعر لم يستطيعا كبته فتألق بالعيون وعناق الأيدي بالصباح أمام الجميع .

أصابع متشابكة كتشابك قلبيهما .

وعيون تلتقي فتخفضها هي خجلاً ويغمزها هو مشاكساً.

وأب وأم سعداء بتلك السعادة البادية على صغيرهما الودوود وعروسه .

"صباح مبارك أيها العروسين"

أجاب حسين بصوتٍ تغمره البهجة فشملت كل طبقاته " بارك الله فيك يا أبي "

"صباح مبارك حبيبتي"

وتلك كانت فاطمة محتضنة لها رابتة على كتفها .

"بارك الله فيكي خالتي " وكانت غارقة بخجلها ، لا يكاد يسمع صوتها .

ثم سمعوا جميعا صوت زغاريد قادم وكانت سعاد ومعها أخوات نجلاء ولم يحضر اسماعيل .

دلفت الأم إلى الداخل محملة بأطيب الطعام وضعته بالمطبخ واحتضنت ابنتها طويلاً وكأنها كانت غائبة لدهر.

اطمأنت الأم على صغيرتها وأوصتها بزوجها خيراً .

وكعادة أهل تلك المناطق توافد المُهّنون تباعاً .

ولم يكن مضطراً إلى الصعود إليهما والمباركة ، كان يمكنه أن يتهرب

لكنه أراد ذلك .

صعد برفقة زوجته ونظرإليهما ملِيّا ، ووجد السعادة، رآهما كعصفورين محلقين بسماء غيومها حب وهناء .

بتلك اللحظة لم يشعر بالضجر من أخيه.

لم يشعر بالغضب من سلوى .

لم يتبرم من أكتافه التي حملت الهموم مبكراً.

كل ما أصابه أنه احتاج السلام والهدوء، احتاج تلك الحياة وإن لم تلقِ به يوما .

وانعكس ذلك على نظرته التي تخلت عن السخرية ولو لفترة مؤقتة .

استأذن منهم وهبط إلى شقته .

واقف بباب حجرة البنتين .

يرقب لعبهما معاً.

ارتجفتا فور رؤيته .

اقترب منهما .

هذا وقت الاحتضان .

أو ربما ربتة على الرأس وقرصة للوجنة.

ولا بأس بحملهما بين يديه ورأسهما ملقى على كتفه.

لكنه تجمد!

اكتفى بابتسامة متأرجحة تخجل من الحضور

وشفتان مرتعشتان بأثر انفعالات شتى .

ولم يُحَرِّك ساكِناً.

أدركته سلوى فور أن لمحت رحيله

ربتت على كتفه وسألته عمّا به

نظر لها عادل نظرة مشتتة لربما لأول مرة لا يعلم عادل برهام ماذا يريد.

****

أصوات الزغاريد تسطح بدار العم .

سألتها والدتها وهي بالباب

" ألن تأتي معي لتهنئة العروسين يا سامية "

أخبرتها وهي منكمشة كُلِّيا أسفل الغطاء

" أخبرتك أني مريضة يا أمي،سوف أذهب لاحقا"

رمقتها بتلك النظرة التي تكرهها

نظرة كلها شفقة

"كنت أفضل أن تصحبيني اليوم ، لكن لا بأس حبيبتي "

رحلت الأم وبقيت هي وأفكارها التي تعصف بعقلها.

هي ليست مريضة كما أوحت لأمها منذ مساء الأمس

ولكن ما حدث بهذا اليوم كان كثيراً عليها

رغم قوتها التي يتحاكى بها الجميع

رؤيته بيوم زفافه ، سعادتهما التي كانت بادية للأعمى .

نظرات النساء إليها .

ثم ذلك الذي اقتحم وحدتها .

جرأته وما صرح به.

ووجدت نفسها تسأل،ماذا يريد منها ؟

بالطبع هويعلم من تكون،ويعلم أنها رفضت من راغبي الزواج الكثير .

هل يتلاعب بها ؟

سامية ليست ساذجة،ولا يسهل استمالتها ببعض كلمات

وماذا عن ذلك الخافق الذي يعلم وجهته جيداً

كيف لها أن تدير دفته ؟

أرادت الهروب من هذه الحيرة فرفعت الغطاء حتى وجهها واستسلمت لنوم عميق.

****

انفض جمع المهنئين أخيراً.

قامت نجلاء تلملم البعثرة التي حدثت .

وتجمع الأطباق والأكواب لجليها .

مدت يدها على أول طبق على المنضدة وجدت يده تسبقها ، تشبث بكفها ونظر بمقلتيها

"سوف أساعدك "

رفعت حاجبيها تعجُباً " ماذا "

لازال بنظرته المتشبثة بعينيها

" كما سمعت،هيا سنزيل هذه الفوضى معاً"

أعادا البيت كما كان ، ثم بدءا بتسخين الطعام الذي أحضرته والدتها.

رتبت المنضدة ووضعت إصيصاً من الورووود كانت قد رأت مثله بالجريدة.

جلسا متجاورين ، كان يطعمها بفمها ويبتسم مع كل لقمة

"حسين " لم تكن هائمة ولكنها كانت متعلقة .

"حبيبة حسين" وهو قالها بكل صدق متمكن منه .

" عِدني"

"بماذا"

نظرت له طويلاً، لطالما قرأت بالأدب والفلسفة،ورغم عمرها الصغير كانت تُفكر وتتأمل كثيرا،ولطالما شغلتها النهايات التي لا تنتمي للبدايات

"عِدني أن أظل بقلبك كما أنا اليوم "

ترك الطعام وأمسك كفيها الاثنتين بين يديه ونظر بعمق عينيها

"أنا أحبك نجلاء"

توردت نجلاً وارتفعت دقات قلبها

" لطالما سألت نفسي لماذا هذه الصغيرة ذات الأعين الواسعة،ولمّا لم أصل إلى إجابة علمت أنِّي أحبك بيقين ، فالحب ليس له مسوغات أو أسباب"

تنهد براحة ثم أكمل

"كل ما أعلمه أنِّي أرغب بقربك ، أرتاح بوجودك وصوتك وملامحك ، أرتاح نجلاء ، ولا أريد أن أترك تلك الراحة ما حييت "

صمتا طويلاً يتبادلان النظرات

"والآن عديني"

"بماذا"

"بالسعادة،فلنبقا سعداء مهما حدث ومهما كان "

لا تدري لم أخافها بكلماته

" وهل سيحدث شيء؟"

"لا حبيبتي ، لن يحدث شيء"

وكان يعلم أنه كاذب ، وأنه يخشى عادل وأفعاله معه ومعها ، ويخشى سامية ولا يدري كيف سيتعاملان معاً و...

وبتر كل هذا وقام واحتضنها،أراد السكنى بين ذراعيها ، وأراد زرعها بقلبه، أراد الهروب إليها وبها ، استمد منها أمانه وبثها كل ما بقلبه .

تمنى لو وقف الزمان بهما خارج حدود الموجود .

أن تطفأ الأنوار إلا من شمعة حبهما المتوهجة.

أن تنزوي العوالم بكل ما تحمل ،ويظل عالمها الخاص حاضرا لهما

لهما هما وفقط .

*****

طول يجاوز المتر وثمانين سنتيمترا.

بشرة حنطية ، وملامح وسيمة ، كانت هي أفضل ما يملك .

شعر أسود فاحم .

وصوت رخيم بدفء محبب.

المؤهل :متوسط

المهنة : موظف بالجمعية الزراعية .

الأسرة بسيطة أب صاحب محل بقالة بسيط موجود ببيتهم المكون من دور واحد،ومؤثث بأبسط الأشياء.

وأم ربة منزل وأخين وأختين وكان هشام يتوسطهم .

عادل صديقه من مقاعد الدراسة ، اختلاف المستوى لم يمنع استمرار تلك الصداقة،ما ساعد أكثر عادل نفسه الذي لم يترفع عن صديقه يوما.

يعلم بشأن سامية كما أهل القرية جميعا ، ولمحها كثيراً بطرقات القرية ، لكنه لم يشاهدها عن قرب سوى ذلك اليوم بمكتب عادل ،ويوم الزفاف .

وبيوم الزفاف كانت فاتنة .

والآن هو يقامر

يقام بصداقته مع رفيق الطفولة .

ويقام بما صنعه مع سامية وبما سيصنعه .

عِلم موعد خروجها من معمل الأجبان

وكان واقفاً بانتظارها

"عليكِ أن تعلمي أنِّي أحب القشدة مع العسل "

قالها مبتسماً فظهرت غمّازتيه

لكن مباغتته لها لم تؤت الثمار المطلوبة

فقد نظرت له شزرا ثم انثنت شفتيها بسخرية

" بالطبع يا زوجي العزيز ، سوف أحضِّرها لك مع الإفطار"

كان عليه أن يعترف أنه لم يتوقع مثل هذا الرد.

فرفع حاجبه الأيسر بإعجاب وابتسم ابتسامة واسعة

" وهل تجيدين صنع الفول كذلك ؟"

مطت شفتيها بسخرية ثم قالت

"لم لا فلأتعلم صنع الفول وكلّ ما لذ وطاب "

اقترب مرتكاً برأسه على حائط المبنى مانحاً إياها نظرة متفحصة

"وأنا أُحب أن تدللني زوجتي "

بدأ الغضب يطفو على وجهها

"فلتسمع يا ..... آه تذكرت يا هشام ، عليك أن تكُف عن هذا العبث وإلا كان لي معك شأن "

"هل ستخبرين عادل مثلاً؟"

ونظرت له باستهزاء

" هه ولماذا أخبره، ألا تعلم من هي سامية ، بإمكاني أن أوقف عند حدك بكل سهولة "

اقترب منها وتحولت نظرته لإعجاب صريح

" بالطبع أعلم من هي سامية ولذلك أخبرك أني لا أعبث معك "

زفرت بضيق " صدقني لست أنا من تنطلي عليها خدع الفتيات الصغيرات لقد أكل الدهر عليّ وشَرِب"

نظر لها مليّا ارتكن بنظرته على عينيها

"تزوجيني سامية "

انتفضت فجأة ، ولا تدري هل من صدمتها أم لأنها لم تتخيل أن تسمع هذا العرض بتلك الطريقة

سوى منه هو فقط من ملك قلبها ، ابن العمّ الذي
وجد ضالته بعيدا عن مرفأها

"لا "

نطقتها قاطعة نافية لأي مدخل قد يظن به القبول.

لم يتفاجيء ، كان متأكداً من رفضها ، لذلك
اقترب مجددا وبكل هدوء سألها

"لماذا؟"

تمالكت نفسها " لستُ مضطرة لإبداء أسباب"

" ولكني أريدك أنتِ سامية ، لا أريد سامية عاشور "

ونطقها بهمس ناعم،جدير به أن يخدر إحساساها.

"أخبرتك أني لا تنطلي عليّ تلك عبارات "

وخرجت منها بعد زفرة وبصوت مُتعَب.

"اسمعني جيدا فلن أكرر كلامي هذا مجدداً ، لا تقاطع طريقي مرةً أخرى، ولا تفتح باباً أنت لا تعلم عمّا بداخله شيئا "

شد قامته وكتف ذراعيه وبكل ثقة وبكلمات

موزونة أخبرها

"حسناً سامية ، فلتسمعيني أنتِ أيضاً جيداً ، أنا

أعلم هذا الباب وما خلفه جيدا ، ولن أُكُفَّ عن

الطرق عليه حتى يُفتح "

ورحل وتركها خلفه

لا تخشى القادم

ولا تحيا الحاضر

فقط واقفة خلف الباب الذي كان مقبضه بيدِ

أحدهم سابقاً لكنه لم يكن يدرِي.

****

مرّ أسبوع على الزفاف

صباحاً كان برهام يتناول إفطاره مع فاطمة

مرّ عليهما عادل وهو في طريقه إلى العمل

ووجدا من ينزلان بأصابع متشابكة ويرتديان ملابسهما متأهبين للخروج.

التفت إليهم الجميع ، ووقع نظر عادل على الأصابع والتشبث

" إلى أين الوجهة ؟"

سألهما بُرهام بكل بهجة وسعادة

ردّ حسين

" سوف نتنزه قليلاً بالمدينة ، نجلاء لم ترَ البحر سابقاً"

"ألن ننتهي من هذا السخف "

وتلك ألقاها عادل بنظرة ممتلئة بمشاعر شتى كان منها الغضب

اصفرّ وجه نجلاء فور سماعها لعبارته

وضيق حسين ما بين حاجبيه وازداد ضغطه على أصابع نجلاء

أمّا الأب فتعجب ، والأم أشفقت وردت فوراً

"أيّ سخف يا ولدي ، عروسان ويريدان التنزه ،

عليك أن تفعل مثلهما وتصحب سلوى والصغار "

خبط كفيه فوق بعضهما وكز على ضروسه

" للأسف ليس بإمكاني هذا وإلا خَرِبت تجارتنا ،

فلأفعل مثله ونضحي بكل ما وصلنا إليه "

وتوجه بنظره إلى أخيه " ما رأيك يا صغير "

وهنا تدخل الأب

" بإمكانك فعل ذلك عادل وأنا أحِل محلك بالعمل"

هدأت نظرته قليلا ولكنها حملت سخرية

" لا أستطيع أبي لأني أتمتع بإحساس بالمسئولية وهو ما يفتقده البعض " ورمق أخاه بنظرة محتقره

بكل هدوء ممكن ردّ حسين

" اتفقنا على إجازة زواج أسبوعين يا عادل فور انتهائها ستجدني بالعمل "

وتحرك خارجاً ممسكاً بكف نجلاء

"فلتصحبك السلامة يا ولدي" وكانت فاطمة غاضبة من حوار الأخين سوياً ، لكنها لم تشأ أن تحاكي عادل أمام أبيه .

****

فورَ أن خرجا من المنزل دعاها حسين لنسيان ما حدث تماما والاستمتاع باليوم .

قاد السيارة وهو ممسكا كفها ، ينظر لها من وقت إلى آخر نظرة كلها طمأنة .

كانت هناك بعض نسمات في هذا اليوم الصيفي المشمس

عندما رأت البحر من نافذة السيارة وجدها تصفق كالأطفال ، استمر بالقيادة حتى وصل إلى مكان يعلمه بعيد عن زحام المصيفين.

وفور أن نزلت من العربة هرولت نحو البحر خلعت حذائها وغرست قدميها بالرمال.

ظل ينظر إليها وهي تلمس الماء بكفوفها وتنثره بعشوائية ، انعكاس الشمس بعينيها مع زرقة ماء البحر جعلاها أشبه بجنية بحر خرجت لتسبي قلبه.

قضيا طوال النهار هناك افترشت الرمال وشاركها باللعب وبناء قلاع وقلوب وبيوت .

ثم توجها إلى مطعم إعتاد القدوم إليه مع رفاقه

"هل تحبين السمك ؟"

نظرت إليه بخجل "كانت أُمّي تعده لنا بالفرن الحطبي "

أمسك كفها وتشبث بعينيها مجدداً

" لا تخجلي من شيء أميرتي ،حسناً دعيني أختر لك أطباقي المفضلة "

كانت مائدة عامرة من المأكولات البحرية التي كانت تشاهدها لأول مرة

كان يخلي السمك من الأشواك ويضع بصحنها .

بعد انتهائهما سألها عن رأيها

"لذيذ جداً حسين ، لم أذُق أطيب منه "

"فليحفظك الله لي حبيبتي ، كل شهر سوف نأتي بنزهة مثل هذه "

"هيا بنا "ونطقها بحماس شديد

"هل سنعود " وكانت حزينة

"لا سأبتاع لك بعض الملابس "

شعرت بالحرج الشديد

" ولكني أملك ثياباً جديدة كثيرة خاطتها لي عمتي ، ألا تعجبك؟"

تضايق ،لم يقصد أبداً ان يشعرها بالنقص

" تعجبني جدا ، أي شيء ينير عليكِ يا قمري "

أطرقت بابتسامة عذبة

"ولكنها زيارتنا الأولى للمدينة أودّ أن أبتاع لك ما يذكرنا بها "

وانطلقا إلى محال الملابس ابتاع لها الكثير والكثير ، كل ما أعجبها أحضره فوراً.

وفي طريق العودة مرّ بإحدى المقاهي أحضر لها مثلجات الحليب لتأكلها بطريق العودة .

دقائق ونظر إليها وجدها غَفَت على مقعد السيارة والمثلجات بيديها ، كطفلة صغيرة بعد يوم نزهة طويل .

وجد نفسه يتحسس وجنتها ويدعو الله أن يحفظها له ، وأن يديم عليهما تلك السعادة .

****

بعد انقضاء الأسبوعين عاد العريس إلى عمله

تصحبه دعوات نجلاء

وطلبها بسرعة العودة إلى المنزل لأنها لا تعلم كيف

ستمضي اليوم دونه

انهمك في العمل حتى حان موعد انصرافه

وجد سامية متوجهة إلى المنزل كذلك

أوقفها

" كيف حالك سامية "

حاولت التماسك قدر طاقتها

"بخير حسين "

"لماذا لم تأت لزيارتنا ، نجلاء سألت عنكِ"

رسمت بسمة متكلفة

"كنت مريضة قليلاً ، ولم أشأ إزعاجكما كذلك "

رفع حاجبيه مدعياً الدهشة

"كيف هذا!! انه بيت أخيك أي بيتك سامية "

كانت طاقتها أوشكت على النفاذ

" بالطبع حسين بالطبع سوف أقوم بالزيارة قريبا "

وتحركت سريعاً قبل أن يضيف حرف .

كانت خطواتها واسعة أقرب إلى الهرولة وذهنها مشتتاً بفعل ملاقاته فلم تلمح من كان بانتظارها مجدداً واصطدمت به اصطدام عنيف أدى إلى نزف أنفها .

"سامية أنا آسف "

وأمسك بمنديل قماشي وكتم به الدم حتى توقف

"هل أنت بخير الآن ؟"

" شكراً هشام أنا بخير "

ثم تداركت الموقف " ربما لو لم تخرج لي من وراء الجدران لما حدث هذا "

ابتسم بهدوء

"أخبرتك أنّي لن أكف عن طرق الباب "

تحركت فورا بعد أن ألقت له بعبارتها

" الباب موصد وليس له مفتاح "

****

أضفت نجلاء البهجة إلى البيت ، تحاكي سلوى

وتلاعب الصغار

وتجالس الأب والأم

وتتلاشى النظر إلى عادل أو الحديث معه كما أخبرها

حسين .

وتعامل سامية بتحفظ تفرضه هي عليها

ومساء كل جمعة تذهب لبيت والدها .

عاد حسين مساءً محملاً بأدوات مدرسية جديدة لها

فالدراسة لم يبق لها سوى أيام

وجدها مريضة جداً

تتقيأ بدورة المياه ولا تحملها قدماها ، لقد تكرر هذا منذ ثلاثة أيام

أسندها حتى حجرتهما

"ماذا بك حبيبتي ؟ لابد وأن نذهب للطبيب "

أخفضت رأسها خجلا

"لا داعي للطبيب ، لقد ذهبت إلى الوحدة الصحية مع أمي "

هبّ واقفاً

"دون أن تخبريني نجلاء ،كيف هذا!!"

"سامحني ، لم أرد أن أشغلك ، كما أنني كنت محرجة منك "وابتسمت بسمة نجولة جداً

"محرجة مما حبيبتي "

وكان صافي الذهن عن أي شيء

"حسين ... أنا حامل "

وتجمدت الحروف بحلقه " ماذا .. حامل ... من .... انت ... أنا .... أب "

ثم استوعب الحدث وقام واحتضنها وبكل حماس وسعادة وأمل

" مبارك مبارك نجلاء "

"مبارك لنا حبيبي"

نزل الدرج بسرعة البرق ووصل إلى أمه وأخبرها

ضحكت من هيئته المرتبكة والسعيدة بآن واحد

"لقد أخبرتني نجلاء صباحاً ، مبارك يا ولدي ، أتمّ الله حملها بالخير "

ومن خلفهما كان عادل قد سمع الخبر وهو بمدخل الباب

ارتد إلى الخلف غير مصدق

لم يتخيل أن يحدث هكذا بسرعة

والآن عليه إعادة كل حساباته لو أتى حسين بولد ذكر .

وبدا أن القدر لم يعطه فرصة الاختيار

إمّا أنا أو هم !

ليس خياراً بل هو سؤال من إجابة واحدة .

لكن عليه أن يبحث عن وسيلة مناسبة للجواب الوحيد.

الفصل الخامس

ليس لجرحٍ بميتٍ إيلام

بابٌ مغلق.

خلفهُ المجهول.

هل تريدالنقر عليه ؟

حسنا.. تحّمل إذا ما ستلقاه.

تمّهل سيدي ، قد يكون المجهول جيداً!

بالطبع عزيزي قد يكون،ولكن لا ضمانات.

ربما أنقر نقرة واحدة فقط،فإذا انفرج الباب،

أخوض التجربة!

وإذا لم يُفتح؟

سأرحل فوراً لن أخاطر بالمكوث،إنها إشارات القدر .

فليكن إذاً! ولكن تحمّل النتيجة كيفما تكون.

"نجلاء حامل"

قالتها فادية لعاشور صباحاً على الإفطار .

تَوَقّفَ عن مضع الطعام قليلاً ورفع بصره إليها ولم ينطق بشيء.

واستمعت سامية وهي تَمُرُّ جوار الحجرة، توقفت خطواتها،وبدا أنها تفقد بعض من الأنفاس.

أغمضت عينيها وأخذت نفس عميق ، لكنها لم تفلح بتخطي الحدث ككل مرة،لم تستطع أن تبدو وكأن شيئاً لم يكن .

الفراق نهائي إذا سيصير له أولاد .

ليست شيطانا لكنها تمنت ألاّ تنجب نجلاء ! قد يبحث حينها عنها هي ولن ترفض.

ولكمت الحائط بقبضتها

لماذا الهوان سامية؟ لماذا تريدين الفتات؟ لماذا يدق الخافق له فقط؟ ملعون هذا الضعف ، وملعونة تلك المشاعر البائسة التي لا تجلب سوى الألم.

***

رحلت سامية إلى عملها دون أن تمر بحجرة والدها وتيقنت والدتها أنها سمعت الخبر.

ثم سمعت نقراً على الباب، ظننت أنّ سامية نسيت شيئاً من أغراضها وفتحت الباب لِتجد شاباً مليحاً يسدّ الباب طولاً ومبتسم بكل أريحية.

"صباح الخير خالة فادية"

"صباح الخير يا ولدي،من أنت؟"

وبدت متعجبة من وقت الزيارة المبكر وشخصية الزائر المجهولة .

"أنا هشام عبدالقادر ، أريد مقابلة عمي عاشور "

نظرت له ملِيّاً ثم تحركت تاركةً له فراغاً يمُر منه

"تفضل يا ولدي "

دلف من فتحة الباب وتقدمته هي إلى حجرة استقبال الضيوف

تفحصته بنظرات كلها حيرة ثم خاطبته بريبة

"انتظر هنا ريثما أخبر الحاج بقدومك"

ذهبت إلى عاشور بنفس الوجه الحائر

"حاج عاشور،هناك من يرغب بمقابلتك،شاب اسمه هشام عبدالقادر "

اعتدل بجلسته وزوى ما بين حاجبيه مستفهماً فأجابته

"لا أعرفه ولا أعلم سبب قدومه"

"ولم الحيرة والانتظار إذا دعيه يدخل"

ذهبت إليه بابتسامة متكلفة

"تفضل يا ولدي الحاج بانتظارك"

دخل إلى الحجرة وكله ثقة، ووقتما وقعت عينه على عاشور أصابه ارتباك وتوتر ، وبعض من تردد.

هذا الرجل وإن كان رهين حجرته منذ إصابته إلا أن هيبته لا زالت قائمة ، ووجهه كله شموخ .

"صباح الخير عمي عاشور "وخرج صوته مرتعشاً بعض الشي رغم ابتسامة الثقة التي حاول رسمها على وجهه

تفحصه الرجل بنظرته وبدا كأنه اخترقه

"صباح الخير يا ولدي، تفضل بالجلوس "

تنحنح هشام ليظهر صوته واضحاً

"أنا هشام عبدالقادر،والدي صاحب محل البقالة بأول القرية "

"أهلا أهلا ومرحباً بك يا ولدي "

وقالها الرجل بترحيب حقيقي فهو يعلم والده جيداً.

استطرد هشام بحلق جاف تماماً

"أعمل بالجمعية الزراعية،وأنا رفيق لعادل برهام منذ الطفولة "

كان لسان حال الرجل يقول،وما شأني بك،هل جئتني لاستخرج لك هوية شخصية.

"ممتاز ما شاء الله بارك الله فيك وفي إخوتك "

"بالطبع تتساءل عن سبب هذه الزيارة "

"بالحقيقة ، بلى أتساءل!"

كانت فادية قد طلبت من الخادمة إعداد كوبين من الشاي ومعهم صحنٌ من الكعك وتقدمتها إلى الحجرة عندما سمعت هشام يقول

" أتشرف يا عمي بطلب ابنتك سامية للزواج "

سأتوقف عن السرد الآن وأبدو كمشاهد للوجوه....

الأب مصدوم بغيظ وعلامات غضب وعروق نافرة.

وهناك كانت الخادمة التي أطلقت زغاريد الفرح مباشرة

أمّا فادية فقد كانت مصدومة بخليط من البهجة والحيرة بهذا المجهول

والأخير،هل كان يبدو مصدوماً حقاً ؟

يبدو ذلك ... ألست أنت من تقدم بالطلب أيها الوسيم ؟

طلب عاشور جرعة ماء وصرف الخادمة بحزم ، ثم توجه إلى هشام مخاطباً بوجه متجهم

"حسناً يا ولدي،سوف نفكر بالأمر ثم نبلغك بردّنا"

شعر هشام وكأن دلواً من الماء البارد قد سقط عليه

" بالطبع عمي خذوا كل الوقت "

واستأذن بالرحيل ، أوصلته فادية حتى الباب ثم عادت سريعاً إلى عاشور

"ماذا هناك ! لماذا عاملت الشاب بهذا الجمود ؟ هل سترفضه كما فعلت بسابقيه يا عاشور ؟"

زجرها بعينه وكان يكتم من الغضب بداخله أضعاف ما أخرجه

"هل تعلمين من الشاب يا فادية ؟

انه ابن عبدالقادر صاحب محل البقالة،

له من الأخوة أربعة ويعمل موظفاً بالجمعية الزراعية ، هل هذا هو النسب الذي يليق بسامية ، والأهم شاب بتلك مواصفات ، لماذا يختار سامية؟"

احمرّ وجه المرأة غضباً وقد فاض بها الكيل

" نسب يليق ؟ وهل تركت لنا فرصة للاختيار يا عاشور ؟ وما يضير الفتى بضيق حاله ، سوف يكون عوناً لها بالعمل و...."

وقبل أن تُكمِل الجملة كان يصيح بأعلى صوتٍ يملكه " ها قد أجبتِ يا فادية ، يعمل معها ، بل يعمل عندها ، هذا سبب طل الزواج ، يريد أموالها و.."

وقاطعته هي تلك المرة زاعقة بألم وحسرة

" فلتحترق الأموال يا عاشور ، فلتحترق في قلب الجحيم ، ما تساوي الأموال أمام كسرة قلبها من ابن عمها ، ماذا جلبت لها الأموال سوى كل ألم وجفاء من الجميع "

بدأ يشعر بضيق بصدره

" هل تريدين أن أبيع ابنتي بالأموال يا فادية؟"

وكأن شيطاناً تلبسها

" ابنتي أنا،سامية عاشور ،صاحبة الجمال والنسب تباع بالأموال يا أبو سامية"

حاول التماس بعض الهدوء وأخفض صوته قليلاً

" وما الذي يُفهم ممّا قلتيه سوى هذا "

تمالكت أعصابها أيضاً وحاولت مخاطبة الأب

بداخله

" الشاب وسيم ومن عائلة طيبة لم نسمع عنهم شراً

، موظف وليس بعاطل ،سنه مناسب جدا لها ،

وليس بمطلقاً ولا أرملاً مثل أولئك الذين تقدموا

بالسنة الأخيرة "

بدا على وجهه علامات التفكير فطرقت الحديد

وهو ساخن

" نحن لن نشتريه بالأموال لكن ابنتنا اعتادت حياة معينة سنعينه على أن يبقيها بتلك الحياة ، ستكون وظيفة براتب مثله مثل أي شخص ، لكنه راتب مرتفع بعض الشيء "

ظهرت ملامح الموافقة عليه ثم استدرك

"وعادل ؟"

"ما به عادل ؟ هو المسئول عن كل شيء كما هو ، وهشام معاون وموظف فقط لن ينافسه بشيء"

أصبحت الموافقة حتمية الآن لكنه تدارك أهم شيء

" وسامية هل توافق ؟ تعلمين أنها ..." ولم يكمل .

وبالطبع هي فهمته " فلتترك سامية لي أنا ، أنا

كفيلة بإقناعها "

زفر بهدوء "حسناً فادية سوف أسأل عن الشاب

أولاً ،يقول أنه رفيق عادل ، لن نبحث كثيراً إذاً،

ولا تخبري سامية حتى ذلك الحين "

تهللت أساريرها " بالطبع يا حاج ، و لن تسمع

سوى كل خير "

******

تحيا عُمراً،تضع الخطط،تؤسس اللبنات لمستقبل واسع.

ويأتي القدر،فيعيد توزيع تلك الخطط وقد يحرك بعض اللبنات.

يظن الانسان أنه سيحيا حيوات عدة لينفذ كل ما خطط له مسبقاً .

ألا ترى أن ما رسمه القدر لا يحتاج إلى تعديل .

فند خططك أنت لربما لا تستحق التنفيذ بالأساس!

ولربما تُختبر بمدى تمسكك بها حتى خط النهاية!

وحام ، وغثيان مستمر، وفقدان للوعي كل يوم.

صباحاً استيقظت وبعد نوبة القيء الصباحية

ارتدت ملابس المدرسة

كان بدورة المياه خرج ووجدها تلُفُ حجابها

الأبيض حول وجهها .

"ماذا تظنين نفسك فاعلة يا نجلاء!"

"ذاهبة إلى المدرسة"

وكان صوتها به من الوهن الكثير ناهيك عن

وجهها الذي علاه الذبول من قلة الطعام .

اقترب منها ولأول مرة تلمح به علامات غضب

" ما بك نجلاء!! ليس بك طاقة للذهاب إلى والدك،بل حتى لا تغادرين الفراش! وتريدين النزول إلى المدرسة"

"لقد بدأت الدراسة منذ أيام يا حسين ، إذا فاتني شيء لن أستطيع تعويضه أبداً "

دنا منها أكثر وأمسك كفيها بين يديه

" حبيبتي أنت مجتهدة بمجرد أن تشعري بتحسن سوف تذهبين إلى المدرسة وتجمعين ما فاتك "

بدأت ملامح وجهها في التغير ، ثم امتلأت العينان بالدموع وبدأ البكاء

" لا أريد أن يضيع مني العام مثل صباح صديقتي"

احتضنها وربت على كتفها

" لن يضيع العام ، ما هي إلا أيام حتى تتحسنين وتكوني أفضل من السابق "

رفع ذقنها إليه " اتفقنا نجلاء"

"اتفقنا حسين "

وقبل أن تضيف المزيد وضعت كفها على فمها وأسرعت باتجاه المرحاض تتقيأ من جديد .

غسلت وجهها وعادت إلى الفراش ، صنع لها مشروباً دافئاً ، وجلس جوارها قليلاً قبل أن يذهب إلى عمله ثم خاطبها

" أرأيت حبيبتي كيف ستخرجين من المنزل بتلك الحالة؟"

قبّل رأسها ثم تحرك متجهاً إلى عمله .

ولا تعلم لم شعرت بالقلق

هي واثقة من حلمها بدخول الجامعة .

تريد أن تعمل معلمة .

واثقة من حسين هو نعم الداعم لها .

لكنها لا تعلم ما الذي يرسمه القدر لها
وأي خطط للمستقبل قد حِيكت ولا تعلم عنها
شيئاً.

*****

توجه حسين إلى العمل
كان قَلِقاً على نجلاء أراد أن ينتهي من العمل
مبكراً اليوم حتى لا يتركها بمفردها ، لكنه يعلم
عادل ومضايقاته لذلك آثر السلام ولم يطلب منه
أن يرحل مبكراً.

لكن العصفور الذي يبغي السلام يقابله دائماً أحد الجوارح الذي يبغي القنص .

كان بمعمل الأجبان يتفقد بعض المنتجات وتفاصيل العمل مع سامية عندما أخبره العامل أن عادل أخيه يتصل على هاتف المصنع .

" مرحباً يا عادل "

بكل برود ممكن تغلغل صوته عبر الهاتف يلقي عبارات باردة

"هل هاتفت السيد عليّ تبلغه بموعد تسليم الأعلاف الجديد ؟"

"سوف أهاتفه الآن "

وخيل إليه أن الهاتف ارتج بيده من الصوت الزاعق

" سوف ماذا ؟ سوف تهاتفه ، ألم تهاتفه بعد ؟ حتى متى ستظل هكذا عديم المسئولية ، كبرت وتزوجت لكنك صغيرا لا تقو على أي مهمة "

قاطعه فوراً لم يتحمل مزيد من الإهانات

" توقف عادل ، موعد الاستلام الأسبوع المقبل ما الداعي لهذه العجلة ؟"

ضحك الآخر بسخرية " بالطبع لم العجلة فالسيد حسين برهام ليس متفرغاً سوى لعروسه الصغيرة وما تحمله الآن بأحشائها "

ارتد حسين إلى الخلف في صدمة لم يتخيل أن يصل أخوه إلى ذلك المستوى من الحوار

" عادل ، احفظ لسانك قليلاً ، لن أسمح لك بمخاطبتي هكذا مجدداً "

يبدو أنه نزع فتيل القنبلة

"بل أنا الذي لن يسمح بتواجدك بالعمل مجدداً"

وأغلق الهاتف بوجهه.

كان وجهه محتقناً بغضب ،وصدره يعلو ويهبط بسرعة شديدة

كانت سامية قد سمعت بعضا من حديث الأخين ،توجهت مسرعة إليه

"ماذا هناك حسين ؟"

كان الغضب مسيطراً عليه فبدأ بركل الحائط بقدمه

"اهدأ حسين ، اهدأ لا تفعل هكذا بنفسك "

صرفت بعض العمال الذين تجمعوا على الصوت المرتفع وأحضرت له مخفوق الليمون

بعد أن هدأ قليلاً خاطبته بمودة

" هل تريد التحدث الآن ؟"

بكل لطف استطاع استجلابه بتلك اللحظة كيلا يجرحها أجابها

" شكراً لك سامية ، لكن اعذريني لا أريد الحديث "

نظرت له بود وتبسمت " حسناً كما تريد ، المهم أن يذهب عنك الغضب "

" شكراً لك سامية ، أنت أختي التي لم تنجبها أمي "

لَم تشعر بالخيبة الآن ؟

لم تود أن تصفعه على وجهه؟

بل عليك أن تصفعي نفسك سامية ، أنت حالة مستعصية لا ترجو الشفاء .

نهض واقفاً " هيا أوصلك معي إلى المنزل ،لقد تسببت بتأخيرك "

تنحنحت لتجلو صوتها " سوف أحضر حقيبتي "

هو يعود إلى البيت بالسيارة وهي عادة ما تعود مشياً ، تستغلها فرصة للاختلاء بنفسها .

سبقته بالخروج وكان هو خلفها ببعض خطوات ، وعندما خرجت وجدت المعجب الصبور بانتظارها وفور أن رآها اقترب مبتسما

" كل هذا التأخير سامية ، لقد تورمت قدماي من الوقوف "

وكان حسين عند الباب عندما سمع عبارته هذه

بغضب شديد خاطبها

" من هذا سامية ؟"

ارتبكت بشدة وتلعثمت

"انه صديق عادل "

"وماذا يفعل صديق عادل هنا "

هل يجوز لها أن تكون غبية الآن!!

،أن ترى في فعله غيرة ، أن ترتسم بسمة بلهاء على وجهها لا يوجد لها أي محل من الإعراب بهذا السياق .

" انه ... انه "

قاطع هشام هذا التلعثم وذاك العبث البادي على وجهها

" جئت أخبرها أني تقدمت لخطبتها من والدها "

ونظرا إليه بتعجب كليهما وبصوت واحد

" ماذا !"

تقدم من حسين مصافحاً وكأنه صار فرداً من العائلة بالفعل

"أنا هشام عبد القادر يا حسين صديق عادل وقد تقدمت لخطبة سامية اليوم "

مد حسين كفه بتردد وهو يتفحصه

" حقا ! أهلا بك هشام "

وكان ينظر إلى سامية يستشف من ملامح وجهها الرد المناسب لكن وجهها لم يظهر عليه شيء .

"لكن بالطبع تعلم أنه لا يصح أن تنتظر سامية بالطرقات ، وتحادثها هكذا ، هي سامية عاشور "

نظر هشام إلى سامية نظرة جانبية ثم أعاد بصره إلى حسين محاولا إضفاء بعض البهجةوالمرح

" أعتذر عن ذلك ، لقد أردت أن أزف البشرى إلى سامية قبل الجميع "

بدا حسين متعجباً مما يقول ، ومستغرباً صمت سامية.

"حسناً سامية هيا إلى المنزل ،وبإمكانك هناك ملاقاة عمتي فادية ومعرفة ماحدث "

صافحه مجدداً وركب معها العربة ورحلا ، وهو يفكر بكل شيء ،رآه وسمعه وتيقن منه الآن على وجهها .

هو رسم خريطته بكل وضوح

لكن هل توافق ما رسمه له القدر !

*****

أوصلها حسين إلى المنزل في صمت

لم يشأ أن يخترق مساحتها الخاصة

لكنه كان قلقاً عليها

وعندما استدارت إلى المنزل ناداها

"سامية "

نظرت إليه بخليط يأس وأمل وحيرة ففاجئها

" تستحقين السعادة سامية ، وتستحقين الأفضل دائماً يا ابنة العم، افتحي أبوابك الموصدة ولكن على مهل ، القلب لا يقف أبداً ، عليه أن يدق دائما "

بدا وكأنها لا تصدق ما تسمع ولا تدري بماذا تجيبه

أومأت برأسها ثم دلفت إل المنزل مسرعة جداً إلى حجرتها دون أن تلتفت لأحد .

وهو دخل منزلهم وكعادته تقدّم إلى والدته ووالده يقبل كفهما

كان مبيت النية أن يفاتح أباه بما يصنعه عادل معه من مضايقات وقبل أن يفتح فمه وجد عادل يدخل عليهم ألقى السلام وجلس .

كانت الجلسة عائلية هادئة باقتدار ، لم يرد أن يكون هو من يعكر صفو المجلس

فألقى ما ظنّ أنه سيكون مبهجاً .

"لقد تقدم خاطب لسامية "

التفت إليه الأب بسعادة

" حقاً يا ولدي ! من يكون ؟"

"حقاً يا أبي ، يقول أنه صديق عادل ، اسمه هشام عبدالقادر "

الطيور الجارحة دائما ما تبحث عن الفرائس

يكون القنص لديها ممتع

متعته توازي التهام الفريسة

تستمد قوتها من ضعف الفريسة أمامها

خضوعها تحت مخالبها ومنقارها

لكن أن يتحول الصيّاد إلى فريسة بخطوة !

هو ما ترفضه طبيعته ، ويقاتل هو ألا يحدث .

يبدوأنه يوم لن ينتهي ، هكذا ظن عادل

" من تقدم لسامية!! هشام ! هل أنت متأكد ؟"

وكان الغضب مسيطرا ليس فقط على ملامحه وصوته بل وأنفاسه

" بالطبع هو من أخبرني بنفسه قبل قليل "

" وهل وافق عمك ؟"

" لا أدري"

خاطبه الأب " مَن هشام هذا يا عادل ؟ "

"انه صديقي منذ الطفولة "

وتعجب الأب " لماذا تبدوغاضباً إذا ؟"

هب واقفاً " لأنه موظف بالجمعية الزراعية ، لماذا

يتقدم من خطبة سامية عاشور؟"

"هل تقصد أنه طامعاً بها ؟"

"بالطبع ، وإلا لماذا لم يحادثني أولاً كان متأكداً

أني سأرفض لذلك أراد وضعي أمام الأمر الواقع"

تدخل حسين

" الشاب يبدو عليه مهتما بسامية بصدق ، لماذا لا

يتلفت عقلك إلا إلى المال "

لم يرد عادل أن يحتد على أخيه مرة أخرى أمام والديه

" سوف نرى ، كل شيء سوف يظهر "

وبات كل منهم ليلته بأرق شديد والأسباب متعددة

نجلاء ضعيفة ومتعبة من حملها

سامية حائرة بقرارها

حسين غاضب من أخيه

هشام يخشى الرفض

عادل .....يقتله القلق

لم يكد يغلق جبهة مع أخيه، كان سينحيه جانباً ، يدعي أمام أبيه عدم جدارته للعمل ، حتى فاجئه القدر بخطة أخرى لم تطف يوماً بذهنه ، سامية تتزوج وممن صديقه محدود المال .

لن يقف مكتوف الأيدي وعمله وجهده يتسلمه هذا الطامع ،لابد وأن يكون هناك حل.

أتى الصباح وكل حائر قد وصل إلى قراره

كانت سامية في طريقها إلى العمل عندما وجدت من يوقفها

"فلنتزوج سامية "

وكان هذا آخر صوت تخيلت يوماً أن تسمع منه

عرض زواج

كان عادل .

" ماذا ؟" وكانت كمن ألقي على رأسه بحجر ضخم

" أريدك أن تتزوجيني "

"ماذا تريد ؟ أن أوافق أن أكون زوجة ثانية ! هل

جننت "

الفصل السادس

هل عندك شك !

القلب .. تلك المضغة على اليسار أو اليمين أو المنتصف لا فارق .

تلك التي تدق بوتيرة منتظمة ،تضخ الدماء .

قطعة من الجسد متهمة دائماً

متهمة عند الحب فهي السبب في تلك الخفقات العالية .

متهمة عند الخيبة فهي السبب في تباطؤ الدقات .

متهمة عند الألم ، عند الشك، عند الخيبة ،عند الخزلان،عند الفقد، عند الضعف .

وعند الحيرة ! ينحى دورها تماماً ويأتي دور العقل !

وهل يتفق العقل والقلب عند منحنى الطريق أم يتخذ كل منهما مساره الخاص ؟

بل يأتي السؤال بواقعية ، هل يجب أن يكون لأحدهما الغلبة ؟

يقولون : قلبك دليلك .

وبالحياة القلب وحده ليس كافياً كدليل.

وسامية كانت ممن يصنفون أنهم من أهل العقل ، أما هي فكانت ترى بقلبها وتنفذ بعقلها .

لحظة سمعت عرض عادل بالزواج ، علمت على الفور بمخططه

ابن العم - من يرى بنفسه صاحب الحق- استشعر التهديد من هشام ،وكساذج أبله لا غلبة لقلب ولا عقل عليه ،رأى بها رمانة الميزان التي ستوازن كفّته.

ولكونه ساذج تخيل أنها ستوافق ، كسارق كان متأكداً من وجود نافذة مفتوحة يستطيع القفز منها

والآن هي العانس التي عليها بالقبول بابن عمها حتى يحفظ أموالها وأموال أبيها

وبدا كسيناريست فاشل بسيناريو بلا حبكة ولا عقدة وبالطبع بلا حل لكنه يفاوض نجم الشباك على بطولة روايته .

وكان عليها التحلي بالكثير والكثيرمن ضبط النفس حتى لا تصفعه على وجهه وربما الأدهى وما أرادته حقاً -أن تنهال عليه ضرباً بالنعال -

"هل جننت عادل!"

عادل الغليظ متجهم الوجه صاحب السبق في الردود المستفزة يلاطف سامية وعلينا هنا أن نرسم وجهاً ساخراً لاوياً فمه إلى جانب وجهه

" لماذا يا سامية ؟ أنت ابنة عمي الجميلة وأود الارتباط بك ؟"

وكان مبتسماً بتكلف وبدى وكأن أحدهم أملى عليه ما يجب قوله

وكان لسان حالها هي

"فليأخذه أحدهم من أمامي الآن وإلا سأنفذ مخططي"

"وهل ابنة عمك صارت جميلة اليوم وتود الارتباط بها يا ... ابن عمي "

عادل رجل أفعال ، عمل وعرق وأرباح ، لكن أن يتورط بعلاقة انسانية تستوجب الأخذ والرد فهو ما لم يجيده يوماً.

وقف حائرا بالرد عليها حيرة طفل بأول يوم مدرسة .

"لا .ولكني ..لكني ... لم ألحظ ذلك سوى الآن"

ورغم سخرية الألم الذي نتعرض له الآن ضحكت بشدة ضحكت بكل ألم وسخرية وغيظ

"وهل قصصت على سلوى ملاحظتك لهذا الجمال المفاجيء؟

هل أخبرت والديك مثلاً؟

دعني أجيب عنك

سامية العانس سوف تقبل بابن عمها صيانة لأموالها وأموال والدها من هشام الطامع بها ،وتصبح أنت البطل وهشام شرير الحكاية "

"سامية أنا ..."

وكان متلعثماً بطيف من خجل

"لم أنتهي بعد"

وزعقت به بحِدة لم تكن يوما بينهما

"كيف صور لك خيالك أنني قد أقبل بهذا العرض عادل!، لهذه الدرجة تراني قليلة يا ابن عمي العزيز! وأبي هل رأيت به كل هذا الهوان ليقبل تلك الزيجة ! والأهم ألم تفكر... تُفكر قبل أن تأتي ملقياً على مسامعي هذا العبث ؟ إذا كنت مستعداً لإيلام سلوى فهو من المستحيلات عندي ، لست دنيئة إلى تلك الدرجة "

كان مخفضاً رأسه ونظرات عينيه مشتتة ولا تدري هي سبب هذا الشتات إذا كان حرجاً مما فعل أم حزناً على ضياع مخططه الغبيّ

"اسحب عرضك وعُد من حيث أتيت عادل ، ولأنك ابن عمي وأخي الذي شاركني بكل عمل سوف أمحو هذا العرض من تاريخنا معاً وكأنه لم يكن ولن أُعلم أحداً بهذا السخف "

رفع بصره إليها وبدا وكأن هناك جيش من الكلمات يجاهد ليخرج من فمه لكنه لم يقو على نطق حرف .

التوت شفتيها بسخرية واستهزاء " هه لم أكن أنتظر اعتذار ، لكن على الأقل كان يجب أن تقول لكِ حق عندي يا ابنة عمي "

أخيراً تمكن من النطق

" سامية أنا .. أنا.. . لا أدري ... لقد خفت ..."

وزفر بضيق شديد ورفع كتفيه علامة اليأس

" لا أدري سامية لا أدري!"

أومأت برأسها " حسناً عادل عد إلى بيتك ولا تذهب إلى العمل اليوم ، ولا تخف على الأموال لقد تعبت مثلك ولن أتركها تضيع هباء بعد كل ما ضاع مني "

وانتصر العقل باكتساح

******

وغيرت وجهتها من العمل إلى المنزل مرة أخرى

أرادت أن تنهي مواجهاتها مرة واحدة

دخلت على أمها

" لماذا لم تخبريني بتقدم خاطب ؟"

تفاجئت الأم بعودتها وبسؤالها

" ومن أخبرك سامية ؟"

"هو بنفسه "

تعجبت الأم من جرأته ، لكنها رأتها إشارة إلى

بداية طيبة لما سوف تطرحه عليها

"كنت سأخبرك ريثما يسأل عنه والدك "

نظرت لها مليّا ثم ابتسمت ابتسامة صفراء

" حسنا حاجة فادية أنا غير موافقة "

أخذت الأم نفسا عميقاً ثم دعتها للجلوس جوارها

أخذتها في حضنها وربتت على رأسها

" لماذا سامية ؟"

بدت منكمشة بحضن والدتها وكأنه الثبات الوحيد بعالمها

" لأنه كغيره أمي ، مجرد طامع آخر"

ازداد ضغط الأم عليها بحضنها وتنهدت بحزن

"ولكني أراه غير طامع سامية ألا تثقين بحكمي !"

تهرب سامية من الاعتراف الذي تعلمه قبل الجميع

أن قلبها معلق بحسين

"قلبي لم يمِل إليه أمي ، لم أر به الرجل الذي أكمل

حياتي معه "

وكان على فادية أن تكوي الجرح حتى يتوقف عن

النزف تماماً حتى وإن تسبب بألم لا يحتمل

"قلبك لم يكن بيدك ومال لمن لم يشعر به "

انتفضت مبتعدة عن حضن والدتها نجلاً وصدمة ،

لهذه الدرجة مفضوحة مشاعرها

أعادتها الوالدة بهدوء

"قلبك الآن حكمه بيدك ، وعقلك ملكك بكل ما فيه ، هشام يبدوجيداً وسيماً شاباً أعزباً ومهتماً ما النقص ؟ الأموال ! وما المشكلة يعمل معك أو مع عادل يعمل بحق ويتقاضى راتباً يمكنه من الارتباط بك "

شردت سامية بكلام الأم بدا منطقياً منطقياً بدرجة مؤلمة لقلبها

"سوف يحضر لك خاتماً للخطبةومصاغاً ذهبياً ويؤسس شقة للزوجية مثلك مثل كل البنات حبيبتي

وبوقت الخطبة تعرفي عليه ، افتحي أبواب قلبك لربما يحدث القبول "

وتردد صدى كلمات حسين بأذنها بطلبه أن تفتح قلبها على مهل

"وهل باستطاعتي أن أوافق على خطبة ولم أقتنع بعد !"

تهلل وجه الأم فالموافقة أصبحت وشيكة

"ولم سميت خطبة إذا ! حتى تتعرفا على بعضكما البعض "

أسبلت سامية جفنيها بوجع ... وجع يملك قلبها

" ولكن أمي أنا خائفة "

ربتت الأم على ظهرها وقبلت جبينها

"بالطبع حبيبتي عليكي أن تخافي ولكن لا تجعلي الخوف هوالمحرك لقرارك "

صمتت سامية واعتبرت فادية ككل أم أن الصمت علامة القبول

" سوف أجعل والدك يخبره بالموافقة "

صمتت ثانية ، تلك المعركة الدائرة بين قلبها وعقلها الآن لم تنتهي بانتصار لقد وصلا إلى مهادنة ، مهادنة أدت بها إلى الصمت التام .

******

تلك الصغيرة التي يرى بها الجميع الضعف والسذاجة

كانت تقف بالشرفة صباحاً تحاول التخلص من

غثيان الصباح عبر تنشق نسمات الهواء الباردة

وتناهى إلى مسامعها

"فلنتزوج سامية "

صغيرة هي؟ نعم

لكن العرض يسترعي فضول أي سامع

ورغما عنها استمعت إلى الحوار كاملاً

سامية من أول يوم كانت متحفزة لها ، وببعض
ذذكاء أنثوي فطنت لما تكنه لحسين من مشاعر
عادل هذا لم يرُق لها من أول يوم وكان واضحاً أن
الشعورمتبادل

لكنه متبادل بحدة منه فهو لا يجيبها إذا خاطبته
ودائماً ما يرمقها بنظرات اشمئزاز غير مبررة

لكنها الآن وبما سمعته أيقنت أنه يرى بها وبطفلها
القادم تهديداً له

وخافت

وبحركة لا إرادية أحاطت بطنها بيدها

السعادة التي تحيا بها

حسين والحب الذي يغمرها به

الطفل القادم

وذلك الغاضب والطامع

وتذكرت قول والدتها حول عادل وحول أسرة العمّ

وارتجفت لا إرادياً وأغلقت الشرفة واندست جوار حسين بالفراش

تستمد منه دفء ، ليس دفء جوارح وإنما ذلك الذي غادر قلبها ولا تدري لم ظنت أنه ذهاب بغير عودة.

******

واستيقظت القرية على خبر خِطبة سامية عاشور لهشام عبدالقادر

وقبل هذا الخبر كانت هناك تفاصيل بعضها مكرر بكل زيجة .

والآخر كان خاصاً بها سامية وبعائلتها كلها

سوف يعمل هشام تحت قيادة عادل ، وكان هذا شرطه حتى يكون دوما أمام عينيه.

سامية وحيدة الحاج عاشور سوف تكون لها شبكة ومهر مثل أي عروس

منزل الزوجية سيكون مع الحاج عاشور ورغم رفض سامية وظهور بوادررفض لدى هشام لكن والدها أصر على هذا الشرط ، وكأنه يطمئن نفسه قبلها بأنه جوارها مهما حدث.

لكن تأثيث المنزل سيكون من نصيب هشام .

وبناء على تلك المطالب المادية فقد تأخر العرس حتى يستطيع هشام الالتزام بما وعد به

وقالها عاشور له صريحة

"ابنتي ليست حمل ثقيل عليّ ، أريد التأكد من رغبتك الحقيقية بالارتباط بها "

وأتى دور الزيارات العائلية وتعارف العائلتين

وذلك الروتين المكرر بكل زيجة

وكانت سامية بعيدة عن فرحة أي عروس

هشام صبوراً هادئاً

عادل متحفزاً لأي نقص

حسين سعيداً ، سعيداً لأجلها أكثر من أي

شخص.

والآن يوم الخطبة وما به من صخب وغناء

وثوب هاديء الألوان حاولت نجلاء عرض

مصاحبتها في اختياره لكنها رفضت بلا مبالاة

ثوب بدرجة من درجات الفستق ،وجاب لون

مماثل

وزينة كانت خيطاً من الكحل بعينيها فقط

هشام ارتدى بنطالاً كلاسيكياً أسوداً وقميصاً

بخطوط طولية من الأبيض والأزرق والأسود

ملابس بسيطة جداً لكن هذا الوسيم كان مميزاً

بكل ما يرتديه كانت همهمات الحسد والإعجاب

بهشام تصل مسامعها من فتيات العائلة وبعض من

احتسبن عليها كصديقات.

وهي لم تنكر وسامته ، ولم تنكر الفرحة البادية عليه ، لكنها لم تغفل عن الرجفة البسيطة التي استشعرتها بيده لحظة ألبسها خاتم الخِطبة .

انفض الجمع واحتاجت تلك اللحظة بينها وبينه من مصارحة ، وإن كان ظنها الجميع بدايات اقتراب رومانسية .

"والآن عليكَ أن تخبرني لماذا؟"

وهو يحلو له السجال بينهما في الحديث

"لأنكِ أعجبتيني"

وحان وقت التورد

وصمت ، صمت طويل غلفهما قبل أن ينطق

" سامية ، أنا أعلم بما كنت تضمرينه لابن عمك ، لكنه لا يعنيني الآن ، طالما صار خاتمي بأصبعك فلا يهمني شيء "

حشرت الحروف بحلقها واحمر وجهها خجلاً وحزناً

"أعدك أن أكون عند حسن ظنك ، لكن لن أكون أميراً من الأساطير "

وهي لم تكن تبحث عن أسطورة كانت تريد حكاية ساذجة تكررها الجدة كل يوم على مسامع حفيدتها

،ومع مطلع كل يوم تنسى ما حكته وتقصها من جديد

تلك الحكايا الهادئة عن فتاة صغيرة تزوجت وأنجبت 10 أولاد ولا تدري لم الرقم 10

" ولكن عليكي أيضاً أن تبذلي الجهد ، فأنا أريد هذا الزواج وأريدك "

ومن قال أن القوية لا تسقط مقاومتها أمام كلمات الغزل

الأنثى هي الأنثى مهما ادعت القوة

مهما ظنت من غلبة العقل على القلب

اختارت سامية بالعقل وحاولت مراضاة القلب

وكان هشام يعلم تلك الحرب الضروس التي تخوضها

ويعلم علم اليقين ما تحتاجه .

*****

أيام مرت

نجلاء لا ينقطع غثيانها وضعفها

ورأي الطبيب أن حملها هكذا ولا حل لها سوى

الراحة

عادل يحدجها بنظرات نارية إذا لمحها أمامه

وسامية تنظرلها بفراغ إذا ما لمحت تكور بطنها

وحسين مراعياً دائماً مستجيباً لكل ما تطلب

سوى شيء واحد الذهاب إلى المدرسة

مثله مثل كل رجل ، ينتظر طفله ولا يستطيع

المخاطرة بفقدانه مقابل أي شيء

العلاقة بين حسين وعادل على صفيح ساخن

حاول حسين جهده في كسر الحاجز الجليدي

الذي يبنيه أخوه لكنه لم يفلح أبداً

كانت نجلاء مستلقية على ظهرها بحجرة الحاجة

فاطمة بعد طلب منها لتتحرك قليلا ربما يتحسن

الوحام

عندما دلف عادل من الباب ظناً منه أن والدته بالداخل

وفور أن رأته انتفضت جالسة ونظر هو إليها بكل غضب

"كيف تجرؤين على النوم هنا "

وكانت مرتعبة وهربت الحروف من فمها

" لقد طلبت مني خالتي فاطمة أن أبقى هنا ، أقسم لك هي من طلب "

وضغط على أسنانه وبأعين حمراء زعق بها

" يبدو أنك نسيت نفسك يا ابنة المزارع ، ألا يكفي تحملي لوجودك بالبيت ،تتجرأين للاستلقاء هكذا بحجرة أمي ، حاشاك أن تفعليها مجدداً وإلا رددتك إلى أبوك "

ثم استطرد "وزوجك معك "

اختنقت أنفاسها قليلاً وشعرت بركلات صغيرها برحمها

ركلات شديدة جدا

ثم أحست بسائل دافيء يجري على قدمها ونظرت أرضاً رأت بعض قطراء من الدماء

شهقت رُعباً ونظرت إليه

ارتعب ودار بالحجرة لا يدري ماذا يفعل ولعنها

ولعن أبيها وكل عائلتها بسره

"انتظري هنا سوف أخبر سلوى "

نزلت سلوى فوراً أسندتها حتى العربة

كانت الوحدة الصحية مغلقة بهذا الوقت فتوجهوا

فوراً إلى الأسكندرية المدينة

أقرب طبيبة نسائية وجدوها

لفحص بسيط

ثم طمأنة

" الطفلة بخير "قالتها بوجه مبتسم

ولم تكن تعلم ما احدثته عبارتها بالجميع

نجلاء تنهدت براحة

وسلوى اطمأنت بهدوء

أما هذا الصقر الذي كاد أن يفتك بنجلاء رعباً ،

طار من الفرحة بدا وكأن روحه عادت إليه .

للطبيبة كانت تظن أنها فرحة الاطمئنان على سلامة

المولود

أما سلوى ونجلاء فكانتا تعلمان علم اليقين أنها

فرحة الاطمئنان لنوع المولود أنها أنثى

برحلة العودة كان حريصا بالسير تبعاً لتعليمات

الطبيبة

وابتاع لها بعض الأدوية والمقويات

وصلوا البيت ، قصوا على حسين والأسرة كل ما

حدث وتجاهلت هي ذكر ما دار بينهما

لم تشأ أن توغل صدر حسين على أخيه

واكتفت بنظرات صامتة وجهتها إليه

وكان هو يحذرها بعينه دونما كلمة .

******

أكملت شهور الحمل بنفس التعب

ولكن زاد عليه الخوف

كانت كلما لمحت عادل ، غيرت وجهتها متحاشية لقائه

وكل ليلة تدفس نفسها بحضن زوجها مستمدة منه الأمان

حتى استيقظ يوما على صراخ

ألم وصراخ

وهتاف باسمه

" أنا ألد حسين ، احضر لي أمي "

جلبة بالبيت

وقابلة تعلم الأسرة جيداً

وأم قلقة

وزوج خائف

ونجلاء تصرخ

وصراخ صغير يثبت لنفسه مكاناً بالحياة

أميرة حسين برهام

أمسك حسين بالصغيرة غير مصدق

والتفت إلى نجلاء

" عيونك نجلاء ، الصغيرة لها عيونك حبيبتي "

تشبثت بهما احتضنت الصغيرة وتركت كفها له

وبتلك اللحظة لم تكن تشتهي سوى ذلك الأمان .

****

حفيدة الحاج برهام

بالطبع كان يتمنى حفيداً ذكراً

لكن كل مولود هو رزق

أولم الولائم احتفالاً بالصغيرة

ودعا أهل القرية للطعام

وبدا سعيداً بالحفيدة الجديدة وكأنها الأولى

كانت نجلاء تحمل الصغيرة وسط اجتماع نساء العائلة

يدقون الهون النحاسيّ

ويصدحون بدعوات لها ولوالديها

ويوزعون على الصغار الحلوى والشموع .

وكانت متوجهة إلى المطبخ تحضر غرضاً عندما اصطدمت به

"من حسن حظك أنها أتت فتاة "

ازدردت ريقها ببطء ولم تجبه

"ولاستمرار حسن الحظ لا تكريها ثانية "

وبدت غير مستوعبة

"ماذا ؟"

"لا تفعليها ثانية ، لديك فتاة احمدي الله عليها "

ثم أردف بصوت بدا لها كصوت أفعى

" فلا أضمن ردود أفعالي إذا ما أتى المولود الثاني ذَكَرا ...فهمتِ يا صغيرة !"

نظرت له برعب حقيقي ولم تنطق بحرف

أنقذها منه نداء والدته عليه

تركها ضائعة ، لا تدري من تخبر وماذا تفعل ؟

وكصغيرة لم يكن أمامها سوى احتضان أميرتها

وغرسها بقلبها

ودعت الله أن يحفظها من كل شر

وكانت تعلم أن عادل هو الشر الذي تستعيذ الله منه

بكل حين.

الفصل السابع

كن في الحياة كعابر سبيل

واترك وراءك كل أثرجميل

الأمان...

ذلك الشعور المتسرب إلى النفس بغير كلفة

السكون والسلام..

لا تصفه كلمات .. انها راحة

راحة تجدها النفس بحضرة أحدهم

الأمان هوأن تنام قرير العين

أن تعلم علم اليقين أن هناك من يذود عنك الأذى

من يقف بضهرك دافعاً كل الأهوال والحروب

من يغلق الباب بوجه كل دمار قد يصيب قلبك

من يقف شاهراً سيفه بكل حمية ضد كل معتدي

من تسلمه حصون نفسك جميعها

وأنت تعلم علم اليقين أنها بأمان

هذا هو الأمان

ولا يصل لتلك المرتبة بنفوسنا سوى القليل

سوى من تطوع ورغب وجاهد

ليتسلم تلك المفاتيح عن طيب خاطر

انتهى اليوم بمباركات ودعوات إلى الله لحفظ الأميرة الصغيرة

وكانت شاردة بوجوم.

حتى صعدت شقتها محتضنة صغيرتها برعب.

سمعت صوت غلق الباب فانتفضت

وجدت حسين أمامها متعجباً من هيئتها.

دثرت الصغيرة بالفراش واقتربت منه.

أمسكت كفه ، ونظرت إليه ، ثم همست باسمه

"حسين"

النظرة تشبث

والهمسة تشبث

وقبضة الكف أقسم أنها تشبث

"ما بك نجلاء؟"

ارتجفت شفتاها برعب ظنه هو بداية مرض

"حبيبتي هل أنت مريضة؟"

ظلت على نفس النظرة وقبضة الكف مع بداية دموع في مقلتيها

"حسين، هل يمكن أن نخرج من القرية؟"

زوى ما بين حاجبيه مندهشا " لماذا نجلاء؟"

انهار سد الدموع ، وبدأت الشهقات، ووجد نفسه

عاجزا بحيرة.

احتواها بين ذراعيه وهي استوطنتهما كملاذ وحيد

هل يجوز البوح الآن ، أن تبدأ صراعا لا قبل لها

به،

أن تضع الأخين بمواجهة تعلم جيدا الطرف الخاسر

بها، أن تجني على الحنون بحرب مع الطامع.

ابتعدت قليلا عن أحضانه ولامست وجهه

بكفيها، بدا وكأنه طفلها

الذي تخشى عليه الأذى.

"أحتاج إلى التغيير، الحياة بالقرية صارت خانقة"

نظر داخل عينيها يحاول استنباط المسكوت عنه، وغير مصدقا لأي حرف.

"أعدك بنزهة على البحر مثل نزهتنا الأولى، أعلم أني مقصر معك"

أطالت النظر إليه وتنهدت بشجن، واختارت الحل الآمن ، رجحت كفة السكوت على ما رأته سيقلب الأمور رأسا على عقب.

"بالفعل نحتاج إلى نزهة "

قالتها بكل هدوء وصمتت.

باتت ليلتها محتضنة صغيرتها وممسكة بكفه ، فمنهما تستمد الأمان الذي ترجوه.

وبهذه اللحظة لم تكن ترغب سوى بأمان ولو كان مؤقتاً.

****

ديباجة الخِطبة المعتادة.

معسول الكلام ، نظرات ولهى ، اشتياق ،تعجل الأيام لإتمام الزفاف.

لكن من قال أنهما يعترفان بالمعتاد!

وقفت أمام مرآتها تتطلع إلى وجهها

تضع بعضاً من الكحل بعينيها

بضغط من والدتها فهشام قادم لزيارتها اليوم

حثتها على التزين والتأنق.

وفطرة المرأة حب الجمال والزينة

وفطرة الرجل مرأى الجمال والزينة

ومن قال أنها تأبى ذلك ، هي فقط لم يتح لها أن

تقوم بهذا الدور الأنثوي من قبل سوى لمحات

خاطفة مع من دق له القلب.

وشردت أمام المرآة ،لطالما تمنت أن تبدو مثل

هؤلاء الإناث

تتدلل ، وتتغنج ،تمارس ضعفا أنثوياً صريحاً أمام

قوة رجل.

هل عليها أن تسلم لهشام مقاليد حياتها

أن يظهر هذا الضعف أمامه، وتستمد القوة منه.

كانت الأنثى بداخلها مغطاة بطبقة من الغبار

ولكنه غبار كثيف

هل عليها الآن أن تجليه؟

لكنها تخشى على نفسها من تهشم لن تقو على تحمله.

هل آن أوان أن تستمد الأمان بوجود أحدهم

أخذت نفساً عميقاً وقررت أن تترك نفسها تتصرف بحرية.

أن تستمد ردود أفعالها من صنيعه معها

رتبت ثوبها بيديها وعدلت وضع وشاحها وخطت إلى داخل حجرة الضيوف بأنف مرفوع وخطوات كلها ثقة.

استقبلها بعينيه ، شملها بنظرة فاحصة مع ابتسامة مشاغبة أظهرت غمازتيه اللتين بدأت تعتاد مرآهما، وهب واقفاً.

ألقت السلام وجلست.

دنا بمجلسه منها ثم بادرها بالحديث

"هل أخبرتك سابقاً أن جمالك ساحر"!

حسناً نحن الآن بحضرة نجل حاولت مداراته

وابتسامة جاهدت ألا تخرج.

تنحنح ثم اقترب هامساً

"مممم يبدو أنني لم أخبرك"

"حسناً هل أخبرتك أيضاً أن عينيك بديعتان"!

ومهما ادعت صموداً ،ومهما ظنت به المبالغة إلا أن

المغازلة الرقيقة لمستها

لكنها استمرت بدور المترفعة، نظرت إليه ثم أجابته

بهدوء

"لا لم تخبرني"

وابتسم ابتسامة واسعة

"إذا أنا مقصر جداً بدوري"

تغضن جبينها "دورك"!

ركز نظراته على عينيها بمشاغبة

" نعم ، دوري نخاطب لفتاة رائعة الجمال ،عليه

أن يتغزل بها كما يليق"

"هشام"

وكانت محذرة برقة جديدة عليها

"آآآآآه لو كنت أعلم أن هشام ستخرج من فمك هكذا لكنت تغزلت منذ زمن"

وقالها بصوت خفيض مع زفرة هادئة.

"هشام ، حقا توقف "

وكانت غارقة بخجل حقيقي ليس جديدا عليها فقط ، بل مربكاً لها ،لا تستطيع ولا تعلم كيفية التعامل معه.

اقترب محاولاً إمساك كفها ، لكنها سحبتها سريعاً وزجرته بعينها.

"اتركي نفسك تحلق معي سامية "

ولا يدري لم تلفظ بهذا الآن

وقد يقترن الغباء بحضرة السعادة

أن نلغي العقل ونخرج مكنونات النفس دون رتوش.

"ولكن هذه ليست أنا هشام "

وخرجت منها بكل سلام ممكن.

"وربما تكون بداخلك لكنها ترفض الخروج "

"ها أنت تقول ترفض الخروج"

"ترفض وليست ممتنعة ، اتركي لها الحرية"

وبدت مباراة كلامية ممتعة

"ربما خائفة"

نظر داخل عينيها

"أعلم كيف أُطمئنها"

عليها أن تعترف أنه يهدهدها الآن ، يقدم لها أماناً

على مائدة من السعادة

وللحق بدت وجبة ممتعة جدا.

وللحق أيضاً بدت على استعداد لتناولها الآن.

وبكل سكينة نطقت "هشام"

بدا عليه علامات غيظ مصطنعة

" علينا أن نتفق أن تَكُفِي عن مناداتي أولاً ، لن أتحمل مرة أخرى"

وضحكت ،ضحكت ضحكة صافية وسعيدة

وتعلق ببهجتها "ماذا كنت ستقولين؟"

وبكل أمان نطقت

"لا تخيب أملي بك هشام"

وارتجت نفسه من الداخل ، وغامت نظرة عينه

"بالطبع سامية بالطبع"

وهي على عتبة الاستسلام للأمان ، تقدم قدماً وتؤخر الأخرى ، متشبثة بكبرياء ، ومتحفزة بضعف.

*****

الأمومة فِطرة

هذا الشعوربالحماية الواجبة تجاه وليدها.

الانقضاض كنسر جائع على من يمسه بخطر.

ليست بحاجة إلى ارتياد أعرق الجامعات

ولا التدرب على يد أعظم الخبراء

هي مشاعر فطرية تتولد لدى الأم لحظة وجود مضغة برحمها.

تتأصل وتتوثق عراها بعدما يقطع الحبل السري ويصبح هناك صغير بين يديها يتطلب كل حماية.

ولا تنبتّ إذا صار يافعاً أمامها ، بل تظل غريزة الحماية محركة لها بكل شئونه ، وكأنه كلما بعد عن حبلها السري كلما اتصل الفؤاد به أكثر.

وسعاد ببساطتها وفطرتها استشعرت بنجلاء خطباً عظيماً

حملت عنها الصغيرة تهدهدا قليلاً

ونظرت إلى شرودها

"حبيبتي هل هناك خطب ما يزعجك"

وبدا وكأن والدتها انتشلتها من بحرعميق

بنظرة كلها شتات التفتت إليها

" لا أمي ليس هناك شيء"

اقتربت منها وضمت رأسها إليها

"هل حدث شيء بينك وبين حسين؟"

ورفضت نجلاء بهدوء

"بالطبع لا يا أمي ،ليس هناك من هو أفضل من حسين"

مسدت الأم كتفها "ماذا إذا نجلاء؟"

لم يكن بها طاقة لحوار ، تخشى أن تتفلت منها الكلمات ،مقدار رغبتها في البوح لأمها واستمداد العون منها مقدار رعبها من عادل ،لن تقو على ذكر كلمة واحدة مما هددها به.

أغمضت عينيها وأخذت نفساً عميقاً

"مجهدة أمي ،أميرة مستيقظة طوال الليل أحتاج إلى النوم"

وللمفارقة غطت في نوم عميق جداً ،علمت أمها بفطرتها أنه هروب ، وتيقنت أنها تخفي شأناً كبيراً

أنبأها حدسها الداخلي أنه شيء يخص صاحب الوجه الساخر بغيظ والذي تخشى على ابنتها منه منذ رأته أول مرة.

دثرتها بغطاء خفيف يناسب نهايات الربيع ، وحملت الصغيرة على كتفها وأغلقت الحجرة خلفها

قابلها وجه اسماعيل المكفهر

"نامت؟"

أومأت برأسها

"البنت تُخفي شيئاً يا سعاد"

نظرت له نظرة طويلة ولم ترُدّ

"هل عليّ أن أحادث حسين ! أم أتركهما يديرا شئونهما بمفردهما ؟"

"تقول أن الأمور بينهما على ما يرام"

تنهد بضيق طافت برأسه عدة شكوك ؛عادل أو سامية أو الوالدين ، لكنه يجهل ماذا يفعل.

"سوف أُحادثها عندما تستيقظ ،ربما تبوح لي بما أهمها"

استيقظت واجتمعت مع العائلة على غذاء عامر أعدته سعاد بكل حب ،وحاولت نجلاء أن ترسم ابتسامة على وجهها ،وريثما انتهت من طعامها دعاها

والدها لحجرته أجلسها جواره ونظر إليها بكل حنو

"ما بك يا صغيرتي الحبيبة ؟"

ترقرقت عيناها بدموع وبدا أن الكلمات تعافر

للخروج لكنها تمنعها

"انها الدراسة أبي ، حزينة لضياع العام ،والآن

أميرة تشغلني جدا لا ادري هل سأستطيع

الالتحاق بالعام الدراسي القادم أم أتغيب كسابقه"

أهداها والدها نظرة فاحصة برقة

"الدراسة نجلاء"!

ابتعدت عن لقاء عينيه وأومأت برأسها "بلى أبي"

انحنى يقترب منها

"اعلمي يا صغيرتي أنني جوارك دائماً ، وحتى إن رَحَلت أخوك به كل البركة صحيح هوبعيد عن القرية لكنه باتصال هاتفي يكون هنا ، وأزواج أخواتك بهم كل الخير"

سكت هنيهة ثم أكمل " لا تخشي شيئا نجلاء"

رفعت بصرها إليه وكأنه يفهم ما بها لكنها تعلم علم اليقين أنها بمصارحتها ستشعل الحرائق فاكتفت بقولها

" لا حرمني الله إياك أبي"

بطريق عودتها إلى منزلها كانت محتضنة الصغيرة بخوف بدا لها غير مبرر وكأن هناك من سيختطفها من أحضانها عندما وجدت صوتاً من خلفها "أهلا أميرة الصغيرة " انتفضت بهلع لم تكن سوى سامية تحاكي الصغيرة على كتفها.

تعجبت سامية من وجهها المرتعب

" هل رأيت عفريتاً نجلاء ؟"

تلعثمت وباتت تبحث عن أي رد

"آسفة سامية ، لم أميز الصوت وكنت بمفردي بالطريق"

انحنت شفتيها بسخرية "سوف أتنحنح قبل أن أحاكي ابنة أخي حتى لا أفزعك "

وتركتها ورحلت

وكأن هذا ما ينقصها موقفاً سخيفاً مع سامية جوار عداوة عادل شعرت وكأن الهواء يسحب من حولها فآثرت أن تتمهل الخطا قبل أن تصل البيت بكل ما فيه وقررت أن تخفف من حدة هلعها قليلاً

"ربما أنت تبالغين نجلاء ، هوفقط أراد تحجيم دوري داخل المنزل وأنا للحق لا أمانع بتاتاً"

****

صاحب النفس الطيبة يرى الكون بعينيه

يرى الجميل بكل البشر ويغض الطرف أو يتغاضى

عن أي شر

وصاحب النفس الخبيثة يرى الكون بعينيه كذلك

لكن شتان ما بين هذا وذاك

فهذا يرى القبح بكل شيء

يتصيد الخطأ أو يصنعه بعقله

وإذا حاولت إقناعه بالعكس لربما يسقط عليك

أنت خبث نفسه.

بالأخير كل يحصد زراعه وما بذر.

بدأ هشام العمل مع عادل ، لكونه لديه خبرة سابقة فاختار له العمل داخل الصوبة الزراعية الجديدة

متابعة اختيار المحاصيل وتغذيتها ونضجها إلى آخر تلك الأمور

اختيار العمل كان أسهل خطوة يمر بها هشام فعليه أن يتحمل جفاء عادل الجديد بعلاقتهما ،ليس هذا فقط بل عليه اجتياز اختبارات متتالية تظهر تفوقه في عمله.

كان عادل يضع له العراقيل دائماً متمنياً فشله حتى يتسنى له إزاحته عن طريقه وإبلاغ العم بذلك.

وللحق كان هشام يتفوق على نفسه بكل مرحلة ،وبعيداً عن سامية لم يسبق أن وضعه أحدهم بتحدي وأخفق به.

والآن يقف أمام الأخين الأكبر بعيون ملتمعة بنصر والأصغر بترقب ووجل من المواجهة

وهو بدا غير مبالياً واضعا كفيه بجيوب بنطاله ويبارز عادل النظرة بالنظرة.

كان واضحاً أن المتدلي من كف عادل ثمرة معطوبة يؤرجحها يميناً ويساراً أمام عينيه ممنياً نفسه بشماتة ونصر مظفر.

من قال أنه فريسة سهلة ،لطالما استضعف حسين أمام أخيه أما هو فيجب أن تكون كفته راجحة

"اختصارا يا سيد عادل سوف تخبرني أن الكثيرمن الثمار قد فسدت بسبب تقصيري بالعمل وعليّ الآن أن أتحمل لوماً وتقريعاً وأقدم اعتذارات " قالها وهو مبتسم بسخرية

ثم اقترب منه مكملاً " أليس كذلك"!

ليس على الصياد أن يبدي ضعفاً أمام فريسته وهو استدعى ثباتاً أمام مبادرته فاستعار ابتسامته الساخرة "هو ذاك بالضبط"

أخفض هشام رأسه وبدا وكأنه يعد خطوط الأرض من تحته وهو يحرك حذائه

"مممم حسناً سيد عادل يؤسفني أن أفسد عليك عرضك المسرحي لربما علي إعداد آخر وإرساله إلى حمايا العزيز"

وأكمل مباشرة "فلنقل مثلاً أن التربة كانت بها ملوحة زائدة وأنني طلبت منك عمل ريّ للأرض

منذ أسبوعين بماء قليل الملح وتهكمت عليّ مدعياً معرفتك بزراعة الصوب أكثر مني"

وقبل أن يرد من يظن بنفسه البطولة المطلقة

" ولنقل أني رأيت حشرات جديدة وآفات وطالبت بجمعها وحرقها لكن السيد المسئول لم يستجيب ....يا للأسف"

ومن قال أن هشام من أصحاب النفوس الخبيثة قد يظلمه هو أتم عمله على أكمل وجه لكنه كان يفطن لما يصنعه عادل من خلفه وتغاضى عنه حتى يوقفه أمامه بهذا الموقف ، ربما علينا أن نخيه من أصحاب

النفوس الطيبة كذلك فقد شارك بإعداد العرض بكل مهارة.

تدخل حسين مباشرة عندما لمح بعين أخيه نظرة الهجوم

"من قال أنك مقصر هشام ، الخير الكبير يأتي على يديك بإذن الله ، يبدوأن عادل لم يعلم أهمية تلك الخطوات ، ثقتنا بك كبيرة ونعلم بحجم خبرتك بالزراعة"

وبدا بهذه اللحظة عصفور سلام ممسكاً بغصن زيتون بين اثنين من الجوارح

كانا يتبادلان النظرات إحداهما غضبى على وشك الانفجار والأخرى مستمتعة بانتصار وتحدي.

عندما سمعا صوتاً قادماً من الخارج

" أتفق معك حسين"

كانت المطعونة بأنوثتها على يد ابني عمها من قبل ، والتي تنسج خيوط الأمان مع هذا الوافد الجديد

"ربما عليك أن تستمع لهشام جيدا عادل ، بالطبع يهمه مصلحتنا جميعا"

وضغطت على مصلحتنا عن عمد

وبادلت هشام نظرة ثقة مع بسمة خفيفة

ثُقل ، كل مايحدث له أصبح ثُقل على صدره ،لا طاقة له لسماع مهاتراتهم ولا تقبل وجودهم الحتمي بممتلكاته

"أنا عائد إلى البيت ، ولنا حديث آخر سيد هشام حول فنيات العمل بالصوبة الزراعية"

وانطلق مسرعاً قبل أن ينفث لهباً بوجه أحدهم.

"شكرا حسين "

قالتها بامتنان حقيقي يجاهد للخلاص من بؤرة تأثيره السابق عليها.

ولم يخف ذلك على الزوج المستقبلي فدنا منها وصافح حسين بمودة حقيقية

"شكرا بصدق حسين"

ابتسم لهما "لا داعي للشكر نحن جميعاً عائلة واحدة ومصلحتنا واحدة ، عليك التأكد والحرص على ذلك"

هذا الحسين صاحب النفس البريئة أراد إيصال رسالته بهدوء ووصلت كما أراد

أومأ هشام برأسه "بالطبع حسين نحن إخوة الآن"

واستأذن بالرحيل هوو سامية

ابتسم حسين بحنو متمنياً لهما السعادة.

****

بطريق العودة شاكسها هشام كثيراً

"أعلم الآن أن هناك من يقف بظهري ،صحيح أنها فراشة رقيقة مشرقة وزاهية لكنها تكفيني للعمر"

ابتسمت بخجل ولم تجيب

"بالطبع لا داعي أن تواجهي عادل مرة أخرى أعلم جيداً كيف أدبرأمور العمل"وكانت بها صبغة حزم

"متأكدة من ذلك هشام لكني تدخلت حتى لا يشتعل الأمر بينكما أكثر "وكانت حازمة كذلك

"سوف يعتاد عادل على وجودي خاصة عندما يتأكد أنني أبغي المصلحة لنا جميعاً"

التفت لها فجأة وأوقف خطواته وتصنع الجدية "ولكن انتظري هنا هل كنت تمشين في القرية هكذا ؟"

أجالت بصرها بهيئتها فلم تجد خللاً " بلى"

"ألم يسقط صرعى لجمالك هذا أو مصابين من سحر هاتين العينين"!

ابتلعت المبالغة والغزل والفكاهة ، ابتلعت لأنها تريد ذلك ،لأنها تريد الآن إنجاح تلك العلاقة لها

ولأسرتها ، هشام يبدو حصناً آمناً يمكنها الارتكان عليه.

ابتسمت بسعادة "لم يسقط هشام " وضحكا كثيراً.

**** *

هناك من يصنع روحاً للمكان

تبدو أنفاسه بكل ركن

بصمته بكل زاوية

وهو يحتاج لبصمتها بحياته وبأرجاء بيته

روتين العودة من العمل

تستقبله ببسمة واحتضان

تحضر الملابس لدشاً سريعا يأخذه عند عودته

يخرج فيجد مخفوق الفراولة والموز بانتظاره

ولا تسألها لماذا هذا الخليط ولكنه أصبح طقساً

يومياً اعتاده وأحبه كما يحبها

تحتفظ بالفراولة في المجمد صيفاً وشتاء لهذا

الغرض.

وأخبرتها أمها أن تملأ البيت برائحة الموقد والفرن

حتى يحب زوجها البيت

وأطاعتها تماماً فهي تريده أن يحب البيت

ألا تعلمين يا صغيرة أن بيتنا هو واحتي الوارفة ،

أن وجودك حولي بأي مكان هومكمن سعادتي ،

فور أن تطأ قدمي عتبة البيت يغمرني السلام

انتهى من تحممه ووجد مخفوقه المميز بانتظاره مع

بسمة صغيرته صاحبة الثلاثة أشهر

بدأ بملاعبتها مستمتعا ببدايات التبسم على وجهها

ثم التفت وجد نجلاء شاردة بهما

سلام يغلف ملامحها مناقضاً الهلع المصاحب لها

منذ مولد الصغيرة والذي أرجعه للمسئولية الجديدة

قاطع شرودها مبتسماً

"ما رأيك بالنزهة التي وعدتك بها سابقاً"

عندما يغلف الخوف القلب يبحث عن الأمان بالروتين

"لا حسين لا داعي لن تتحمل أميرة ، كما أنني أشعر أني لست بخير"

"كفاكِ كسلاً نتنزه قليلاً قبل بداية العام الدراسي سوف تسجلين هذا العام ولكن بقسم المنازل سوف تذاكرين من المنزل"

التمعت عيناها بفرحة وخطت سريعاً بالحجرة " التعليم من المنزل ، كيف لم أفكر بهذا سابقا" !

رأت انعكاس فرحتها بعيونه

" لا حرمني الله إياك حسين"

وكان دعاء صادقاً من عميق قلبها

أمسك بكفيها " ولا حرمني الله منكما حبيبتي أنتما

أماني الذي لا حياة لي بدونه"

وبدا وكأن الصغيرة تشاركهما الفرحة فسمعا من

تصدر "اغغغ اغغغ " وتبتسم

احتضناها سويا

"ما رأيك أن نحتفل إذاً ونتنزه على شاطيء البحر ،

هواء البحر سوف يسعد الصغيرة صدقيني"

لم تملك سوى موافقته كل ما يسعده هو مصدر سعادة لها ، لربما يحتاجان الابتعاد عن هذا التوتر المغلف لأركان المنزل بسبب الكبير الغاضب دائما وأبدا.

منه ومن صغيرتها تستمد الأمان هما حائط السد ضد أي ألم

نظرة بعيون الصغيرة كفيلة بإنارة يومها ونسيان أي منغصات

صوت مفتاح حسين بالباب يُخرج منها زفرة راحة وكانت أكثر من راضية بهذا الأمان...

جميعنا بداخله الأبيض والأسود ويركن كثيراً إلى الرمادي...

جميعنا بداخله الفاسق والقديس ، الغادر وصاحب الوفاء ، الطامع والمترفع ، العربيد وصاحب السعادة، متوهم المعرفة وأهل العلم ، صاحب الندوب والبريء كمولود

لمن ستكون الغلبة بداخلك؟

وأي كفة سترجح بكل اختبار؟

والتأنق سهلاً ،والدلال قد يكون متاحاً

إحداهما بثوب صيفي يناسب نزهة الشاطيء

والأخرى بتنورة تعلوها سترة صيفية بألوان فاتحة.

الأولى حرصت على البهجة بهذا اليوم وتمسكت بها

كطفل مع قطعة المثلجات.

والأخرى رجحت كفة الأنثى بداخلها وقررت

مفاجأة بمقر العمل كأي خطيبين.

الأولى محتضنة صغيرتها متجاهلة نظرة الأكبر

الحاقدة لهما وهما يهبطان الدرج.

والأخرى محتضنة أملها بالغد، أمانها الذي بدأت تستمده منه ، متجاهلة نظرات الاستهجان من أهل القرية للعانس المتمسكة بآخر خيوط الأنوثة.

-ركبت السيارة بالمقعد الخلفي بعد طلب منه خشية على الأميرة الصغيرة.

محملة بسعادة ولا مانع من دثار للصغيرة ولعبة تصدر صوتاً(شخيخة) حتى يمكنها الهائها خارج المنزل.

التفت حسين للخلف وألقى عليهما نظرة وضحك ضحكة كبيرة

نظرت له بغيظ " ما الذي يضحكك ؟"

تبدلت النظرة لمحبة "طفلة تحمل طفلة ، هذا الثوب زاهياً كأثواب الأطفال يوم العيد"

حملت حزناً طفولياً وهي تخبره

" أتسخر مني حسين أنت من ابتاع لي هذا الثوب"

قهقه من هيئتها والتواء شفتيها

"أعلم نجلاء أنا معجب به جداً ، كما تخيلته عليكِ تماماً"

تراجع حزنها وضحكت بخجل " هيا تحرك الناس يرقبوننا هكذا"

ضغط دواس البنزين وكان يعلم الوجهة الشاطيء الذي ذهبا إليه سابقاً ونفس مطعم الأسماك.

***

-قررت أن تجاريه بلعبة الحطيبين

حقها ، من يلومها ، انتظرت طويلاً ووجدت من يحاول أن يروي الظمأ.

والآن هي على بعد خطوات من الصوبة الزراعية متأنقة لتافجئه بزيارة وتمضي معه بعض الوقت.

مع كل خطوة كانت تزرع أمل

مع كل خطوة تبذر ثقة

مع كل خطوة تزداد الثقة

ومع كل خطوة كانت تعلو الهمهمات التي تسمعها

من الداخل

هل هذا صوتاً أنثويا!

من تكون؟

وبدأ الهمهمات تضح لكلمات مسموعة وقعها بقلبها

وقع النار التي تكوي

ضحكة أنثوية

وغنج ودلال لم تطرق بابهما بعد

"هكذا نسيتني هشام"!

"تلك العانس هل ملأت مكاني"!

هل قالت هشام ؟ بالتأكيد هو أحد العمال بالداخل

ولكن الرد أجهز عليها

"ليس هناك من تملئ مكانك سهام"!

"ألم أخبرك سابقاً أن جمالك ساحر"!

الصوت صوته

والهمس حديثه

والحروف طعنات لقلب أخضر كان في انتظار النضج على يديه

وتوالت الطعنات

"كان علي أن أبعد عنك مؤقتاً حتى أرتب أموري ، وبعد الزفاف سنعود كما كنا يا حُلوة"

"يمكنني الآن أن أستأجر لك شقة بمكان بعيد ، سوف نظهر على وجه الدنيا يا فتاة ، سأكون صاحب مال كثير"

مادت بها الأرض

وبدا أنها تلاحق النفس الخارج منها خشية أن يكون الأخير

وتصلبت مكانها

لم تملك جرأة الدخول ومواجهتهما

لن تقو أن تخبر والديها

لن تتحمل شماتة أهل القرية

تصلبت ولم تقو على فكاك أو قبول.

-هناك بسيارة تقطع الطريق

كانت نافذة السعادة مشرعة على آخرها

سقطت الصغيرة بنوم فور ركوب السيارة

وكانت نجلاء تمارس هوايتها بعدّ أعمدة الإنارة

بطول الطريق

بدأ الطريق يضيق قليلاً

لمحت عربة قادمة بالاتجاه المخالف بسرعة

"خذ حذرك حسين"

"سوف أتجه يميناً وأتوقف حتى تمُرّ لا تقلقي"

انحنى يمينا

ضغطة على المكابح

لا توجد

ضغطة أخرى

لا توجد

"حسين انتبه " وكانت تصرخ

"لا توجد مكابح يبدو أن هناك عطب ما سأبطأ السرعة"

كانت السيارة الأخرى مسرعة غير مراعية لضيق الطريق

"حسيييين"

صرخة

اصطدام

محتضنة الصغيرة بتشبث

مقدمة السيارة تتهشم

دورة فالثانية والسيارة تنقلب رأساً على عقب

دماء

جسد مهشم

الشخشيخة بيد نجلاء مضرجة بالدماء

المارة متمجعين

صوت ناقوس الاسعاف

وعلى هامش الحياة أنت رقم بمشفى

الحالة رقم ٦ تحتتضر

وعليك أن تكون مستعداً دائماً لمفاجآت القدر

وربما اختفاء الأمان.

الفصل الثامن

مزق دفاترك القديمة كلها...

وما حدث كان إعصار..

اتصال هاتفي ،صراخ ، حادث ، وهرولة من الجميع..

وعادل يبتلع الجميع بالمشفى بصوت جهوري وعروق نافرة وزعيق.

"ماذا تعني بكونك لا تعلم الحالة ؟ ألست الطبيب المعالج ؟"

حاول الطبيب أن يمتص الغضب

"هو موضوع بالعناية المركزة تحت الملاحظة لكن الوضع غير مطمأن ، هذا ما يمكنني التصريح به"

ونزيف بالمخ أو سكتة قلبية أو غيرها ، تعددت المسميات والموت واحد والفقد نصل حاد على رقاب الجميع.

ما بين عويل ولطم على الخدود وبكاء مرير من أب أو غيره.

كانت هي تناظر كل ذلك وتبدو مشاهدة من بعيد غير مشاركة بالمشهد ، تحملق بالوجوه بغربة حقيقية ، تسمع زعيق الكبير بها أنها السبب ، تلمس الدماء الساخنة على وجنتها ، تدور تدور حول نفسها ، وكان الله رحيما بها فسقطت.

والسقوط المدوي لا نستشعره إلا عند النهوض.

ونجلاء لم تسقط فاقدة للوعي فقط ، بل سقط كل ما بها مع رحيل حسين ولن ترى ذلك إلا عند الإفاقة.

وأنا ماذا أريد؟ أنا ماذا جنيت ؟ أنا ومن أكون ؟

ومهما ادعيت النجاة ... بالفقد أنت هالك

مراسم عزاء مهولة للفقيد الشاب.

المرِح ، الودود ، المحب للجميع ، بكت عليه القرية كلها.

اكتظ المسجد بالمصلين لتشييع الجنازة.

عادل متشح بسواد شاركه وجهه به ، لم تقو سلوى على توجيه كلمة واحدة إليه.

الأب مكلوم بصمت مهيب ومتمسك بعصاه بتشبث.

الأم حدِّث ولا حرج ولا تترك وصفاً من أوصاف الحزن دون أن تخلعه عليها.

العم كأسد حبيس لكنه أصر أن يستند على سامية وهشام ليخرج يودع صغيره الأثير لديه.

زوجة العم بدت وكأنها شاخت بساعات ،حسين لديها كان الأبن الذي لم تنجبه.

سامية نحت أي حدث جانباً ،وصلها الخبر فور عودتها للمنزل مطعونة من الخاطب

..الخطب جلل وما بها لا يليق أن يطرح بهذا المقام ، استولى الحزن والألم على القلب وصارت الدمعات هي الدواء.

أهل القرية مصطفون على جانبي الطريق يودعونه

وعندما دخل الجثمان القبر سقط الأب مغشياً عليه

تعامل عادل مع أهل نجلاء بكل وقاحة لكنهم ظلوا مرابطين حتى تمام العزاء.

بالأخير انفض جمع أول يوم وبقِيَ الحزن في الصدور والفاجعة تطغى على العقول فتمنع أي تفكير.

****

هناك بالمشفى كانت راقدة

بحساب دقات الساعة هي خمسون ساعة وبعض

دقائق..

بحساب الأنفاس هي نجاة وهلاك،رحيل وميلاد

، وجود وعدم.

وبحساب القلوب هو قرار تأخذه أو يأخذه عنك

الواقع، وعليك إظهار الرضوخ.

أهداب ترفرف ثم تغلق.

جلبة بالخارج مجهولة المعالم تقتحم الغفوة

الاختيارية بأمر العقل، ثم ترحل.

مشاهد تتداعى بين يقظة ونوم.

جسد محشور بين المقود والمقعد الأمامي...

ثم ضوء أبيض يغمر الأجواء.

صغيرة متشبثة بضعف..

ثم نفس الضوء الأبيض.

صرخة باسمه "حسيييين"

ثم إفاقة.

جدران بيضاء ورائحة مخدر مترافقة مع بعض

المطهرات الطبية.

طنين يدق برتابة كدقات بندول ساعة.

وممرضة تهتف "لقد استيقظت"

الآن بدأت تستشعر ضمادة بالرأس وجبيرة بالقدم

و.....

"حسيييين"

هدأتها الممرضة بمحقن جديد،، وسمعت همهمات عن راحل وصبر وتحمل ثم راحت مجددا بسبات عميق بدا أنها لن تخرج منه.

بالخارج تحدث الطبيب مع الأب الذي بدا غير مهتما بأي تفاصيل طبية بل سؤاله الوحيد متى تفيق ابنته؟

"ابنتك بحالة صدمة يا حاج، من شاهد الحدث أقر أنها كانت بوعيها حتى جاءت الإسعاف ونقلت الزوج والطفلة، رافقتهما إلى المشفى وهي على قدمها، ما يحدث الآن هو رد فعل عكسي من المخ، هي ترفض تصديق ما حدث، لذلك لجأت للغيبوبة باختيارها"

بدا الأب مستوعبا للأمر بفطرة الأبوة، شكر الطبيب وجلس جوار زوجته.

"اصمدي يا سعاد، نجلاء ستكون بخير"

نظرت له بكل وهن

"أي خير تتحدث عن يا اسماعيل، لقد رحل زوجها أمام عينيها" وأجهشت بالبكاء

"أي شقاء ينتظرك يا صغيرتي بالمستقبل"

تمالك الأب نفسه

"الحمد لله أن أميرة بخير، بارك الله لها بها وجعلها خير عوض"

رفعت وجهها المحتقن من البكاء "هل تكذب علي أم على نفسك يا اسماعيل، لقد رأيت بنفسك ما فعل أخيه، كيف هاجمنا بدون سبب وصرخ بها واضحة

" لقد قضت ابنتك على أخي الوحيد"

كيف سيكون حالها بعد هذا المصاب داخل هذه العائلة"

شرد الأب ولم يرد أن يزعجها أكثر بما صرح به عادل عن أميرة وكيف أنها ستكون بكنفهم، دعا

الله بصدق أن يجعل لصغيرته مخرجا من هذا الضيق.

***

وهناك على بعد كيلومترات كانت أخرى مهشمة، محطمة، متشحة بسواد، جالسة تتلقى عزاء بابن العم الذي فطر رحيله القلب.

القلب الذي كانت تود أن تقيم له سرادق عزاء آخر لكن القدر لم يمهلها الفرصة.

"سامية"

تلفتت فوجدت الوجه الوسيم والغمازتين ومسحة حزن على الوجه.

توجهت إليه بلا مشاعر.

"سوف أرحل الآن إلى العمل، هل تريدين شيء حبيبتي؟"

نظرت إليه نظرة جوفاء خالية من أي معنى،أما الكلمات فلم تحشر بحلقها لأنها لم تخرج من الأساس.

أشاحت بوجهها عن ناظريه "شكرا هشام"

وهو قرار أخذه عنها الواقع ورضخت أو ادعت الرضوخ لا فارق فالخسارة أكبر من أي حسابات.

****

ظل العزاء أسبوعاً ، يتوافد الناس على البيت صباحاً مساءً

وبآخر يوم قامت الحاجة فاطمة وأغلقت باب البيت وأعلنت انتهاء العزاء.

أمامك مهمة شاقة يا فاطمة.

برهام طريح الفراش بسكر مرتفع أثر على أعصاب القدمين.

عادل قنبلة منفجرة بوجه من يقترب منه.

ونجلاء .... آه يا نجلاء هل ستتركيني

وفجأة هاجمها خاطر ، سترحل بأميرة وتتزوج

ويفنى أثر حسين للأبد

"استغفري الله يا فاطمة"

بخطى متثاقلة جرجرت قدميها حتى وصلت إلى

عادل

جلست جواره وربتت على كتفه

رأت منابت الدموع بعينيه واحتضنته

"لم يعد لي غيرك يا ولدي، كن قوياً لأجلك ولأجل الجميع"

وسكتت هنيهة

"ولأجل أميرة ونجلاء"

قطار يدهس دون فرامل بصريخ

"لا تأتي على ذكر اسمها ، هي من أوحت له بتلك السفرة هي السبب"

"استغفر ربك يا ولدي ، كله مقدر ومكتوب"

واستطردت " لا تنسى وضع والدك الصحيّ ،

لقد أمر الطبيب أن نبعده عن الانفعالات

والمشاحنات"

"لأجل أخيك اذهب واطمئن عليها بالمشفى"

كاد أن يتلفظ بأحد انفجاراته حين لاحقته

" لأجلي يا ولدي ولأجل والدك وسوف أذهب

معك"

أخذ نفسا عميقاً "لنكن على نور ابنتنا لن تخرج من

بيتنا وهذا قرار لا نقاش به"

مهادنة ... احتواء .... تغاضي

حِملك ثقيل يا فاطمة

بالمشفى كانت نجلاء لا تزال بالغيبوبة

الأم مرابطة جوارها ومعها الصغيرة التي لا تعرف شيئا من أمر الدنيا

والأب لا يتحرك عن باب الحجرة بانتظار إشارة الإفاقة.

ورآهما من بعيد فهب واقفاً

"حاجة فاطمة ! كيف جئت ؟"

وتطوع الغاضب بالإجابة "جاءت طائرة"

وخرج كلامه كاللهب "بدلاً من الترحاب بها تسألها كيف جاءت"

تلعثم الرجل "عفوا يا أم عادل ، تعجبت من رؤيتك هنا والوضع كما تعلمين"

جاهدت الأم نفسها لتبتسم فلم تستطع

"نجلاء ابنتي يا حاج اسماعيل كان حتماً علينا الاطمئنان عليها منذ أيام لكنك تعلم ما كنا بها"

اغرورقت عيناه بالدموع

"مصابنا واحد ، ونجلاء لم تستيقظ منذ سماع الخبر"

فتح باب الحجرة ودعاها للدخول ،وظل واقفا هو مع عادل بالخارج

دلفت إلى الداخل وفور أن رأتها بالضمادات تحيط بها والمحقن بوريدها شهقت دموعا واستغفرت ربها

علمت سعاد ما جال بخاطرها

"إرادة الله يا أم عادل ، له حكمة بالسلب والعطاء"

اقتربت منها .أمسكت كفها وخاطبتها

"نجلاء هل تسمعينني ؟ أفيقي يا ابنتي . أفيقي لأجل ابنتك .لأجلي ولأجل عمك برهام"

بدا لها أنها حركت أصابعها فاستمرت بالحديث

"نحن معك يا ابنتي لن نتركك"

وبالخارج بادرالأب بالحديث

"أعلم حجم المصاب يا ولدي لذلك لن أعول على أي كلام سابق"

أومأ برأسه فقط

الجميع ينتظره ، يخشاه ، وهو يخشى من الغد ولا يعلم عنه شيئاً.

أتى الطبيب قام بالفحص الدوري ثم طمأنهم

"الإشارات الحيوية جيدة ،نحن ننتظر لحظة الإفاقة ، ولكني مضطر إلى إبلاغكم الآن أننا فقدنا الجنين"

بصوت واحد مصدوم نطقوا جميعهم

"جنين"!!

"نعم المصابة كانت حامل بشهرها الأول ولم يتحمل الجنين الحادث وما تلاه من انهيار ، رزقكم الله الصبر"

والوجوه جميعها مصدومة

والخسارة متعددة

وبدا الآن أن نجلاء هي الخاسر الأكبر.

وليس هناك من سبيل لتعويض تلك الخسارة.

****

نقر على الرأس ، النقر يزداد حدة

ابتلعت حبة مسكن وذهبت لتفقد حال أبيها

منذ الحادث وهو على صمته

الطعام .. يتناول ما يسد الجوع فقط إذا وُجد

الجوع أصلا.

والشرود هو سيد الموقف.

وهي عليها أن تهون عليه ما ليس هيّن.

وتبتلع ما لا يمكن التصريح به الآن.

"أبي"

لم ينظر تجاهها وكأنه لم يسمع

"أبي المصاب جلل أعلم ذلك ،إنه حسين"

ولم تكمل فلقد سبقتها العبرات والشهقات ، كل ما

كتمته بالأيام الماضية انفجر الآن

فالتفت إليها وأخذها بين أحضانه

من بين دموعها توسلت إليه أن يعود إلى الحياة

"أبي لم يعد لي سواك ، لا تتركني الآن"

نظر لعمق عينيها فقرأ كلاماً كان يعلم أنها لن

تصرح به

"أنا بخير سامية"

تنفست الصعداء " لا حرمني الله إياك"

كفكفت دمعها ومسحت وجهها وخرجت إلى العمل

لأسبوع يتابع هشام وحده العمل

لأسبوع تتهرب من لقائه

لأسبوع تستيقظ على كوابيس هو بطلها

لأسبوع تبدلت ورحلت سامية وجاءت أخرى

دخلت المكتب وجدته بمكان عادل فور أن رآها نهض سريعاً

تتطاير الشرر من عينيها

"حتى لو رحل عادل نفسه لا يحق لك الجلوس مكانه"

لم يفهم سر الحِدة بالكلام "كنت أجيب على الهاتف سامية لم يحدث شيء"

التفتت إليه بحدة وحملقت بعينيها

"ولن يحدث شيء"

حسناً هي حزينة لرحيل ابن العم المفاجيء ، هكذا حدث نفسه

"بالطبع حبيبتي لن يحدث شيء أطال الله بعمر عمي عاشور وعمي برهام"

طالعته بكل قرف ولم تنبس بحرف.

"أطلعني على ما حدث بهذا الأسبوع لحين عودة عادل"

"ولماذا ننتظر ؟ لقد عاد عادل بنفسه "وكان هذا عادل بباب المكتب.

قام هشام واحتضنه وربت على كتفه

"مرحبا بعودتك يا صديقي"

وعادل بكل حال لا يتقبل هذه المظاهر الإنسانية فبتر تلك المحاولة

"إلى العمل إذا ؟"

وبكل تفصيلة من تفاصيل العمل كان عادل حاضرا بقوة

وكانت سامية غائبة في عالم آخر

وفجأة فقدت القدرة على التحمل

"أعتذر منكم سوف أرحل"

نظر إليها هشام بتعجب

" انتظري حتى انتهي ونرحل سوياً"

"لا " وكانت قاطعة

وقطعت عليه استكمال الحديث ورحلت فوراً.

كانت تتحرك وهي شاردة فاصطدمت بمن يدلف إلى الداخل

رفعت وجهها فوجدت فتاة

ولا تعلم لم توقفت

"من أنت ؟" ونطقتها بخوف

"سهام يا سيدتي " وبدت متصنعة للخجل

نظرت إليها مطولاً دون تعبير

فتاة بأوائل العشرينات ، بيضاء البشرة ، هيفاء القوام

بنظراتها جرأة ظاهرة

"إلى أين أنت ذاهبة ؟" ونطقتها بنفس النبرة الخالية من أي شيء

واختلقت الكذبة في لحظة " لقد جئت أبلغ السيد هشام عن أحد العمال المتغيبين"

لم تهاجمها ، لم تطردها ، لم تسألها

فقط نظرت إليها مطولا وأخبرتها

"ادخلي انه بالداخل"

حتى حدادنا لم يزجرك هشام

تأتي بها هنا بخضم ما نحن فيه

وأمسكت رأسها من هذا النقر الشديد

وبدت كغريق ببحر ولكنه لا يسعى

إلى النجاة ....لأنه لا يقو على الإمساك بالطوق أو

لا يراه.

******

بكاء .... بكاء شديد

أميرة تبكي بشدة

كانت على الشاطيء ، بدثارها وشخشيختها لكن

الأمواج تسحبها

نادت على حسين لينقذها

حسيين

حسيييين

أميرة تغرق انقذها

نظر إليها بيأس "لن ينقذها أحد غيرك نجلاء"

وأدار وجهه ورحل

حسيييين

هل تتركنا هنا

لكنه لم يلتفت

صوت بكاء الصغيرة يعلو

فطنت أن قدميها مكبلة

تجاهد لتفك القيد وتنقذ صغيرتها

أميييرة

وضوء يملئ المكان

فتحت عينيها فجأة

كانت أميرة تبكي بالفعل جوار والدتها التي غفت قليلا

حاولت أن تتحرك لكن جبيرة القدم أوقفتها

نطقت

"اميرة"

"أمي"

حركت أصابعها

على الفور وجدت الممرضة بالحجرة

"أميرة ..أمي ... تبكي"

استيقظت الأم وهبت واقفة هدهدت الصغيرة

فصمتت عن البكاء

"أميرة ... أمي ... حسي"....

ولم تكمل

احتضنتها الأم وبكت بكاء شديدا

لم تصدق أنها أفاقت من هذه الغيبوبة

"حمدا لله على سلامتك حبيبتي"

والطبيب والممرضات

والأب والحاجة فاطمة

ولمحت عادل

كل هذا هي خارجه

بشر يروحون ويجيئون أمام عينيها

وقرر الطبيب لا داعي لوجودها بالمشفى الآن

وكان المأزق

إلى أين ؟

ببيتها حيث كل الذكريات ؟

ببيت أبيها حيث تغيب هي والصغيرة عن عيون الأب المكلوم؟

وحسمت هي الموقف

"إلى بيتي"

ولم تصرح بغيرها

دخول على الأب لم يتحمله فانهار وهو يراها أمامه

درجات تصعدها بمساعدة الأم

بكل درجة تفقد دقة من القلب

جدران تشبعت برائحته عليها الآن أن تواجهها

بمفرده

ونطقت بما لم يتوقعوه

"أريد مخفوق فراولة"

نظرت كلا من فاطمة وسعاد إلى بعضهما بذهول

قامت سعاد وأعدت لها المخفوق وقدمته لها

تجرعت الكأس دفعة واحدة وجلست

لم تستطع دخول الحجرة نظرت من بعيد ولم تقدم

على خطوة واحدة

الآن تتدافع الذكريات

الآن عليها أن تحسب الخسارة

زوج

ابن

حياة

الآن عليها وحدها أن تتحمل الألم.

عليها وحدها أن تفكر بغد لا ترى له أي إشراق.

عليها وحدها أن تتخطى طفولتها دون أي تمهيد.

وأنا ماذا أريد؟ أنا ماذا جنيت ؟ أنا ومن أكون ؟

ومهما ادعيت النجاة ... بالفقد أنت هالك

الفصل التاسع

عند الألم

لا تبحث عمن يشاركك إياه

خذه هكذا دفعة واحدة

وتجرع خلفه كأس الحقيقة

حقيقة أنك قوي بنفسك

قوي لنفسك

طفلة كانت هي

صغيرة صارت أنثى

صغيرة صارت أُماً لصغيرة

صغيرة صارت أرملة

كالسجين بمحبسه لا يدري عن الخارج شيئاً وجد نفسه بمواجهة الذئاب.

بالبداية لم تعي مفهوم "أرملة " بعمر الزهور لكن النظرات الطامعة والكلمات التي تطأ مسامعها للمرة الأولى اختزلا كل الحقائق.

"لولا أني أحترم والدك ؛لكان ردي الآن صفعة على وجهك"

ولم يكن حوارها هذا موجها لصفيق قابلته بعرض الطريق بل ممن يمت بقرابة للزوج الراحل،والذي تطاول بالعين واللسان وربما أراد أكثر .

بعد ذبول ورفض ومحاولات نهوض وانتكاسات ومخاض روح بدا سيطول عمراً، خرجت من شرنقتها لتواجه حياة ما تخيلتها يوماً

تواجه بقلب واجف وروح مرتعدة وبصيرة غائبة وأمان زائل

أصرت أن تقضي فترة العِدة بشقتها ،بالأصل ما كانت تفهم ما تعني عِدة ومكوث بالمنزل ولكنها ليست أول شيء عليها تعلمه

رغم براءتها فطنت أن أمامها الكثير لتعرفه بإرادتها أو بإلحاح الواقع والأمومة والمسئولية.

وبحداد بدا راسخاً بالقلب خرجت

لم تقو على زيارته هناك بالمسكن الآخر ، مسكن الرحيل

اكتفت بمحاورته التي تجريها يوميا وبكل تفصيلة

"أميرة تبتسم حسين "

"لقد ارتطم زجاج النافذة بالجدار فأصدر صوتا مفزعا ، لو كنت هنا لكنت احتضنتني "

"لقد ظهر أول سن لصغيرتنا ، بدا كجوهرة لامعة في ليل أسود"

"رأيت كيف يعاملني أخوك ، لن أرد عليه لخاطرك"

"سوف أمر على أبي اليوم قليلاً"

" أعلم حبيبي لن أهمل بعد الآن سوف أقدّم بالمدرسة العام القادم "

كانت محتجبة بشقتها والآن صار مباحاً لها كامل الحركة ، لكنها مكبلة بقيود هي نفسها لا تعلمها .

حملت صغيرتها وقررت أن تذهب إلى المدرسة للاستفسار عن كيفية الالتحاق وقد بدأ العام الدراسي بالفعل

التقت عادل عند والدته وكان لقاء أعين غير لطيف بالمرة

"إلى أين إن شاء الله ؟"

أدارت بصرها إلى فاطمة وأجابت

"إلى المدرسة "

ولا داعي لذكر الانفجارات والكوارث التي كانت في طريقها للحدوث والتي أوقفتها الأم بعدما لمحت شرار البداية

"لماذا يا ابنتي ؟"

ابتلعت ريقها وقبضت على صغيرتها أكثر

"حتى أسأل عن التسجيل بالعام الدراسي الحالي "

والقابض على الجمر لا يتحمله ، وذلك نافر العروق لم يستطع التريث أكثر

"حسنا يا صغيرة لقد الأوان أن تعلمي أنك كبُرتِ وحان موعد فطامك ، ذلك الدلال الذي كان

يفعله الراحل لم يعد له مكان أنت أُم وابنتنا هي مسئوليتك "

حاولت أن تتغاضى عن الألم وتحارب من أجل حلمها لكنها كانت مثل قشة في مهب الريح

"لن أهمل بابنتي ، سوف أذاكر من المنزل لن أحضر الصفوف الصباحية وأذهب فقط على موعد الامتحان "

دعك وجهه بيديه وزفر بضيق

"لا صفوف صباحية ولا مسائية ، ولا فائدة من هذه التفاهات "

ثم اقترب منها خطوة وزوى ما بين حاجبيه وبدا يقرض على ضروسه

"أم أنك تودين الخروج للبحث عن عريس !!"

شهقت بصوت مرتفع وحملقت بعينيها

"كيف تجرؤ على قول هذا ؟"

وحضرت الشياطين ولا سبيل إلى انصرافها

"من أنتِ يا ابنة المزارع حتى تملي علي ما أقول ومالا أقول ، يبدو أنك فسدت بدلال أخي "

واستطرد سريعا " دورك هنا مربية لأميرة لا أكثر ولا أقل وإذا تمنعت بإمكاننا إحضار أفضل مربية واذهبي أنت إلى أبيكِ"

فتحت فهما لترد عندما أمسكتها فاطمة

"نجلاء حبيبتي ،ما رأيك أن تمري على والدتك الآن،وسوف أذهب معك إلى المدرسة بيوم آخر "

كان صوت أنفاسها مرتفعا ووجهها محتقنا بغيظ لكنها احتراماً لوالدة الراحل آثرت السلامة

"حسناً ، سوف أذهب إلى أمي "

وفور رحيلها انفجرت الأم بابنها

"ماذا تفعل أيها الكبير والوحيد الآن ؟هل هكذا تحتوي أسرة أخيك الراحل ؟ هل هكذا تلم الشمل؟"

وكان منصتا لها بضيق غير مباليا بأي شيء

"سوف تتسبب برحيلها عن البيت عادل ،ولا تخبرني أنك ستأخذ أميرة، البنت حقها بالشرع والقانون والقلب يا ولدي الكبير،

مصابنا شديد يا ولدي لسنا بحاجة لمزيد من المعارك"

أومأ برأسه ورحل يلعن نجلاء وأبيها وعائلتها كلها

وهي ذهبت إلى أبيها مفطورة الفؤاد ولم تقو على الكتمان فقصت ما حدث على والديها .

هدأت أمها من روعها

وكتم الأب غيظه وتعامل بلغة الحكمة

"تعرفين أن عادل حاد الطباع حتى مع بناته ، لكنه لا يقصد مضايقتك ،وأنا أرى مثله لا داعي للدخول والخروج والدراسة يكفيك رعاية ابنتك"

نظرت له بصدمة

ربت على ظهرها "صدقيني يا ابنتي هذا أفضل لك ولابنتك حتى لا تبعد عنك"

قامت للصلاة فاقتربت والدتها هامسة بحدة

" ماذا تقول يا إسماعيل ؟"

"أقول الحقيقة يا سعاد نجلاء صغيرة جميلة وأرملة لا داعي لخروجها ، أهل القرية لن يرحموها "

طرقت رأسها بتفكير فأكمل

" كما أنه لا داعي لخلق صراع مع عادل على أمر لا يستحق ، ما الذي ستفعله الدراسة لنجلاء لن تقدم ولا تؤخر"

"كلامك مضبوط يا اسماعيل عين الصواب ، سوف أراضيها إذاً"

الجميع متفق على صوابه الجميع راضون وهي ..

تلك النجلاء ،ماذا عنها ! من يبالي !

***

لكل حكاية طرفان

مادح وممدوح ...مُعطي ومُستقبل

مُحب ومستقبل للمحبة ومبادلها

غادر.... ومغدور به

وهل ستقبل هي بدور المغدور به !

كل العنفوان والأنفة والكبرياء يتقبل الغدر هكذا!

نقر الرأس لا يتوقف

يطالبها والداها بمراجعة طبيب لمعرفة سبب صداع الرأس

وهي تعلم

قلبها يعلم

لكنها لم تجد بنفسها القدرة على الإفصاح لأحد

ستكون قصتها كقطعة العلكة تلوكها الألسنة

العانس التي تمت خِطبتها حديثاً على شاب وسيم

فسخت الخِطبة

والأدهى ان يُعرف السبب

أنها لا تملك سوى الأموال أما الدلال والسرور

فليكن من أخرى .

وعاشور وفادية كيف سيتقبلان الوضع

ليتك كنت هنا حسين كنت وقفت بوجه هشام

لو تركته الآن سيحوم عادل حولي مرة أخرى

وازداد نقر الرأس

فأمسكت رأسها بكفيها

"آه يا سامية ما العمل "

طوال شهور نتعامل معه بأضيق الحدود وظنه هو

حداد

ولم يحاول اجتياز الحد احتراماً لمشاعر العائلة

واكتشفت بدلا من سهام ، مروة ولا تعلم من

ستكون التالية .

كانت بمعمل الأجبان تحادث العمال بكل وهن

ليس من صفاتها

عندما وجدته أمامها مبتسما بصفاقة

"أيها ال ****" ولم تترك سُبة بعقلها إلا وذكرتها

اقترب متصنعاً المرح

"كيف حال خطيبتي الجميلة ؟"

"خطيبتك!" وخرجت منها باستنكار لم تخفيه

اقترب خطوات بدت لها كل خطوة بنقرة بالرأس

"معك كل الحق ،أنا مقصر معك حبيبتي "

وازداد شعور الغثيان رويدا رويدا وهي تستمع لكلمات الغزل تخرج من فمه

تتصبب عرقا

وبدأ طنين بأذنها

ثم طعم مالح بفمها أعقبه ....قيء

ثنت جسدها وأفرغت محتويات معدتها على الأرض أمامه

وبدا متعجبا

ولم تجد هي حرجا من رؤيته لها

بعدما انتهت ذهبت لدورة المياه غسلت وجهها وعادت

كان قد أمر إحدى العاملات بمسح الأرض

اقترب منها "حبيبتي أنت مريضة ! هل نذهب للطبيب !"

" أنا بخير "ولم تضف حرفاً

"هيا سوف أوصلك للمنزل لتنالي بعض الراحة "

وإجابة مقتضبة أخرى "لا "

"حسناً سأبقى جوارك حتى تنتهي من عملك "

زفرت بغضب والصمت سيد الموقف

انتهت من عملها وتجهزت للرحيل وهو مرابطاً جوارها

" ليتني كنت أنا حبيبتي لا أتحمل رؤيتك هكذا "

نظرت داخل عينيه تحاول استظهار الكذب لكن كل لمحة منه كانت تحمل الصدق

وظنت بنفسها هي التوهم ، هل خيل لها ما حدث ، أم أنه يحبها فعلا لكنه يصادق هؤلاء

أطالت النظر بشرود ظنه هو بداية لحظة رومانسية

"أحلم باليوم الذي يظلنا فيه سقف واحد،متى سنتزوج سامية!"

أغمضت عينيها واستدعت كل هدووووء

"أي زواج تتحدث عنه هشام ، ألا تلاحظ أن لدينا حالة وفاة !!"

اقترب مبتسماً " بالطبع حبيبتي ولكن لنحدد موعد ليس شرطاً ان يكون قريب "

"لن يكون هناك أي موعد حتى يمر عام على رحيله ، هكذا الأصول يا .....هشام "

"عام يا سامية عام كامل !! كيف سأتحمل "

نظرت له بالتواء شفاه

" ستتحمل أعلم أنك ستفعل "

ثم استطردت "هيا بنا إلى البيت "

******

أنت خارج الحسابات

أنت طير متأخر عن السرب

أنت نسمة شاردة ضلت وجهتها

أنت ....لا شيء

نجلاء تهادن عادل

تمرر الأيام

ترعى الصغيرة

تجالس والدي الراحل

تذهب لزيارة أسرتها

ما جدّ عليها هو علاقتها بعاشور وفادية

علاقة مغلفة بنكهة الود والحنين

تذهب لزيارتهم على فترات ،يحبون أميرة الصغيرة

ويرون بها الراحل حسين

وتجد عندهم بعض الهدوء بعيداً عن سامية بالطبع

دقت على الباب فتح لها شاب غريب وسمعت

صوت العمة فادية

"من يا سمير ؟"

نظر لها مليّا "لا أدري يا خالتي"

اقتربت فادية وما إن رأت نجلاء حتى فتحت

الباب على مصراعيه

"نجلاء ... تفضلي يا حبيبتي "

وحملت الصغيرة مباشرة

"ألا تعلم نجلاء يا سمير !!

ألا تعلم صغيرتها ،أميرة حسين برهام "

ولم تقو على قول "أرملة الراحل حسين "

نظر لها سمير

" عفواً لم أكن أعرفك حقاً"

انتابها الخجل

"لا عليك "

دعتها فادية للدخول

"ادخلي يا ابنتي عمك عاشور سيسعد بوجودكم "

تحلقوا جميعاً حوله ، خاطبتها فادية

"هذا سمير ابن اختي يا نجلاء ، يعمل بالسويس ويأتي هنا بالأجازات "

أومأت برأسها "مرحبا بك "

تبادلوا أطراف الحديث واللعب مع الصغيرة حتى استئذنت نجلاء منهم بالرحيل

"سوف تقلق خالتي فاطمة علي الرحيل "

أوصلتها فادية إلى الباب ولم تغفل عن نظرات سمير المعلقة بها منذ حضورها حتى رحلت

... لم تغفل لكنها تغافلت تماماً.

"صغيرة نجلاء يا خالتي ! "

تظاهرت بإعداد كوبين من الشاي مولية ظهرها له

"نعم صغيرة "

صمت لبرهة ثم أضاف "وجميلة "

صمتت نفس البرهة ثم أردفت "نعم جميلة "

"وأرملة حسين برهام ابن أخي عمك عاشور يا سمير"

لم يرد في حينها احتسى الشاي ثم رحل

وهي طافت بها كل الظنون طوال الليل

هل فكر سمير بها ؟

ماذا سيحدث بالعائلة؟

بالطبع نجلاء ستتزوج ولكن من سيكون ؟

هل الأفضل أن يكون من داخل العائلة أم من خارجها؟

وهل هذا وقت مناسب لهذا الحديث ؟

استغفرت ربها وقامت لصلاة الفجر تدعو الله أن تمر الأمور بسلام

***

أما هو سمير عبدالباقي فبات ليلته يفكر بالمستحيل

تلك الصغيرة الضعيفة .....الجميلة بشجن

تشبهها بابنتها ، نجلها ، حدادها الهاديء

طرد الفكرة من عقله مرات عدة لكنه عند

الصباح وجد قدماه تقوداه إلى بيت الحاج برهام

والسبب سهل، السؤال عليهم كونه كان زميل

دراسة لحسين

دق الباب ودخل وسلّم

رحبت به فاطمة

ودلف إلى حجرة برهام الذي أقعده المرض

لكنه بكل هذا عيناه تبحث عنها

وقلبه يخبره أنها ستظهر

ولم يكذب هذا القلب

ظهرت بعد قليل بنفس التشبث بالصغيرة

ونفس الودّ الهاديء

ألقت السلام وتعجبت من وجوده الذي بدا

مرحباً به جداً

لكونه كما فهمت من فاطمة كان زميلا للراحل .

كانت غافلة عن نظرات الإعجاب المهذب التي

يرمقها بها

تبادله أطراف الحديث إذا وُجه إليها الحوار ثم تصمت

وأخيراً رحل مخلفاً خوفاً جديداً لدى فاطمة من أحدهم الذي قد يحل محل ابنها

****

هشام يزورهم اليوم

فقدت بهجة التأنق ولهفة البدايات

هناك بآخر الممر ،ممر حياتها .. رأت أخرى لا تشبهها

رأت حياة ما تخيلتها يوماً

ورأت حيرة تغرق بها كلما تلقاه

رأت سامية ولكن بضعف لطالما كرهته بالجميع

عاندت نفسها والواقع والخيال وتأنقت مع احترام الحداد

تنورة سوداء تعلوها بلوزة داكنة اللون وحجاب بلونٍ أفتح.

وكحلها المميز ونعلاً أنثوياً عكس الآخر خاص العمل .

وقررت أن تكتفي اليوم بالسماع علها تستشف منه صدقاً أو كذباً

إلقاء سلام وترحاب من الأم ثم جلسة بمفردهما

كانت اليوم مختلفة صمتها ليس خجلاً

نظرت له مليّاً وكأنها ستتكشف ما يدور بعقله بمجرد النظر

وأخيرا نطقت

"كيف حالك هشام ؟"

ابتسم بمداعبة "كم أوحشتني هشام تلك التي تخرج من بين شفتيك "

لكنها لم تخفض نظرها نجلاً بل ظلت مدققة النظرإليه

"هل تعلم كم عمري هشام ؟"

تعجب من قولها "ماذا !"

"أسألك هل تعلم عدد سنوات عمري ؟"

تنحنح محاولاً الإمساك بخيوط لهذا الحديث

"لا أعلم على وجه التحديد لكنك أصغر من عادل ببضع سنوات وأظن أن ..."

قاطعته "ثلاثون عاماً

لماذا لم تفكر بفتاة صغيرة ؟"

"ماذا دهاكِ اليوم سامية أحببتكِ أنتِ ورغبت بالزواج منكِ"

لاحقته سريعاً بذات الهدوء

" وماذا إذا ظهرت أمامك شابة جميلة هل أضمن أنك ستظل على ولاءك ؟"

حاول ادعاء الهدوء " الفتيات حولي كثيرات لو كنت أرغب بإحداهن لما أتيتك "

نظرت له نظرة فاحصة وصمتت قليلاً ثم ألقت بحجراً بقاع بئرهما السحيق

" لكن ليست إحداهن سامية ابنة الحاج عاشور أليس كذلك ؟"

تعجب من الكلام دون أن يساوره أي شك فاقترب منها محاولاً تغيير دفة الحديث

"بالطبع حبيبتي ليس هناك من هي مثلك ، من ملكت قلبي "

الوجه صادق والحديث مقنع لكن القلب يرتجف بالداخل

وتركت للزمن فرصة أخذ القرار عنها كونها جبنت هذه المرة .

******

أنا ماذا أريد !

ظلت ليلة كاملة تحادث نفسها

ماذا تريدين يا نجلاء ؟

ما هي حياتك ؟

"حسين لماذا تركتني!"

صباحاً توجهت إلى بيت أبيها وجدت أمها تبتسم بتردد

"خيراً يا أمي !"

تلعثمت الأم كثيرا ثم قالت

"هناك موضوع سيفاتحك به أبوك "

نظر إليها إسماعيل بغضب

"أخبرتك أنه ليس الوقت المناسب "

"ماذا هناك يا أبي أقلقتني "

تنهد الرجل " لا يوجد شيء يا ابنتي لا تقلقي "

ألحت عليه "أخبرني يا أبي هكذا يزيد القلق "

"لقد تقدم خاطب لكِ" وقذفتها الأم في وجهها

مادت بها الأرض وظنت أن الزمن قد توقف لبرهة

"خاطب ! لمن ؟"

"إنه المهندس المسئول عن مزرعة الحاج فاروق "

صرخت في وجههم

" لا أريد أن أعرف من يكون

ماذا أصابكم ! بالكاد أكملت عدتي ! "

أخفض اسماعيل نظره " كان لابد أن أخبرك حتى أرد عليه"

"حسناً أبي ،أخبره أني متزوجة ...حسين معي بكل لحظة "

وتركتهم وخرجت مسرعة تتسابق العبرات على وجهها .

***

بذات اللحظة كان سمير يخبر خالته برغبته بالزواج منها

نجلاء

احتدت عليه الخالة

كيف ستخبر العائلة

عادل سوف يحرق الأخضر واليابس

"نجلاء ستتزوج آجلاً أم عاجلاً خالتي، وأن تتزوج قريب منكم لهو

أفضل للجميع وأفضل لابنتها "

جاهدت الدموع

" أنت لا تعلم مقدار حسين بقلوبنا ،لم يكمل عامه الأول بعد ،لقد أجلّت زفاف ابنتي ، هل تتزوج أرملته قبلها ! أيعقل هذا !"

"لم أقل أن نتم الزفاف خالتي ، طلبت فقط أن تفاتحيهم ويكونوا على دراية بالأمر "

تنهدت بحزن "طلب صعب يا ولدي أظن أنني لن أحققه "

"حسناً عديني أن يظل الأمرببالك حالما واتتك الفرصة فلتقدمي الموضوع لهم "

"أعدك يا ولدي "

***

ينفث الثعبان سمومه عند العض

تنزل من أنيابه

لا ينفد مخزون السم لديه

لكن الضحية تترنح وقت وصول السم إلى القلب

قارب العام على الاكتمال

كل يوم يصرف اسماعيل خاطباً آخر

وكل يوم يتشبث بها سمير بينه وبين نفسه

وكل يوم تحيا هي مع حسين حياة وهمية بخيالها

بعشية يوم أمسكت كف صغيرتها التي تعلمت

المشي حديثاً متجهةً إلى بيت العم

طرقت الباب لم يجب أحد

تعجبت كيف خلا البيت من أحد حتى الخدم

دارت حول البيت متجهة إلى الباب الخلفي

وجدته موصد كذلك

تلتفت لتعود عندما سمعت صوتا كفحيح الثعبان

قرب أذنها تماما

وجسد مقترب من جسدها قرباً مقززاً

" ماذا تفعل هنا أيها الغزال الجميل ؟"

بكل هلع وصدمة صرخت "هشام ! "

الفصل العاشر

قالوا: لَا يُضير الشاه سلخها بعد ذبحها.

هل صدقوا؟

كالسجين بمحبسه لا يدري عن الخارج شيئا وجد نفسه بمواجهة الذئاب .

هي بدور الفريسة

وهي التي لم تتقن يوما أي دور

بل هي لم تملك رفاهية اختيار الدور

هل عليها أن تصرخ ، أن تركل ، أن تركض ، أن تسُب

تصلبت تماماً وفقدت أي قدرة على النطق بعد صرختها باسمه "هشام"

أربعة أحرف لم تتخيل يوماً أن تمثل لها أي رعب

تحركت إلى الخلف بنظرات كلها هلع

وكان هو مناظراً لشتى المشاعرالتي طفت على

وجهها

"لا تخافي يا صغيرة...

أردتك أن تعلمي أني بمكان حسين عند حاجتك

إلى أي شيء

..... أي شيء أتفهمين "

وختمها غامزاً بعينه .

أسوأ فريسة تلك التي لا تقدر حجم مفترسها ولا تعلم

دوافعه

ونجلاء ساذجة باقتدار لم تعي هذا التحرش اللفظي

كل ما استطاعته أن التفتت تحاول البعد عن

حصاره الجسدي

تعود إلى بيتها سريعا لكي تختفي بين جدرانه

لكن القدر أراد لهذا المشهد نهاية أخرى

بظهور شخص في الكادر شخص ما كان يجب أن

يأتي الآن

"سامية "

"ماذا يحدث هنا ؟"

وكانت زاعقة منها

تبادلت النظرات بين هشام ونجلاء نظرات كلها اتهام

والصغيرة ممسكة بوالدتها بهلع باكي

حاولت نجلاء أن تجيب تدافع لكن كل ما صدر منها كان تعتعة

أنا .... ل...ا....هو....صد....قيـ...ني

أما هو ذلك الوقح بثقة أجاب بالطامة الكبرى

"هي من كانت تتقرب مني سامية "

كلتاهما شهقت بفزع

الأولى خشية أن تصدق سامية الكذبة

والثانية ... الثانية لم تتخيل أنه وضيع لهذا الحد

نطقت الصغيرة بتيه

"أقسم بالله لم يحدث سامية

أقسم بحاة ابنتي أغلى ما أملك بالحياة "

نظرت لها بغِلّ تلك التي سرقت قلب حسين والآن

ذلك الصفيق يغازلها هي تعلم علم اليقين أنه كاذب

لكنها أفرغت بها الغِل المكبوت

" وابنتك هذه ألا تقتضي منك أن تكفي عن

الدوران بين البيوت وحولها

أن تكوني سيدة محترمة لأجلها "

ناظرتهم بعدم تصديق ،هذا الكلام لا يوجه إليها

لابد أنهم يمزحون

أو هو كابوس ربما

" أقسم برحمة حسين ما فعلت شيئاً"

ونطقتها بضعف ويأس وحزن

لكن الأخرى ثارت بوجهها

" اذهبي إلى بيتك،وأنا سأكون رحيمة بك ولن أخبرأحداً بما حدث "

احتضنت صغيرتها وهرولت ، تعثرت ، خطت

لا فارق فبعد جرح الكرامة ليس مهماً إلى أين الطريق .

استدارت الأخرى إليه بعيون تقدح شرراً

وصرخت بوجهه

"هل تراني طفلة أيها الوضيع "

ظهرت بعض الصدمة على وجهه

"هل جننتِ أم أنك تخاطبين أحدا آخر ؟"

" أخاطبك أنت يا ساحر الفتيات الأكبر "

اقترب منها يحاول المهادنة مصوراٍ له غروره أنه قد يستمر بالكذب

" سامية حبيبتي ؛هل صدقت تلك الحقيرة ؟"

بصقت على وجهه

فقد طفح الكيل بها

"أي حقيرة تتحدث عنها أيها الحقير ، أعلم يقيناً أنها بريئة "

أمسك رسغها بحدة وجذبها بعنف وحاول أن يخفض صوته

"هل أصابك مسّ من الجان ! "

تخلصت من قبضته بعسر

"بل أنت من جننت حين ظننت بسامية عاشور الهوان

هل تخيلتني بتلك السذاجة حتى لا أعلم عن أفعالك شيئا! "

فرك وجهه بغضب وبدأ التراجع فلا مجال للخسارة

" أي أفعال تتحدثين عنها "

ناظرته باحتقار شديد

" عن سهام ! ألا تعرفها "

حاول مداراة الصدمة

" سهام من ؟"

بدا كأنها ستنفث نيراناً

" سهام التي ستشتري لها شقة أيها ال *** "

ارتج إلى الخلف

" أم أخبرك عن مروة ! مروة التي ستبني لها بيتاً

قرب البحر بالعجمي "

مسح العرق الغزير من وجهه ورأسه وعمل سريعاً

على اختلاق كذبة أي كذبة

وقبل أن يفتح فمه لاحقته بالكلام

" والآن أرملة أخي أيها ال .."

وكانت تمد كفها لتصفعه على وجهه

حينما أمسك يدها بشدة أكثر

" تمسكي بعقلك قليلاً سامية "

" تعلمين جيداً أني فرصتك الأخيرة "

أخفضت يدها ونظرت له غير مصدقة لما يتلفظ به

الأفعى تلتف حول فريستها ثم تعصرها وهو واصل حصاره

"سامية العانس ، والتي خطبت لأحدهم وتركها لعيب فيها ، من سيرتبط بها بعدها "

اندفعت قائلة

"أي عيب يا مخبول "

أشعل تبغه ووضع يده بجيب بنطاله وطالعها بثقة

" يكفي أن أخبر إحدى العجائز أني اكتشفت عيبا يمس الشرف

،سأترك لخيالك حرية إكمال الحكاية "

وابتسم بانتصار

بمنتصف الحكاية قد يتوقف السرد بمفترق حبكة

انتصار الشرير وإظهار أنيابه واعتصار الضحية ؛

أو

استفاقة الغافل ، استعادة الروح الغائبة ، وجز عنق الأفعى بنصل حاد .

وهنا توقف السرد قليلا

قليلاً فقط

قبل أن يختم بالحاسمة

" والعانس اختارت أن تبقى عانساً "

ناظرها العين بالعين ولم يرمش لها جفن

ألقى تبغه وهرسه بحذائه

"فلتتحملي وعائلتك العواقب إذاً "

وخطا راحلاً

وهي

ما بكت

ما سقطت

ما انهارت

فقد قررت استعادة دور "زهرة شب الليل " بكل جدارة .

أمامك عمراً سامية

ولا بديل عن مرور الأيام

ولو كانت على أشلاء أرواحنا .

***

الألم متجدد

الفقد جرح حي لم يغلقه الطبيب

والذكريات ليست مُسَكِّن

بل قد تصير ملحاً أجاج يكبس به أحدهم الجرح

ليلة لا تنقضي

ببيت برهام كانت هناك قنبلة جاهزة للانفجار

فادية

طوت حجابها حول وجهها وتوجهت إلى فاطمة

"كيف حالك يا أم عادل "

قابلتها الأخرى بترحاب شديد

"بخير يا أم سامية "

"وكيف حال الحاج ؟"

تنهدت فاطمة بحزن

"كما هو كلمات قليلة وصلواته وتسابيحه فقط "

وصمتتا قليلاً

ثم تحدثت فادية

"وأين نجلاء؟"

" كانت في طريقها إليكم ربما ستمر على والدتها"

أومأت برأسها ثم صمتت قليلاً

"صغيرة نجلاء يا أم عادل "

أخذت السيدة نفسا عميقاً ثم أجابت

"نعم صغيرة وحملت الهم والحزن مبكراً "

استغلت فادية الفرصة

"لابد وأنها ستتزوج حرام أن ترهن حياتها هكذا "

نظرت لها فاطمة بتعجب

" بالطبع ستتزوج ، لا يمكن أن تستمر هكذا إلى آخر العمر "

تصرح بما يرفضه قلبها ويقبله أي عقل.

طرقت فادية الحديد وهو ساخن

" الأفضل أن يكون شخصاً مقرباً وثقة حتى يحافظ على أميرة "

نظرت لها تبغي معرفة ما استبطن عنها

" ماذا هناك يا فادية ؟"

فركت كفيها وتجرعت بعض الماء ثم تحدثت

"هناك خاطب لنجلاء"

" وما الجديد منذ أكملت عدتها ينهال عليها الخطاب وهي ترفض"

تنحنحت فادية ثم أكملت

" لكن هذا الخاطب مناسب وأظنها لن تمانع "

هبت واقفة وتحدثت بحدة

" ومن هذا المناسب "

نظرت لها بخجل

"إنه سمير ابن أختي "

انفجرت بها

"كنت أعلم ، وهل دخل سمير بيتنا ليطالع زوجة صديقه "

تدخلت فادية بحسم

" تعلمين سمير جيداً يا فاطمة ،هل هذه أخلاقه ؟"

"أبلغيه برفض الطلب فليبحث له عن عروس غيرها "

اقتربت منها فادية وحاولت احتوائها

" يا فاطمة البنت بكل الأحوال ستتزوج ، الأفضل لنا أن تتزوج من نعلمه ومن نطمئن على أميرة معه "

بدا على فاطمة التفكير

" ألن تخالفي الشرع برفضه دون الرجوع إليها"

"ماذا تريدين يا فادية،أن أقنعها بالزواج بعد ولدي"

ومدعي العدل عليه أن يقف على منصة القضاء

انفجرت بالبكاء

اقتربت منها واحتضنتها

" أمر الله يا فاطمة ليس له مرد

علينا الآن أن نتصرف بحكمة ، تخبري نجلاء

وتظهري لها موافقتك "

لم تنتهي الجملة حتى وجدا من تدخل بوجه ممتقع

وجسد مرتجف

تلقي السلام بصوت مرتعد وتتجه صوب شقتها

استوقفتها فاطمة

"ما بك يا ابنتي ؟ "

بكيان مهشم أجابت

"لا شيء لا شيء أشعر بالتعب "

أجابت فادية

"فلتنامي قليلا يا حبيبتي يبدو عليك التعب بالفعل "

أومأت برأسها وصعدت

***

أنت الكبير

بالقدر بالاختيار لا فارق

زحفت نحوها أم هرولت هي إليك

ليس مهماً

المهم أن توفي مكانك حقه

حتى لا تبدو قزما بثوب عملاق

أو

صعلوكاً بمقعد أمير

دخل على والدته وهي تتحدث مع زوجة العم

"كيف حالك زوجة عمي ؟"

اغتصبت السيدة ابتسامة أهدتها إياه

"بخير يا أبو هند "

"وكيف حال عمي؟ "

أرادت أن تشعره بتأنيب الضمير قليلاً

"فلتتفقده من وقت لآخر يا ولدي ، لم يعد له أحد بعد حسين "

زفر بضيق "سوف أفعل إن شاء الله "

رحلت فادية وبقي هو ووالدته وعرض زواج مرحب به عليها أن تخبره بشأنه

"هناك خاطب لنجلاء"

كان يحتسي الشاي فاختنقت أنفاسه ببعض القطرات

"ألن ننتهي من هذه السيرة البهية "

ناظرته أمه بعتب

"البنت صغيرة يا عادل وجميلة لن تترهبن من بعده"

صدم الكوب فانسكب على الأرض

" بل تترهبن وتعتكف بمنزلها ، هل كانت تحلم بمثل هذا الزواج حتى تستبدله "

أجابته بغضب " وبأي شرع هذا أيها الكبير !"

صمت قليلاً ثم بابتسامة سمجة أجاب

"وما المطلوب مني الآن ؟"

نطقت بعنف " أن تتصرف ككبير ، تجلس معه ، تحادث نجلاء ،تتولى الأمر "

راح وجاء ببهو منزلهم وهو يزمجر ويكاد يدك الأرض تحت أقدامه غيظاً

" يا الله الهمني الصبر والسكينة ، كيف أوافق على تلك زيجة يا أمي ، أن أحمل بيدي أملاكنا وأموالنا إلى رجل غريب "

تمسكت بخيوط واهية من الهدوء

"ولنحافظ على أموالنا نكتب على الفتاة أن تبقى وحيدة للأبد ، هل هذا هو الحل ؟"

والمدعي للسيطرة على الأمور نطق بإحدى تراهاته

"قطعاً لا هناك حل آخر"

"فلتأتني به فوراً "

" إذا كانت ولابد ستتزوج فلأتزوجها أنا "

طمع ، مال ، غيرة ، تحكم ،رغبة ......الخ

ليس مهماً السبب

فأنت أشعلت ناراً لن يخمدها سواك

"ماذا تقول يا عادل ! تتزوج أرملة أخيك ! "

"لست الأول ولن أكون الأخير ، أحافظ على ابنة أخي وعلى أموالنا "

"ومن قال أنها ستوافق على هذا العرض "

"هي مجبرة على الموافقة ؛إما هذا أو تنسى أن لها أموال لدينا وتتحمل ابنتها بمفردها "

"وهل يصح هذا يا ولدي "

"إنها ورقة ضغط يا أمي لنجبرها على الموافقة "

"وسلوى ؟ "

"ماذا بها ! لن أقصرمعها بشيء أبداً "

كان الكلام كثيراً على عقلها فصمتت قليلا تدير الأمر برأسها

"هذا عرضي الأول والأخير يا أمي "

ألقى عبارته ورحل

ليس شيطاناً

ليس ملاكاً

هو خليط من هذا وذاك

لكنه يسير على درب صناعة الشيطان بنجاح

بعدما رسب بدوره ككبيرللعائلة

*****

الفقد موجع

ولا نستشعر خسارته فوراً

بل كل يوم يمر بعده تظهر خسارتك

كل يوم تستشعر ألماً جديداً

كل يوم تخسر جزئا حيا من روحك

كل يوم تظن أنه الأخير بالألم

لكنه لا يكون سوى مقدمة

مقدمة

لألم قادم

دلفت إلى شقتها وهي ترتعد

أدخلت الصغيرة فراشها ودثرتها بعناية

تفقدت نوافذ البيت وأوصدتها جميعها ومعها أقفال الباب

ثم فوراً توجهت إلى دورة المياه

أرادت أن تمحو أثر أنفاسه من جسدها

تحممت وارتدت ثيابها

فتحت خزانة حسين

أخرجت قميصه احتضنته وتشممته بعمق

ذلك الغائب بالجسد الحاضر بالقلب والعين

فتحت التفاز وجدت فيلماً كلاسيكياً كانا يشاهدانه سوياً

أشعلت المبخرة بخوره المفضل

ذهبت إلى المطبخ وأعدت مخفوق الفراولة بالموز

استرخت بالسرير

عند الخسارة والفقد ؛قد يليق بك الهروب

توسدت قميصه بدلاً عن حضنه

وكان بخوره ومخفوقه مشاركين لها بهذه الأمسية

أمسية مميزة

لا تدري هي أنها نهاية يتبعها بداية أخرى

بداية لن تختار بها شيئا

كما لم تختر في الماضي

وبدا أن الحاضر تركها ورحل

وراحت في سبات عميق .

*****

استيقظت صباحاً بنقرٍ حادٍ على باباها

كانت لا تزال ممسكة بقميص حسين

ورائحة البخور تعبق الأجواء

وكأنها عادت من رحلة عبر الزمن

قامت بخطا بطيئة وفتحت الباب

لتجد أمامها والدها

"أبي "

وكانت متعجبة

تنحت من أمام الباب

"تفضل يا أبي "

كان متجهماً بصمت

"هل الجميع بخير يا أبي "

ألقى نفسه على أقرب مقعد

وكأنه صمت دهراً ثم نطق

" جهزي حقيبتك أنت والصغيرة سوف تنتقلون إلى بيتنا "

"ماذا!"

زفر بقلة حيله

"كما سمعت نجلاء ، هيا "

جلست أمامه وأمسكت كفه

" ماذا هناك أبي؟ ماذا حدث ؟ هل أمي مريضة؟"

وانخرطت في بكاء شديد

ربت على كفها وحاول استحضار بعض اللطف

" أمك بخير ، لكني .... لكني ارتأيت أنه لا يصح مكوثك هنا وحدك بعد الآن وبالبيت رجل غريب "

الصغيرة لابد أن تكبر وأن تكبر قبل الأوان أيضاً

" أي رجلٍ يا أبي ؟"

صرخ بوجهها "عادل"

زوت ما بين حاجبيها وبدا كل شيء غامضاً

"عادل ليس غريباً انه شقيق حسين وعم أميرة و.."

قاطعها "ويرغب بالزواج بك "

ارتج عليها ففقدت كل نطق

وبدأ الألم

قامت كمن أمامه مهمة بوقت محدد

جمعت ثيابها وثياب صغيرتها

ووضعت قميصاً لحسين

أغلقت الحقيبة

وشعرت أنها تغلق معها فصلاً من حياتها وتبدأ آخر

خرجت تواجه أبيها

"هيا بنا "

حمل عنها الحقيبة

وحملت هي الصغيرة

وبكل درجة من الدرج تمر ذكرى

هنا تسابقا يوماً

هنا حملها أمام الباب

هنا وهنا وهنا

صوته بأذنيها

وحديثه حي بقلبها

قطع تدافع الذكريات صوت عادل الجهوري

"إلى أين تظنين نفسك راحلة "

التفتت إليه بنصفها

وتولى والدها مهمة الإجابة

"إلى بيت أبيها يا عادل كما يجب أن يكون من البداية "

زعق بوجهه " بعد ما أخبرتك به وأخبرتني به تقول هذا !"

وكأن حلقة من الحديث مفقودة وعليها معرفتها

" حتى تستقيم الأمور وكلٌ يتخذ قراره ستبقى نجلاء ببيتي "

عاد عادل بذاكرته إلى أحداث الأمس واليوم

فانحطب جلل

صباحاً وجد اسماعيل من يزوره ببيته طالباً كوباً

من الشاي من الحاجة سعاد

ولم يكن ذلك سوى "هشام "

جالساً على الأريكة الريفية البسيطة

واضعاً قدماً على أخرى

نافثاً دخان تبغه

"سلام عليكم "

لم يهب الفتى واقفاً اكتفى بنفس الجلسة المتكبرة

"وعليكم السلام "

جلس الرجل متعجباً من الزيارة ومن أفعال هشام

"دون مقدمات اسمعني جيداً يا حاج اسماعيل ،

سوف تذهب إلى عادل برهام اليوم تخبره بعرضي

هذا "

تعجب الرجل أكثر

"أي عرض تتحدث عنه هشام "

نفث دخان تبغه ثانية ثم أكمل

" لا تتعجل يا رجل " وضحك ضحكة سخيفة

"عرضي هو التالي ، ولكوني كريماً سأجعلهم عرضين غير قابلين للرفض لا بد أن توافقوا على أحدهم "

"إما الزواج من نجلاء أو سامية "

فقد الرجل صبره

"هل جننت يا ولد ،ألست خاطباً لسامية ما الذي أتى بنجلاء هنا ؟"

هب هشام واقفاً

"تأدب وأنت تخاطبني أيها العجوز"

تحفز اسماعيل جدا "احفظ لسانك يا ولد"

"دعك من هذه التفاهات ، لقد فسخت سامية الخِطبة لظنها أني على علاقة بابنتك "

فغر الرجل فاه من الصدمة وصرخ بهشام

"ماذا تقول أيها الكاذب "

هرس هشام إحدى سجائره بغيظ وأخرج الأخرى

"أخبرتك أن تتأدب وأن تكف عن التفاهات "

دعني أُكمل

"أهل القرية يصدقون أي كلمة

وماذا عن أرملة صغيرة حسناء

سوف يصدقون على الفور"

هب الرجل يريد أن يضربه "اخرس أيها الحقير"

نفض هشام يد الرجل ووقف بابتسامة صفيقة

"صدقني أنا جئتك أولاً لمصلحتك ، أخبر عادل أن يجلس مع ابنة عمه ويقنعها أو تجلس أنت مع ابنتك أو البديل سيكون ...."

وتحفز الرجل

"سيكون حديثاً يدور بالقرية عن نساء عائلة محفوظ ، العانس التي تقضي وقتها مع شباب الصوبة الزراعية .....والأرملة التي أسلمت نفسها لأحدهم لتحارب الوحدة "

وقهقه بغضب وحقد دفين

"لن أخرج خاسراً أبداً "

مادت الأرض بإسماعيل ولا يدري لم تَذَكّر خوف زوجته من هذه الزيجة من البداية.

ومهما طاف بك من ظنون

تأتي الضربة القاصمة من حيث لا تدري

***

لم يكد يرحل الفاسد حتى وجد إسماعيل ضيفاً آخر

"صباح الخير حاج اسماعيل "

وكان سمير بابتسامته الودودة وأدبه الجم

لكنه جاء بغير وقته أبداً

كان يثرثر كثيراً عن عمل وبيت زوجية يعده

وحديث كثير لم يسمع منه اسماعيل حرفاً

كان بغيبوبة عقلية وهو محدق بعينيه

"أهلا بك يا ولدي "

" اسمح لي عمي أن أطلب يد نجلاء للزواج

سوف أرعى الصغيرة بصدق وستكون نجلاء معي

براحة تامة "

يا الله لماذا لم تتقدم قليلا

لماذا لم يتأخر الآخر

لماذا يحدث هذا

وجد نفسه مضطراً للرفض دون أسباب وبسره يردد

"أمامك الكثيرمن الشقاء يا ابنتي "

" كما تعلم يا ولدي نجلاء كانت متعلقة بحسين كثيراً حتى الآن لم تنسى ولازالت رافضة للزواج "

ثم ارتشف بعض رشفات الماء

"أعدك أن أعرض عليها الأمر حالما أراها مستعدة"

صرفه برفق وتوجه فوراً إلى عادل دون أن يخبر سعاد بشيء

إلى مكتبه بالمصنع كانت الوجهة

قابل سامية على الباب متجهة إلى الداخل كذلك

"حسناً أنك هنا يا ابنتي "

تعجبت سامية من حديثه ودلفت إلى الداخل وهو خلفها

دون ديباجات معتادة من تحية وغيرها

فوراً ألقى عليهم إسماعيل ما بجعبته

صرخت سامية فزعاً

أما عادل فبدا أنه سيقتل أحدهم اليوم

قصت عليه سامية كل ما حدث

"الحقير الوضيع كيف يجرؤ "

وكان يزأر كأسد

"عادل الأمر منتهي معي لن أتزوجه ولو على رقبتي"

التفت إليها بغضب

"ماذا تقولين سامية ، هذا أمرمفروغ منه وهذا الهشام سيُعامل معاملة الكلاب حتى يتمنى الموت "

ثم التفت إلى إسماعيل بغضب

"أما أنت حاج اسماعيل فلديك عرض منتهي كذلك حتى نفُض جمع الخاطبين الملتف حول صغيرتك "

تحفز الرجل "أي عرض يا ولدي "

"حفاظاً على سمعتها من القيل والقال وحفاظاً على ابنة أخي ستتزوجني نجلاء "

اندهشت سامية وصمت الرجل

"ماذا تعني بعرض منتهي "

نظر له نظرة مباشرة وتحدث

"أي أنه عرض يجب الموافقة عليه كما ترى سمعة نجلاء على المحك "

بادله الرجل نفس النظرة الواثقة

"وإذا لم توافق "

فرك عادل شعره ورفع أحد حاجبيه بضيق

"فلتنسى إذا أي أموال أو حقوق لها أو لابنتها ،

ولتنسى ابنتها كذلك "

"ولا تنسى أن عقد الزواج لم يوثق حتى الآن "

فقد الرجل النطق

فما يحدث كثير

كثير عليه

وكثير على صغيرته

توجه إليها فوراً وحدث ما حدث

***

عاد عادل من شروده

على صوت أمه

"ماذا هناك عادل؟"

نظر إليها مدعياً الهدوء

"لا شيء أمي "

"حسنا عمي إسماعيل كما تحب سأزوركم غداً "

فاطمة تناظرها بشفقة

سامية تناظرها بنفس الغِل أضيفت إليه شماتة

عادل يطالعها بنظرة غريبة عليها

وهي تائهة بجر ليس له قرار

بمنزل الأب قص عليها وأمها تفاصيل ما حدث

واكتملت قطع الأحجية

وبدت تائهة ولكن ليس ببحر بل بقاع بئر قذفها

أحدهم به

****

عند النوازل

استمسك بنفسك

استعصم بقلبك

تحلى بالصبر ما استطعت إلى ذلك سبيلاً

قريباً ستأتي النجاة

وبليلة كالحة السواد

صمت تام إلا من نقيق الضفادع

توارات النجوم خلف الحجب كأنها تشاركها بمهمتها

متسربلة بسوادها وخوفها وقوتها الواهنة

واضعة الصغيرة بين ثوبها ولحمها برباط قماشي

داعية الله أن تظل على نومها

مرتدية قميص حسين أسفل الثوب

محملة بدعواتها إلى الله أن يسترها

بضع جنيهات ومصاغها الذهبي

وسيراً على الأقدام بدأت رحلتها

حتى وصلت إلى موقف الحافلات بقرية مجاورة

واستقلت الحافلة إلى وجهة غير معلومة

إلى غد لا تعلم عنه شيئاً

إلى نجلاء أخرى ما تعرفها

إلى فصل جديد بحياتها كتبه القدر اليوم

الفصل الحادي عشر

فصل جديد

أخط بيدي فصل جديد

هل أملك أنا حرية اختيار الشخصيات

رسم الحبكة

كتابة السرد كما يحلو لي

أن أُنَصِّبَ من أشاء بدور البطولة

أن أملك القدرة على كتابة الختام

أم أن يدي الصغيرة لن تقوى سوى على كتابة العنوان

وسأظل كما كنت كومبارس صامت

تجاذبني حبكات وشخصيات شريرة وقاسية وحالمة

وأنا فقط منقادة خلفهم

هل بإمكان يدي أنا وحدي الآن أن تنحي الماضي كله جانباَ

والبدء بصفحة بيضاء

***

متكومة داخل مقعد بإحدى السيارات ذات الكابينة الخلفية

محتضنة نفسها بارتجاف طفيف

الأفكار تتطاحن بعقلها البريء

"ماذا أذنبت يا نجلاء حتى تُلاقي هذا المصير !"

لم تسأل السائق عن الوجهة

اندست في العربة فقط

بعدما تحركت علمت أنه متوجه إلى موقف حافلات آخر

يبعد عن قريتها كيلومترات

من هناك استقلت حافلة كبيرة إلى المنشية ومنها سيارة أجرة إلى تلك المنطقة التي اصطحبها حسين إليها يوماَ

"المكس"

هل أحكمت حبكتها الآن وفي طريقها للسرد ؟

لا

هذا ارتجال ، لكنه ارتجال مضطرة إليه

توقف السائق وبقيت هي قليلاً ، لا تدري هل تترجل أم تعود معه من حيث أتت !

قدماها مرتجفتان

لكن الفصل الجديد وجد من يخط خط بدايته

بكاء الصغيرة

التفاتة السائق إليها ، ونظرة بها شك

"وصلنا يا فتاة ألن تترجلي ؟"

قدم تتقدم وأخرى تبغي التأخر

رائحة البحر محملة باليود مع بعض النسمات

وخطت أول خطوة تجاه ذلك المكان الذي ابتاع

لها منه المثلجات .

يبدو أن رحالك حطت هنا نجلاء وستبدأين بسرد

روايتك بنفسك .

عينان سكنهما الهلع تطوفان بأرجاء الساحة

تتلفت حولها كل بضع ثوان

زحام ما اعتادته يوماً

عيون خيل إليها أنها جميعها تحدق بها تعلم سرها

اختلاط روائح وأجساد وأنفاس

وبدأ الشعور بالاختناق

انسلت من الزحام بأعجوبة وسألت على متجر

المثلجات

أشار أحدهم إلى طريق يمتد يميناً

قرصة بالمعدة أنبأتها أنها لم تأكل منذ أمس

بالصباح

أخرجت بعض جنيهات

ظنت أن الجميع متربص بما تحمله من أموال

ابتاعت ما يسد الجوع لها وللصغيرة

ثم بدأت المشي

إلى أين نجلاء !

ماذا ستفعلين بمتجر المثلجات؟

دلفت إلى الداخل وجدت نفسه الوجه الأشهب

"السلام عليكم"

التفاتة ثم نظرة تعالي ولم يجب

"أريد مثلجات فانيليا "

وخرجت منها بصوت مرتعد

محتضنة الصغيرة والحقيبة بهلع فطري

"ما اسمك يا حلوة ؟"

فاجئها الصوت القادم من الخلف

انتفض كل ما بها

صوت رخيم بدفء وبحة طفيفة

كان عجوزاً وجه أحمر مشرب بحمرة

جسد مكتنز بعض الشيء، طول متوسط

يرتدي عوينات

ويضع على رأسه تلك القبعة الملتفة من الجانب

(بيريه)

ويداعب أميرة الصغيرة

مداعبة لطيفة من عجوز بعمر الأب إلى صغيرتها

لكنها ناظرته برعب

تلمس كفوف يديها الصغيرة

"ما اسمها ؟"

ابتلعت ريقها وبدا كأنها تستحضر الاسم من

غياهب النسيان

"أميرة "

بابتسامة كلها ود أجاب "وهي أميرة "

التفت إلى الصبي على نافذة الشراء

" طلبي المعتاد يا علي "

كانت نجلاء تتفحصه ، يوزع الابتسامات ويحاكي الجميع بمودة

عندما وجدت يدا تقطع مجال بصرها

"الفانيليا"

نظرت إليه بشرود "ماذا !"

"الفانيليا يا بسكويتة " وغمز بعينه

حدقت به بغضب

عندما وجدت الرجل يزجره بعينه ويضيف

"كف عن مزاحك يا علي ، الفتاة لا تعرفك "

أضاف بضحك " فلنتعرف إذاً "

وقبل أن تُجيب سمعت صوت زاعق من هذا الأشهب

"علي ، التفت إلى عملك "

"هل يعجبك هذا يا بسكويته ! "

وقذف عبارته وهو يضحك متحركاً تجاه ثلاجة المثلجات

لكزه الرجل في كتفه

"توقف يا ولد "

مد يده إليه بوعائين من المثلجات "طلبك يا سيد محفوظ "

قبل أن يرحل نظر إلى نجلاء مرة أخرى وأخبرها بيقين

"لنا لقاء آخر يا أميرة فلن أقول وداعاً بل إلى لقاء "

ظلّ بصرها معلق به

نسمة باردة في قيظ الصيف

هكذا كان وجوده

نسمة لطيفة ومرت

لمحة من بقايا مودة كانت تتمتع بها يوماً

والآن الوحدة والهروب هما رفيقاها في رحلتها

التفتت تخرج من المتجر فاصطدمت عيناها بلافتة

" مطلوب بائعة حسنة المظهر "

لافتة معلقة على المطعم المجاور تماما لمتجر المثلجات

طراز غريب

موقد موضوع بالخارج أمامه جدارمن الطوب الحراري

ألوان المطعم بتدرجات بين القهوة ووجهها

وكل شيء يُعَدّ بالخارج أمام الزبائن

رأت شرائح من اللحم

خضروات مقطعة

عصائرطازجة

ورأت ذلك الأشهب ذو الصوت الصارخ هو من

يدير المكان

أنت لم تمسك عصا الكمان أبداً

هل آن لك أن تبدأ بوضع بعض الألحان

وجدت قدماها تقودها إليه

وفم يفتح من تلقاء نفسه

"أريد الوظيفة الشاغرة "

شملها بنظرة عامة لا تشي بسوء

"لديك وجه جميل فعلا "

وقالها كمن يُقر حقيقة لا بتغزل

"أين تقطنين ؟"

وهنا تصلبت واحتضنت الصغيرة

هل يجوزمحو الماضي بكلمة!

أن تخط هي أول كلمة بحبكتها!

أن تتعلم الآن كيف تُمسك عصا الكمان !

كانت هِرة صغيرها يكتنفها حضن رجل

والآن بات لزاماً عليها أن تخرج من الكنف.

"جئت من المنصورة لأبحث عن عمل بعد وفاة زوجي ، دوما ما كان يصحبنا إلى الأسكندرية وأردنا أن نكمل حياتنا وحياة الصغيرة بها لذلك أقوم بتنفيذ وصيته"

وبكل ثقة مدعاة سردت قصتها هي وصدقها

"حسناً أين تقطنين "

ولسان حاله مالي ومال ثرثرة النساء

زاغ بصرها قليلا" لم أجد مَسكناً بعد "

دقق النظر بها

"يا علي "

وجدت القادم بضحكة دائمة

"اذهب بها إلى السيدة فاتن أخبرها أن السيد أندرو يطلب مسكن ل ..."

ثم تدارك أنه لا يعرف اسمها

"ما اسمك ؟"

"نجلاء "

"حسناً مسكناً لنجلاء "

ثم اقترب منها "أريني هويتك "

نظرت له بريبة ثم بحرص شديد أخرجت الهوية

" أنت قاصر ! لم تكملي الواحد وعشرين بعد !"

ابتلعت ريقها برعب "بلى "

قذف إليها الهوية واستدارإلى العمل بلامبالاة

"خلفك قصة يا صغيرة "

بحظت عيناها هلعاً

" لكني لا أعبأ بها " ورفع كتفيه استسلاماً

أومأت برأسها

"اذهبي مع علي وشاهدي المَسكن وغداً تبدأين العمل "

قبل أن تتحرك أوقفها

" ماذا عن صغيرتك "

زادت من احتضانها للصغيرة

"صغيرتي معي لن تتركني ولن أقصر بالعمل "

وكانت حاسمة

ولا يدري لم وافقها

خطت خارج المطعم فوجدت صوتاً عالياً

"لمياء ، هل تجيدين إعداد المخفوق ؟"

غرق عليّ في موجة ضحك

"نجلاء يا سيد أندرو "

أخفض صوته

" ستكونين لمياء وشيماء وكل أاء تخطر على بالك "

وابتسمت رغماً عنها

"نعم أستطيع إعداد المخفوق "

واجتاحتها ذكرى المخفوق اليومي الذي كانت تعده لمالك القلب

أنقذها من تدافع الذكريات صوت عليّ

"هيا يا بسكويتة "

هي ليست خبيرة بالبشر لكنها لم تر بعليّ أي شر

شارع طوله عدة أمتار

يُقطع في بعض دقائق

قص عليها خلالهم العديد من القصص

ثرثرة ثرثرة كاد أن يصيبها الصداع

ختمها بمزحة أخرى من كلامه الذي لا تعرف

جده من هزله

"صدقيني يا بسكويتة سوف تكرهين نفسك بالعمل

مع سيد أندرو

لكني على يقين أنك لن تتركيه "

نظرت إليه لا تدري أتصدقه أم تضحك

ثم استطرد غامزا بعينه " لن تتركيه لأنك لن تقوي

على البعاد عن حديثي "

وضحكت لأول مرة منذ زمن طويل

"ها قد وصلنا "

وجدت نفسها أمام منزل قديم الطراز ومتهالك جداً

وكأنه قرأ أفكارها

" أعلم تقولين سيسقط السقف فوق رأسك

لا لا لا

لن يحدث هذا

هل سمعت عن الرطوبة !! أم أملاح البحر يا علي

ما تقصد ؟

ما علينا

انه هواء البحر المحمل باليود هو ما أفسد المبنى "

نظرت إلى المبنى ثم عادت إليه

"لكن المبنى ليس مواجهاً للبحر مباشرة ! "

نظر إليها باندهاش

"حقا! "

" ااااه عرفت السبب ، سوف أخبرك عن قصة البيت ....."

أوقفته قبل أن يبدأ ثرثرة جديدة بإشارة من كفها

"أين السيدة فاتن ؟"

"السيدة فاتن ،، آهٍ يا علي هي اسم على مسمى "

"هل تعلمين لقد كانت تقطن هذا البيت منذ

طفولتها

وتزوجت به ثم رحل زوجها ، كان رجلا ليس

هناك مثله

السيد عزمي

هل تعلمين كان يعمل بشركة الحديد والصلب .."

أمسكت رأسها من الصداع

وحال بينه وبين استكمال الثرثرة ظهور السيدة فاتن

والتي كانت بالفعل اسم على مسمى

امرأة خمسينية ترتدي ثوباً بألوان صارخة بعض الشيء

قصير لما قبل الكاحل

تضع وشاحاَ غير محكم

وتنتعل حذاء مفتوحاً يظهر قدمها البيضاء

"صباح الحليب بالقشدة يا فاتنة الاسكندرية "

وكزته بكتفه

"أخبرتك أن تتأدب أيها الصغير

ومن هذه المجهولة ؟"

اقترب منها مخفضاً صوته

"إنها نجلاء

ن ج ل ا ء

ليست شيماء ولا لمياء "

ضحكت نجلاء

"وماذا تريد الأخت نجلاء ؟"

أخفض صوته مجدداً كمن يفضي إليها بسر حربي

"أرسلها السيد أندرو تستأجر شقة لديك "

اقتربت منه هامسة بدورها

"ومن أين يعرفها أندرو !"

تلفت حوله يمنة ويسرة وهمس مجدداً

" لا يعرفها "

وأشار إلى فمه بأصابعه علامة أنه لن يتكلم

الفتت فاتن إليها وتفحصتها

ثم رفعت بصرها إلى أميرة

"ابنتك؟"

"بلى "

"متزوجة ؟"

"أرملة "

لوت شفتيها باستهزاء "حسناً "

" سوف أعطيك الشقة العلوية غرفة واحدة تكفيكي ؟"

تلاشت عن النظرة واللهجة التي اختلفت

"بلى غرفة واحدة كافية جداً "

صعدت معها الدرج وجدت الشقة هي السطح العلوي

غرفة واحدة ومطبخ ودورة مياه وبهو صغير جدا به منضدة وكرسيين ومنضدة أخرى عليها تلفاز

فتحت نافذة البهو لم تصدق عينها كان البحر وتغاضت عن الأثاث المتهالك

والجدران الرطبة

واكتفت بمرأى البحر

"كم الإيجار ؟"

"مائة وخمسون جنيهاً بالشهر "

"موافقة ..فقط أريد نجاراً لصنع قفل للباب والنافذة"

وجدت الصوت الثرثار يخرج مجدداً

"ليس غيره

الأسطى بدر

سوف أذهب وأحضره "

التفتت فاتن إليها

"مساءً يأتي المحامي ونمضي العقد

والآن سأرسل لك من يساعدك بتنظيف المكان "

أومأت نجلاء برأسها

همت فاتن بالرحيل حينما عادت إليها ثانية

" سوف تحكين الحكاية أليس كذلك ؟"

نظرت إليها نظرة بلهاء

"عفواً ! "

اقتربت منها وربتت على كتفها

"خلفك حكاية يا ابنتي وسوف تقصينها على مسامعي يوماً ما "

رحلت فاتن وعلي وجلست هي تتفكر بكل ماحدث

إنها بداية العزف نجلاء

بداية الفصل

السطر الأول

لن تكوني ماهرة لكنك ستتعلمين

****

إذا ما أردت أن تبدأ فصلاً جديداً بحياتك

عليك أن تغلق القديم أولاً

وإذا ما بدأت المعزوفة

فلتختر الجمهور المناسب

وهي هربت قبل أن تغلق الفصل

ووقف الراوي حائراً بسرد بدا رديء

طاف على الشخوص جميعاً

حتى يصنع لهم حبكة جديدة

منهم من أصر على العزف بطريقته الخاصة

وكانت النتيجة مزرية

قضية اختلاس

تحقيق ونيابة

المتهم هشام يحجز على ذمة التحقيق

رجاء من الوالدين لعادل

وعفو مقرون بالذل والانكسار طوال العمر

ولكنها يداك وما ذرعت فاحصد الآن

صفحة وطويت وانتهى

**

وماذا عن الحريق الذي اشتعل بالعائلة باختفاء

نجلاء

أب مصدوم لا يدري أين يذهب

أم ذاهلة لم تنطق بحرف

والقاسي

حدث ولا حرج

زعيق ،صريخ ،ثورة

اتهام للأب باخفائها

تهديد بحرمانها وابنتها من أي أموال

واسماعيل يصرخ

"أي أموال أيها الأحمق ، لا أدري أين ابنتي وأنت تحدثني عن الأموال "

" بالتأكيد هربت مع أحدهم ، لكني لن أتركها "

"اصمت أيها الوقح "

وبعضهم عند النوازل يفقد كل عقل

ومدعي السيطرة أصابه اليأس

اتهامات ووعيد بوابل من الغضب سيصبه فوق

رأسها حال رؤيتها

يده تطيح بكل ما طالته تكسيراً

وغارق في حيرة لايجد منها مخرج

***

وهناك من أجمت عن العزف منذ زمن

غير أن الواقع أبى إلا أن يلبسها ثوب العازف

السيء

أصابها ذهول

لكنه كان مصحوباً بمشاعر أخرى

ولصدمتها كان بها إعجاب

انبهار ربما

هذا ما فكرت مرارا بصنعه بخيالها فقط

وأتت أخرى وأمسكت العصا وبدأت العزف

دونها

الجميع بحالة صدمة إلاها

وكأنها انتهت من وافد كان يؤرقها منذ ظهوره

رحلت هي

ودفنت سامية برحيلها مشاعر شتى

رأت بهروبها فرصة لإغلاق ليس الفصل القديم

فقط بل الدفتر برمته

وشعرت براحة

راحة عجيبة لا تدري لها سبباً

**

وهناك أب وأم

أحدهما لم يتحمل الخبر

لا لم يكن خبراً واحداً بل أخبار

تهديد هشام

رغبة عادل بالزواج

ثم اختفاء أرملة الولد ومعها الحفيدة

فكان الانهيار

ثم الرحيل

وبصلاة الظهر كان ينادي المنادي لصلاة الجنازة

على الحاج برهام

بحياتك تغلق الصفحات تباعاً

بعضها بإرادتك التامة

وبعضها

بقوة القدر والمصير

العقبة

أنك تقف أمام كل صفحة

رافضاً أن تطويها

خوفاً

حزناً

يأساً

عجزاً

وبالأخير تُطوى

وتظل أنت تجتر الأحزان

تستدعي الماضي

وتنسى أن تطالع المستقبل القادم

****

بعالم قريب هي مسئولة مِن

وبعالم بعيد هي مسئولة عن

من كانت تحبو بخيوط الحياة ،تداخلت خيوطها

التي لم تكد تفهم معظمها

وصنعت شبكة عظيمة سقطت هي بها .

أول يوم عمل بالمطعم

أندرو هذا حاد المزاج جدا

يرفع صوته طوال اليوم على جميع العاملين

والغريب أن الزبائن يُقبلون على المطعم

فجأة تسمعه يثرثر بكلمات أجنبية

علمت من علي فيما بعد أن أصوله كندية

لكنه انتقل إلى مصر منذ سنوات

كان دورها هو إعداد العصائر

انتقت لصغيرتها موضعاً بالزاوية

أغلقته بالكرسي وأجلستها ومعها دميتها وبعض الأواني الفارغة

وكانت أميرة وديعة لا تصدر صوتاً

وكأنها تشارك نجلاء مسئوليتها بغير عمد

العصائر تعد طازجة وفورية لكل عميل

لا يوجد مخزون بالثلاجات ، هذا نمط المطعم

كانت تُعد مخفوق فراولة

عندما وجدت ما يُقذف في وجهها

كوب بلاستيكي فارغ

" هل سينتظر العميل دهراً

تنحِي جانباً سوف أصنع المخفوق "

نظرت حولها بذهول وعدم تصديق

علي منشغل بعمله لا يعيرهما انتباه وكأن شيئا لم يكن

وهي

وجهها البريء بلا شوائب منضغط تحت سطوة الحاجة

وآخر بشعر أشهب مسترسل خلف ظهره يوحي بأصول غير عربية

يلقنها درسا في صنع العصائر

ألا يعلم الأبله أنه اختصاصها

وأنها كانت تذيقه يومياً أفضل مخفوق فراولة بالموز

كتمت دموعها وصمتت تماماً

دعاها لتقديم المخفوق للعميل

ثم فجأة بابتسامة

"أحسنت لمياء "

"يبدو أنك مجنون "

لم تصرح بها بالطبع بل كتمت كل ذهول داخلها

حتى آخر اليوم

وجدت وجهاً مألوفاً يطل من باب المطعم

"هل انتهيت يا بسكويتة ؟"

ابتسمت لا إرادياً

"بلى "

سحبت صغيرتها وتوجهت إلى الخارج

عندما سمعت صوت أندرو

"أراكِ غداً نجلاء "

ابتسمت وتهكمت "صرت نجلاء حمداً لله "

ضحك علي ملء فمه

" أنت لم تعرفي أندرو بعد ، هو ألطف مما تظنين

هيا سأوصلك "

في الطريق ابتاعت طعاماً وبعض الصحون ولمبة كهرباء

أوصلها حتى البيت ورحل

وهي صعدت

أعدت طعاماً وحممت صغيرتها ونيمتها

ثم سحبت مقعداً إلى الشرفة

وجلست تطالع البحر

وتعد على أصابع اليدين من دخلوا حياتها منذ الأمس

أندرو

محفوظ

علي

فاتن

وحياة جديدة ما عاشتها يوماً

حياة تحتاجها بشدة

سمعت نقر على الباب

"من "

أتاها صوت فاتن

"افتحي يا نجلاء "

واربت الباب قليلاً

"خيراً "

" أردت أن أعطيك نسختك من العقد "

مدت يدها لتأخذها منها

"أشكرك"

نظرت لها بشك ثم أضافت

"هناك من سأل عنك اليوم "

هبط قلبها إلى قدميها

"من يكون ؟"

الفصل الثاني عشر

بعد الأسود يكون الأبيض

وبعد العتمة تأتي الضياء

وماذا عن بعد الهرب !

هل يكون الضياع !

العازف إذا لم يجد نوتته الموسيقية أمامه

قد يعتمد على الذاكرة بحفظ الألحان

وقد يلجأ إلى الارتجال

ماذا إذا كان عازف مبتديء

أو فلنقل لم يؤدِ لحناً من قبل

لن يصبح ارتجالاً قدر ما سيكون نشازاً وصريراً

يضايق الأذن

أو

ربما يحجم عن العزف تماماً ملتزما الصمت

******

قلب يرتعد هلعاً

تعتصره قبضة الخوف

يقولون عند الخوف هوى القلب إلى القدمين

لابد وأن يعتمدوا مصطلحاً جديداً

كأن يقولوا حمل فلانٌ قلبه بين يديه وبدا أنه

سينسكب أو يتفتت من ارتجاف اليدين

أو يقولون انسحب الدم من العروق، من الجوارح

، من القلب وطارإلى العقل ليرسم كل

سيناريوهات الخوف الممكنة

عبارة واحدة

جمدت الدم بعروقها بالمعنى الحرفي للكلمة

"هناك من سأل عنك اليوم "

ازدردت ريقها بكل عسر وارتجف كل حرف

يخرج من الفم

"من يكون "

شملتها فاتن بنظرة فاحصة لم يخف عليها الارتعاد

الذي تلبسها من رأسها حتى أخمص قدميها

"يبدو أنك تنتظرين زوار "

وكانت تستشف من وجهها الإجابة

تبدلت ملامح نجلاء لثقة مهزوزة، أرجحة مشاعر لابد وأن تتخطاها

" لا أعلم أحد هنا حتى أنتظر زوار "

وكزتها فاتن في كتفها بخفة لتزيحها عن الطريق ودخلت الشقة

"بل تنتظرين أو.. "

وبترت الجملة تحرك بصرها بكل اتجاه

"أو تخشين من زيارة أحدهم "

أطرقت نجلاء رأسها وصمتت بهروب، لم ترد أن تسهب بحديث مع هذه الغريبة عنها.

"كل منا له حكاية خفية يا نجلاء

خلف كل باب أشياء قد يقف القلب بمعرفتها "

وشردت قليلا بوجهة غير معلومة لنجلاء، ثم أكملت

"سوف نجلس ونحكي ونخرج المكتوم عنه، لكن ليس الآن"

نجلاء تستمع دون رد، تفكر دون صوت، وتشعر ببعض الود

استدارت فاتن عائدة من حيث أتت، ثم التفتت فجأة

"محفوظ"

زوت نجلاء بين حاجبيها تفكر، فأغنتها عناء التفكير

"السيد محفوظ هو من سأل عنك، أراد الاطمئنان عليك "

أومأت برأسها ونطقت بلا شيء، همهمة مجهولة الملامح.

التفتت فاتن مرة أخرى

"أنا دائما إلى جوارك لا تخافيني يا صغيرة "

ورحلت

رحلت مخلفة فوضى مشاعر، كلها جديد على نجلاء

أغراب يريدون القرب

ثقة لا تستطيع منحها

وحدة استشعرتها فور أن أغلقت فاتن الباب خلفها

وتيه عليها أن تعبر واديه وحدها حتى بر الأمان.

****

المسئولية

شيء يقبع على الكتف

هل اخترته أنت ؟

أحياناً يفرضه عليك الواقع

وأحياناً تختاره أنت بإرادتك الحرة

تختار أن تحمل أحدهم على كتفك

تحمله فعلاً لا قولاً

تختار أن تشارك الهم وتناصف الحمل

ترتاح لكونك تخوض معه غمار حياته بكل ما فيها

تشاطر روحك وتدفع بجوارحك إلى طريق حمايته

تتلقى معه الطعنات وتستشعرها بصدرك قبله

وتشحذ كل أسلحتك للزود عن روحه الأذى دون أي طلب

وهنيئاً لمن وجد من يحمله هكذا بكل رضا وسعادة

**

يوم تلو يوم تتابع العمل

صارت مخضرمة بالتعامل مع أندرو -هكذا أخبرها

عليّ أمس -

وكونت علاقة طيبة مع الزبائن الذين صاروا

يفضلون ما تصنعه من عصائر ومثلجات

تتغاضى عن نظرات الإعجاب التي تحيطها يومياً

تتلاشى الحوار مع فاتن قدر استطاعتها

لم يحن موعد الثرثرة بعد

وترتاب ريبة منقوصة من محفوظ

شيء صغير بالداخل يستشعر الودّ

وشيء أصغر يريد إلقاء الحمل ومشاطرته

لكنه هذا الهاجس من العودة للماضي ، فقد

الذات ربما ، اجترار الأحزان والانكسارات.

كان يخبرها يا قمري

والقمر جسم معتم يحتاج إلى ضياء

والآن باتت هي مصدر الضياء

هي مسئولة عن حماية نفسها ، إسعادها ، إنارة

دربها

مسئولة عن صغيرتها

الجميع هنا متعجب من التصاقها بابنتها

رغم حداثة سنها لكنها صادقة مع نفسها

أميرة بقلبها العمر الماضي والآت

الحياة التي تمنت أن تحياها

والأحلام التي ما حققتها

والأمل والثقة و..... الكثير

كل هذا ستحرص على غرسه بابنتها

كانت تضع لها طعاماً بركنها المنزوي بالمطعم

حين دخل السيد محفوظ بهيئته المهندمة

وابتسامته الودودة

وصوته الرصين

لكن كانت هناك من تتأبط ذراعه

سيدة تبدو بعمر يناهز الخمسين

وجهٌ عليه آثار الترف

ملامح بها أصول تركية

حجاب أبيض بسيط على الرأس

قامة متوسطة الطول

ترتدي ثوباً كلاسيكيا أزرق داكن

تعلوه سترة بيضاء والحذاء والحقيبة بذات اللون

نفس الابتسامة الودود أضف عليها التماع العين

عند رؤيتها وكأنها تعرفها

"أنت إذاً نجلاء العينين "

وما هذا الدفء الذي يشع من صوتها

" لم يكذب محفوظ حين قال أنك تدخلين القلب "

وحساب القلوب مع رب القلوب

وتلك الواقفة أمامها اختطفت دقة من القلب لا تدري لها سبباً

من قبل كانت نجلاء صريحة

يظهر ظاهرها باطنها

أما اليوم فلم تنجرف لتلك الدقة ، لم يحن موعد الثقة

نظرت إليها مليّاً وبدا كأنها ستضيف شيئاً لكنها صمتت

"طلبنا المعتاد يا عليّ "

قطع صوت محفوظ حوار الأعين

"سوف يقطعك إرباً ويطعم بك القطط نيهاهاها"

ولم يكن هذا سوى عليّ يحادث الشاردة بملامح السيدة

انتبهت على أدائه التمثيلي لضحكة شريرة

"اخفض صوتك عليّ ، السيد أندرو لا يحب هذا "

شد قامته ورفع حاجباً وأخفض الآخر

"ومن يكون السيد أندرو ليتحكم بعليّ أحمد عليّ الذي....."

وقبل أن يكمل حديثه وجد جزرة ملقاه في وجهه

" التفت إلى عملك عليّ"

قضم الجزرة مباشرة وأكمل

"بالطبع سيد أندرو بالطبع "

أعدّ طلب السيد محفوظ وزوجته التي لم ترفع وجهها عن نجلاء

" طلبكما المعتاد سيد محفوظ "

تأبطت السيدة ذراع زوجها ثانية خارجين من المتجر حين التفتت مرة أخرى إلى نجلاء

"لنا لقاء آخر أليس كذلك نجلاء "

نظرت إليها ولم تهمهم ،لم تفتح فمها ، لكن عينيها أرسلتا إشارة قبول

إشارة ما قويت هي على الإفصاح عنها

بعد المحن ، الشدائد ، ابتلاء القدر

يكون من العسير جدا ...جدا

تسليم عصا الأمان بكل يسر.

***

"سوف أفصل رأسي عن جسدي إن لم يكن هذا الرجل يحبك "

"أي خرف تهذي به علي !!"

وكان يحاورها وهما بطريقهما إلى المنزل

اعتاد مرافقتهما بطريق العودة

يأتنس بهما! ربما

يهرب بهما من واقعه! قد يكون

ويشعر بطيف من مسئولية نحو الصغيرة التي تربي صغيرة

" لا أُخرف صدقيني،نظراته تفضحه كلما مررنا به "

كان يتحدث عن صاحب ورشة إصلاح الأجهزة الكهربائية والتي تقع قبل منزل فاتن بشارعين .

رغماً عنها رفعت بصرها تجاهه

ورغماً عنها التقت عيناها به

لا بلا اصطدمت بنظرته ،والتي كانت بالفعل نظرة (حب)

أخفض كليهما عينه فوراً

وكسا وجهها حمرة طفيفة

ثم اشتعل داخلها غضب حين غمزها عليّ قائلا

"ألم أخبرك !"

"صرت سخيفاً يا عليّ ،سخيفاً جداً "

كانا قد اقتربا من المنزل حين سمعتهما فاتن

"كف عن مضايقتها يا عليّ"

التفت فور سماع الصوت كانت جالسة على كرسي جوار المنزل بركن هاديء

" أعلم أن الشمس تشرق بالصباح ، لكن أن تشرق مساء فهو شأن جديد "

كانت متوهجة بثوب أحمر وغطاء منسدل على الرأس خليط من أحمر وبرتقالي وأرجواني

صاحبة ذوق غريب باختيار الألوان

ضحكت لمغازلته

"فلتكف عن مضايقتها إذاً حتى لا تلفحك أشعة الشمس "

ضحك بصوت مرتفع وبنبرة نصفها مرح ونصفها حقيقة

"لا أستطيع أن أضايق البسكويتة ،فقط كنت أعرفها على أحد المعجبين "

ثم اقترب من فاتن خافضاً صوته

" وبنظري هو أهمهم على الإطلاق "

اشتعل الغضب داخل نجلاء

"أخبرتك أن تكف عن هذا الهراء وإلا قسماً بحياة ابنتي لن أحادثك بعد اليوم "

التفت إلى فاتن متحدثاً بجدية

" صدقيني يا شمس الليل أني لم أكن أمازحها ، الرجل بالفعل غارق بها "

جذبته فاتن من ذراعه مقربة إياه لأذنها

" أي رجل يا عليّ "

أشار ببصره إلى الورشة القريبة من المنزل

" سامي صاحب الورشة "

لطمته على ساعده

"هذا الصغير جعلته رجلاً وصاحب ورشة "

" ألم يرث الورشة عن والده إذاً هو صاحبها ، وبالقطع هو رجل ! هو بمطلع العشرين نعم لكنه رجل "

صرخت بهما أخيراً

"كفاكما ثرثرة ، من قال أني أهتم ؟ومن أخبركما أن تثرثرا بأموري هكذا ؟"

انتفضت أميرة على أثر صراخ أمها وبدأت البكاء

حملتها فاتن تهدهدها فجذبتها نجلاء من يدها

وأسرعت انحطا صوب شقتها

أما فاتن وعليّ فتبادلا النظرات ..نظرات مفادها

أن هذه النجلاء خلفها سر

وتلك التي لم تكمل عشرون ربيعاً

قفذت درجات السلم كما قفذت درجات الحياة

هذه التي أرتها الحياة أوجهها المختلفة بوقت وجيز

تلك التي أحبت وفارقت وتألمت وهربت

لم ترغب بصفحة جديدة

لم ترغب بأي حياة

أرعبتها نظرة الحب التي طالعها بها سامي

هربت من نفسها قبلهما وأغلقت الباب بوجه أي مشاعر

مشاعر ليس لها متسع بجنبات قلبها

وليس لروحها طاقة على تحملها الآن

****

أندرو حاد الطباع

لكنه طيب القلب

هي تعلم ذلك جيداً واعتادت طباعه

لكنه اليوم كان منفجراً

كل صباح بذات الموعد يوصِل السيد (أحمد صفوت) الخضروات والفواكه الطازجة إلى المطعم

تستلمها نجلاء منه

وتبدأ بإدراجها بأماكنها

اليوم أوقفها وهي تستلم منه المخزون

"كيف حالك اليوم نجلاء "

وبكل ديناميكية أجابته

"بخير سيد أحمد "

"ألا تحتاجين شيئاً؟"

رفعت بصرها إليه متعجبة

هو أربعيني ذو ملامح تبدو وسيمة ، دقيق بعمله

وهو ما يفضله سيد أندرو

لا يبتسم أبداً

وكلماته مقتضبة

فكونه يتبادل معها أطراف الحديث اليوم شيء

يدعو للعجب

"أشكرك"

ولمحت شبح ابتسامة على وجهه وهي تستدير لعملها حينما حضرها صوت أندرو

"الصغيرة ذات الملامح البريئة سعيدة بالتفاف الرجال حولها "

شهقت فزعاً وأعطته نظرة نصفها لوم ونصفها غضب

نجلاء صارت تغضب وتظهر ذلك

"ماذا تقول سيد أندرو !"

وخرجت منها لائمة بصوت مبحوح

"أقول ما أراه يوميا لمياء ،هذا يهديك نظرات إعجاب وذاك نظرات هيام وثالث واقف أمامك أخرجتيه عن صمته "

هنا تدخل أحمد بلهجة حاسمة

"لا يصح هذا سيد أندرو ! لا تؤذي الفتاة وتدعي ما لم يحدث "

شمله بنظرة سريعة لا مبالية كعادته

"حسنا أحمد صفوت اذهب إلى عملك "

"آسف نجلاء "

وقالها وهو خارجاً دون أن ينظرإليها

"أوووووف"

وكانت زفرة ضيق وحزن ويأس بدأ يتسرب

"معه حق نجلاء "

وكان عليّ موجها حديثه إليها بجدية لأول مرة

أخذت نفساً عميقاً وألقت القطعة القماشية التي كانت تنظف بها الأرفف بكل ضيق وقالت بهمس متعب

"أي حق يا عليّ؟"

" أحمد صفوت ،أربعيني ، متزوج ولديه صبي وفتاة ، لا يبتسم مطلقاً سوى لرؤياكِ، ولا يبادل أحد الحديث أبداً

والأهم لم يسأل أحدنا يوماً عن أحواله "

وجدت نفسها تخرج الكلمات من بين أسنانها بغضب مكتوم

"وما شأني ! ما شأني أنا بكل هذا ! صمته حديثه أياً كان "

استشعر العطف نحوها

"أنا أنصحك فقط نجلاء ، فلتحذري على سمعتك "

قبل أن تجيبه سمعت صرخة الصغيرة

التفتت فوجدتها ابتلعت قطعة ثلج بحلقها فآلمتها

"ماذا فعلت أميرة ! لماذا مددت يدك حبيبتي !"

أتاها صوت أندرو ثانية

"انتهينا من جمع الرجال فدخلنا بالصغيرة والبكاء "

كان ما يحدث كثيراً عليها

فخلعت مريول المطبخ ووضعته جانباً

وحملت أميرة ثم بكل هدوء استطاعته تحدثت

"اعتبرني بأجازة اليوم "

ورحلت غير عابئه بصوته الذي اخترق أذنها

عن كونها غير مسئولة ، وعن إهمالها بالعمل و.....

انخ

في الطريق مرت بورشة سامي

تجاهلت النظر

صعدت إلى شقتها احتضنت صغيرتها ونامت

مهما ادعيت القوة

هناك لحظة

تسقط روحك فيها بفخ الضعف

اليأس

ثم الحزن

***

أفاقت من نومها على سخونة شديدة محيطة بذراعها

مست جبهة أميرة وجدتها ملتهبة كالنار

لم تعرف ماذا تفعل

حملتها ونزلت بعض درجات السلم

ثم اكتشفت أنها لم ترتدي ملابسها

صعدت ثانية

ارتدت ملابسها حملت بعض النقود

خطت إلى الخارج

لا تدري أين تذهب

ظلت تتلفت يمينا ويساراً

محتضنة الصغيرة بهلع باكي

عندما وجدت فاتن تقترب عائدة من الخارج

"ماذا هناك "

لم تستطع أن تكمل حرفاً من البكاء

فقط إشارات إلى أميرة

لم تفهم فاتن شيئاً ، اقتربت تحمل الصغيرة وجدتها

كالجمرة المتقدة

"إن حرارتها مرتفعة جدا ، لابد أن نذهب

للطبيب"

تيبست أقدامها بالأرض ، ولم تقو على الحركة

كل ما دار بذهنها ، ألم جديد ، فقد جديد

جذبتها فاتن من ذراعها وحركتها مشياً لأول

الطريق حتى توقف سيارة تاكسي

حينما لمحهم سامي فاقترب مسرعاً

"ماذا هناك سيدة فاتن ؟"

على عجل أخبرته

"إنها أميرة حرارتها مرتفعة ، ونريد سيارة تاكسي

للذهاب للمشفى "

فورا انطلق ثم أخبرها وهو يتحرك

"ابقيا هنا سوف أحضر سيارتي "

عاد بالسيارة فتح الباب الخلفي لنجلاء والصغيرة وجلست فاتن جواره

أملته فاتن عنوانا لمشفى قريب وعندما وصل لم تنتظرهم نجلاء انطلقت إلى الداخل

وبصوت منهار سألت الممرضة

"ابنتي طبيب لابنتي "

لحقتها فاتن ثم سامي تحدثا مع الممرضات وحجزا موعدا مع الطبيب

فحصها الطبيب وأخبرهم بكل هدوء

"التهاب بالحلق "

وكتب بعض الأدوية ثم التفت إلى الصغيرة حاقناً

إياها بدواء خافض للحرارة

ضعيها بماء بارد فور عودتك ،والتزمي بمواعيد

الدواء

أومأت برأسها علامة الطاعة

حملها سامي عنها حتى السيارة

ورحلوا عائدين

أوصلهم حتى البيت ، لم تشكره ، لم تنظر بوجهه ،

لم توجه إليه أي حديث

قامت فاتن بهذا الدور

"شكراً يا ولدي ، أتعبناك معنا "

بأدب جم أجابها "لم يكن هناك تعب ، المهم سلامة الصغيرة" ورحل

أوصلتها فاتن حتى الشقة واطمأنت عليهما ثم ذهبت تعد لهم جميعاً طعام وحساء ساخن للصغيرة .

طرقت الباب فتحت لها نجلاء وجدتها محملة بصينية عليها طعام رائحته شهية ذكرها بطعام أمها

"سوف نأكل سوياً ، لا نقاش"

ولم تناقش، لا طاقة بها ، كما أنها احتاجت لمن

يتقاسم معها تلك اللحظة.

أطعمت الصغيرة وأعطتها الأدوية ودثرتها بفراشها

أخفضت الإضاءة وجلسا جوارها

ورأتها فاتن ، رأت ما لم تقصه نجلاء

قلبها معلق مع الصغيرة بمهدها

رأت قلبها يدق مع كل دقة منها

عينها وكأنها لا ترفرف مخافة أن تفقد رؤياها

أذنها تسترق السمع لأنفاسها حتى تقدم هي على

شهيق جديد

رأت أنثى جربت الفقد

وهي أعلم الناس بهذا الشعور

ورأت أنثى مخلصة لحبيب

وهي من تاهت عمراً بدروب الحب

رأت بعيني نجلاء كل ما أخفته

وبدأت القصّ

بدأت حكاية ، بل علاقة خاصة جدا ، لم تتخيل نجلاء ولا فاتن من قبلها بوجودها يوماً

"منير .... كان اسمه منير"

التفتت إليها نجلاء ولم تتعجب

كأنها كانت تنتظر أن تشاركها فاتن اللحظة بطريقتها هي

"ابن العم ، تلك الحكاية التقليدية منذ مولدي

وفاتن لمنير ومنير لفاتن

كبرت وصرت شابة جميلة

لم يجرؤ أحد على التقدم لخطبتي فالجميع يعلم أني أخص منير

وأنا لم أكن أرى من الرجال غيره "

ثم صمتت هنيهة وكأنها تتذكر ،لا بل كانت تعيد التفكير في الماضي الآن

"بل لم يكن هو يسمح أن أرى غيره، وكان بالفعل مطمع لكل الفتيات

ملامح تبدو أوروبية بعيون خضراء وشعر يميل إلى الشقرة ، شخص مجتهد بعمله ولم يتقرب من فتاة غيري"

صمتت هنيهة وأكملت بشجن "كنت صغيرة جدا بالسادسة عشر حينما رأيته "

نالت من نجلاء حملقة عيون ثم رفعت قدماها من على الأرض واستندت بذقنها على ركبتيها بانصات شديد

"كنت على البحر مع عائلتي وتقابلنا بغير ترتيب مع عائلة صديق لأبي ،ورأيت عزمي هناك ووجدتني شاردة به

بملامح وجهه

ذلك العرق النافر بمنتصف الجبهة والذي يظهر مع كل انفعال ولو كان ضحكاً

خصلات الشعر ذات اللون البني الداكن

نبرة الصوت الرخيمة بعذوبة رجولية محببة

ثم انتبهت

ضبطت نفسي شاردة برجل

رجل آخر"

شهقت نجلاء ونطقت "يا إلهي"

ابتسمت فاتن ابتسامة هادئة ثم أكملت

"هل تعلمين تلك الدقة التي تُخطف من القلب

حين تشعرين أنك لا تسيريين على الأرض

أنك هناك تحلقين بين غيوم وردية

هل تعلمين الوجه المشرق

السعادة الطافية على الوجه دون سبب"

كادت نجلاء أن تجيبها "بلى"

عندما أردفت

"هل تعلمين معنى أن يبادلني إياها بذات اللحظة

أن تقطع عيوننا عهداً دونما كلمة

أن أسمع دقات قلبه انتظمت مع دقات قلبي

أن أرى نفسي بعينيه منذ أول لقاء"

تبادلا نظرات صامتة ، ودت نجلاء أن تستحثها على الإكمال لكنها تركتها تبوح على مهل كما تريد

تجرعت فاتن بعض الماء

" كان عسيرا جداً أن أعبر لأي كان عن مكنونات صدري

من يصدق هذا الهذيان

اثنان يتقابلان للمرة الأولى

وترك كل منهما قلبه مع الآخر

لكنها كانت الحقيقة ، دون أي إضافات "

"تقدم عزمي لخطبتي وبالطبع أخبره والدي أني مخطوبة لابن العم

هل تعلمين كيف مرت هذه اللحظات على قلبي خاصة حينما أخبرني أبي بموعد خطبتي لمنير "

"كانوا دوما يقولون فاتن كالقطار الذي ليس لديه مكابح

أخبرتهم بكل صراحة أني أحب آخر

آخر من ! رأيته مرة واحدة فقط

وبعد جدال وجفاء وحبس انفرادي

طلبت لقاء منير

بكل أدب أخبرته أنه كأخي وأننا حتماً لن نكمل تلك الزيجة

فإذا كان ولابد فراق فليكن الآن

كانت الصدمة عندما أخبرني أنه يحبني "

شهقت نجلاء ثانية

"وماذا حدث "

أجابتها فاتن بحكمة السنين والتجارب

"القلوب ليس لنا سلطان عليها

ولا تسأليني كيف علمت أن عزمي هو الشخص المناسب

هو قلبي من وجهني

وأطعته

ولكون منير مهذباً أبلغ أبي أنه هو من يرفض الزيجة

وتقدم عزمي ثانية

وكان شرط أبي الوحيد أن أتزوج معهم بذات البيت

وتمت الخطبة ثم الزفاف

ورقصنا فوق السحاب سوياً

القلوب لها عيون ترى بها

لها آذان تستشعر الأنفاس

لها أيدي تمسك بالمحبوب ما استطاعت إلى ذلك سبيلا

وشاء القدر أن يزيد تمسكنا أكثر"

زوت نجلاء ما بين حاجبيها متسائلة

"بعد الزواج اتضح أني لا أُنجب "

وبدأت الدموع تتراقص بعينيها

" كان السند ، الوتد الثابت بحياتي، لم يأت على ذكر هذا الأمر طوال سنوات زواجنا

بل كان يزود عني أي اتهام من أحدهم قائلا:

سيدة قلبي ، لم أسمح لها بأن تأت بمن يشاركها فيه"

وهنا أجهشت نجلاء بالبكاء وسرعان ما شاركتها فاتن

من بين بكائها أكملت

"سنوات ومرت ، ومرض ثم اشتد المرض واقتضى ذلك أن يظل طريحاً للفراش

ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وهو متمسك بيدي كما كنا طوال حياتنا "

مدت نجلاء كفها وأمسكت بكف فاتن بتشبث

تساقطت دمعاتهما على الكفين المتشابكين

ثم ربتت فاتن على كفها بود

"أخبرتك أننا جميعاً لدينا أسرار"

وجدت نجلاء نفسها تسألها

"وكيف عشت بعده !

كيف مرت هذه الأيام!

كيف تخلصت من الحزن !"

أخذت فاتن نفساً عميقاً وأجابتها بما أرادتها أن تعلمه علم اليقين

"لم أتخلص منه فقط طويته ووضعته بأحد حجرات القلب هناك مع الذكريات والضحكات والشدائد والتمسك وكل لحظاتنا معاً"

كانت عينا نجلاء مملوئتان بالدموع حينما أجابت

"هكذا !"

رفعت فاتن كتفيها علامة ألا حيلة لها

"هكذا ! "

" لابد من مرور الأيام

القلب يشيب من الحزن

والروح تتشظى بالهم

وبين هذا وذاك هناك حياة

حياة يجب أن نحياها

ولو بغير إرادتنا "

"لقد تأخر الوقت علي أن أذهب "

ودت نجلاء أن تطلب منها المكوث ، أن تخبرها

أنها آنست روحها بتلك اللحظات الثمينة ، أن

تشكرها على ما قدمته

لكنها صمتت

وقرأت فاتن كل ما أرادته دونما كلمة

"سأظل مستيقظة بعض الوقت إذا أردت أنت أو أميرة شيئاً لا تترددي"

أومأت برأسها

أغلقت الباب وظلت ليلتها مسهدة

تراقب حرارة الصغيرة

وتفكر بالقدر الذي وضع فاتن بطريقها

بالحياة التي لابد وأن تحياها

بالحب والألم والفقد والنسيان

بشتى المشاعر التي اختبرتها مبكراً

بالأمس الذي ما اختارت به شيئاً

وبالغد الذي لم تفكر به يوماً

ثم راحت بسبات عميق

***

تحسنت الصغيرة

وأرسل أندرو يطالبها بالعودة إلى العمل

ظنت هي أنه سيدللها كونه يحتاجها بالعمل

لكن فور دخولها انطلق كالقذيفة

"أي استهتار ألمّ بك لتتركي العمل دون إنذار،

ألم تسمعي أبدا بإخطار ما قبل ترك الوظيفة"

زفرت بضيق ،واستغفرت بسرها ،وأقنعت نفسها بالتحمل لأنها بالفعل تحتاج إلى العمل

"متأسفة سيد أندرو لن يحدث ذلك ثانية "

لم يرد عليها ورحل كما جاء

أخذت تثرثر من بين أسنانها

"مجنون والله إنه لمجنون ، صبرني يا ربي "

بدلت ثيابها ووضعت مريولها وبدأت الاستعداد للعمل حينما

وجدت ما يقذف بوجهها ولم يكن سوى حذاء

تلته عبارة ما تخيلتها يوما

"أنت إذا نجلاء سارقة الرجال "

بكل ذهول نطقت

"من أنتِ أيتها ال .."

لم تعطها الفرصة بل جذبتها من رأسها أوقعتها أرضاً وجلست فوقها

" أنا زوجة أحمد صفوت أيتها الساهية "

الفصل الثالث عشر

لنظل أغراب .. كما كُنّا

ملقاة على ظهرها ، هناك امرأة تقيدها بجسدها

سباب اخترق الأذن

واسم نزل كالصاعقة عليها ما تخيلته يحضر وقت

الهجوم

وقبل الانقضاض ، وتقطيع الحذاء على الرأس

وجدت من يأتي لاهثا من ركض طويل

يحمل المرأة حملاً

"هل جننت يا امرأة ! ماذا تفعلين ؟"

وضجة ومشاحنات وأُناس ما تعرفهم تجمهروا

لمشاهدة العرض المجاني

وهذر سخيف سمعت بعض أطرافه عن حُلم

تجسدت هي به

وهذيان باسمها وقت النوم .

"هل جُنّا كلاهما! أم أصابهما عته !" وهكذا

حادثت نفسها

وإذا كان أندرو حاد الطباع

فبعد هذا العرض السخي تحول إلى صارخ

"نجلاااااااااء"

هيت واقفة مستندة على مقعد مجاور ، رتبت ثوبها

وأدخلت خصلت شعرها النافرة بفعل الهجوم

ونظرت إليه

بدا عليه لمحة من شفقة لكنه استطرد "عودي من حيث أتيتِ"

تلك التي اعتادت على الظلم

من لم تختر بعمرها القصير شيئا

من خذلها الخيال قبل الواقع

خسرت بأول حرب قابلتها

حرب ما اختارت أن تخوضها

بل فُرضت ككل شيء فرضته عليها الحياة

رفعت وجهها بشموخ زائف ، حملت الصغيرة وخرجت

الجمع ملتف ، عيون محدقة بفضول، كل منها يرسم روايته الخاصة للأحداث

هذا رآها أغوت العاقل، وذاك وجدها أفسحت المجال للمغازلة وآخر طالعها بنظرة ذكورية تقيمها وآخر وآخر

إلى أن وصلت إلى (أحمد صفوت) نفسه والذي أخفض بصره نجلاً منها

وهي طالعته بكل غيظ

"آسف نجلاء لا أدري ماذا أقول !"

وقبل أن تجيب وجدت صاحبة الحذاء تسابق الحروف

"وتعتذر أيضاً ، لي معك شأن عند عودتنا يا أحمد بك "

وبزاوية الطريق لمحت من شاهد العرض بآخره الثنائي الودود (محفوظ ونيرة)

عرضا عليها أن تستقل معهما العربة لكنها رفضت بكل إباء

وتحركت سيراً على الأقدام

قادتها قدماها إلى البحر واصلت المسير حتى

وجدت نفسها أمام مركب قديم مغروز بالرمال

،جلست على حافة سور متهالك تطالع البحر

العديد من طيور النورس تحط وتحلق وهي شاردة

بهم

تتمنى لو تمتلك تلك حرية

حرية الحلول على الدنيا كما تريد هي لا كما يريد

الآخرون

أن تحط رحالها كما تشاء ، كيفما تشاء ، ووقتما

تشاء

يقتلها شعور التمزق بين كونها ضيف غير مرغوب به أو سجين مقيد بقيود من ورق لا يملك حق تمزيقها .

وككل لحظة سلام لا بد من شياطين تبددها

"هل القمر منتظرأحداً ؟"

هيئة عجيبة عيون حمراء نظرة مقززة ولعاب كأنه سيسيل عليها

واستفاقت أن الشمس في طريقها للمغيب والليل بدأ هجومه دون أن تدري

" لو أخلف موعدك أنا موجود هيا بنا "

ويد امتدت كادت تصل إليها وأنفاس كريهة

بدأت تلفحها وعرق يتصبب منها

ثم ركض ....أميرة تبكي و....ركض.... زامور

السيارات يوقفها

و....ركض .... باعة جائلين تصطدم بهم

و......ركض

ضاعت الأنفاس

وما شعرت القدمان بالألم

متلاشية كل ما مرت به من أشخاص

حتى وصلت أمام البيت

فاتن بانتظارها أمام الباب بقلق شديد

وما إن وجدتها حتى ارتمت بأحضانها متشبثة بها بأظفارها

سحبتها ودلفتا سوياً إلى الداخل

ثم انهار السد

صريخ وصفع للحوائط والأبواب

" لماذا أنااااا؟ لماذا يحدث لي كل هذا ؟ "

الصريخ يعلو

" أليس من حقي الحياة ، أين أذهب بابنتي "

ثم التفتت إلى الحاضرة ببكاء وقلة حيلة بصريخ جديد

"أين أذهب ؟"

وأميرة تبكي فصرخت بوجهها

"اصمتي اصمتي كفـــــــــــــــــــى"

وكانت تستدير قاصدة الخبط على لوح زجاجي

حينما فقدت التوازن وسقطت بوجهها عليه

وسالت الدماء

ثم سقطت

***

"نجلاء"

صرخة بعد استيقاظ بمنتصف الليل على إثر
كابوس مزعج

"نفس الكابوس ؟"

سؤال تقريري من الأب المكلوم بالفقد الغير معلوم
سببه ولا حقيقته

"بل أسوأ ، كانت تستجير بي مني نيران قادمة
ستحرقها تمد يدها لأسحبها ولا أستطيع"

حوقل الأب واعتدل بالفراش

" هل نسيتها يا إسماعيل ، هكذا رحلت وتركتها !"

زفر فخرجت أنفاسه ساخنة تحرق ما تطاله وصمت طويلاً

"لعلها بخير يا سعاد ، لعل الهروب كان أفضل ما يحدث لها "

شهقت غير مصدقة ما يهزي به

"ماذا تقول ؟ هل أوقفت البحث عنها وأرحت ضميرك ؟"

استغفر ربه مرات ومرات

"ما قصدت هذا يا سعاد ، لازلت أبحث عن أثرها ، لكن ما قصدته عادل وما يفعله

من تحكم واستبداد بعد رحيل والده ما كان ليقف أمامه أحد "

صمت هنيهة ثم أكمل

"لعل القدر اختار لها ما فيه الخير لها ولابنتها ، لكني لن أتوقف عن البحث بمصر كلها حتى أجدها "

قام وتوضأ وصلى ركعتين بجوف الليل داعياً الله أن يحفظ صغيرته وصغيرتها

"اللهم اني أودعتهما إلى جوارك وأنت خير جوار "

***

أفاقت على ضمادة جديدة تحيط بالرأس

رائحة مطهر أخرى ما اقتحمت الأنفاس بل أغلقتها

وضوضاء مشفى؟ لا هي ضوضاء مألوفة

أخرجتها الضوضاء من اجترار ذكريات الرحيل

المهلك للقلب والحياة

كانت ضحكات أميرة ، ضحكات صاخبة جداً

وصوت فاتن .

وتذكرت أنها ما سمعت ضحكات الصغيرة منذ زمن

، بل ما سمعتها منذ غادرت القرية

أميرتك الأسيرة تاهت منك وأنت تبحثين عن نفسك نجلاء !

أنا نجلاء اسماعيل ما الذي اقترفته يداي ؟

لماذا يعاقبني القدر على ما لم أفعله؟

كيف أنجو وأصل لبر الأمان ؟

هناك ندوب بالروح

وألم بالقلب

وبحر تيه غارقة به ليس له برّ أمان

وغد تخشاه تجهله تمنى به قبس من نور

وواقع فرض نفسه بطفلة هي كل ما تملك

اتكأت على مرفقها كي تعتدل ،ريثما استقام رأسها شعرت بدوار شديد فتأوهت

أتت فاتن على إثر الصوت والصغيرة بذيلها

"لماذا نهضت حبيبتي ؟ حذر الطبيب من حركة الرأس اليوم !"

بصوت ابتلعه الألم والماضي بأفعاله نطقت

"طبيب!"

وضعت أميرة على الفراش فتلقفتها نجلاء بفقد وذنب

عدلت وضع الوسائد وهي تحاكيها بلطف شديد

"رأسك ليس بليّن على الإطلاق لابد أنك من الصعيد ، تفتفت الزجاج إلى ألف قطعة خِفت على بلاطات الأرض أن تتكسرمن الصدمة كذلك"

استشعرت حرجاً بالغاً ، شهدت السيدة انهيارها ، وأفسدت لها الأثاث والآن تحتل فراشها

"سيدة فاتن أنا ...."

قاطعتها فورا بنبرة احتلها كلا من الحزم واللين ولا تسأل كيف

"بداية أنا فاتن فقط دون ألقاب " وابتسمت لها ابتسامة بددت كل خوف

" ثانيا لا تتحدثي فيما لا أرغب بسماعه ،المهم أنك بخير "

امتنان كان لابد وأن يظهر على الوجه ؛لكنه ما ظهر

عوضاً عنه أمسكت كفها بتشبث غريب

النظرة كلها يأس ، والصوت لم يفقد بريقه فقط بل بدا وكأنه فقد الحياة

والكف متمسك بكفها كملاذ وحيد

والخوف توارى قليلا مقابل ما تقدمه المتمسكة بكفها من أمان برز لها أنه غير خادع

وأخيراً تحدثت "لماذا الحياة ليست عادلة فاتن؟"

صمت غلفهما قليلاً ، تلك التي اختبرت الألم تعلم أن من أمامها متألمة وبشدة

لن تطالبها ببوح كلتاهما تعلم أنه سينكأ الجروح وعليها الآن الهدهدة والمداواة دون مساس حتى لا يخرج القيح

تنهدت فاتن ثم نظرت إليها وضغطت على كفها

"هل تعرفين التين الشوكي ؟"

نالت منها نظرة تعجب غير مكتملة وكأنها اختزنت المشاعر بأكملها داخلها

"نعم أعرفه "

استطردت فوراً

"لذيذ ومنعش في الصيف ، والأهم أن حلاوته معتدلة لا هي بالشديدة فتصيبك بجزع ولا هي شحيحة فتجفف الحلق "

وافقتها بهزة من الرأس فأكملت بنفس اللطف

"قبل أن نصل نحن لحلاوته كيف كان ؟"

لاح على وجهها علامات الفهم

"قشرة الأشواك !"

"بالضبط"

بجوار العيون تفاهما فأكملت فاتن ما أرادته

" هكذا الحياة قشرة من الأشواك نتعرض لها حتى نصل إلى الحلا بالختام "

فهمت ما لم تصرح به

"ولا تظني أنك وحدك من تطاله الأشواك ، جميعنا له نصيب منها بحياته "

"وهل وصلت إلى الحلا ؟"

كانت تعلم السؤال والصدمة كانت الإجابة

"نعم"

" ما عشته من ذكريات تكفيني لأعوام ،وجود أقارب الراحل الذين أأتنس بهم ،وجودك بحياتي الآن أحلى من الحلا ،عليّ ووجوده اللطيف رغم ما به "

نالت منها الدهشة

"بلى ،عليّ أيضاً طالته أشواك لا تتخيليها ، لكنه لم يفقد حماسه للحياة "

"قاسية نعم

مؤلمة بالفعل

لكنها حياتنا نحن ويجب أن نحياها بشغف لا ينقطع

وإلا فالموت البطيء هو الحل "

استنكرت الكلمة كما الفكرة "شغف!"

ربتت على وجنتها برفق وأجابتها " بلى يا صغيرة ،هو الشغف ما يبقينا أحياء "

أدارت وجهها وغمغمت "يبدو أن حديثك لا ينطبق على الجميع فالبعض كلما أشعل قبسا من نور وجد من يتهافت لإخماده "

هي غير مستعدة بعد

غير مؤهلة لوهج انطفأت كل مصابيحه

ولكنها ستنهض من أنقاضها

ويوم أن تنهض لن يوقفها أحد

"سيشتعل ويتوهج يا صغيرتي لكن ليس الآن "

أرادت أن تصدقها

أرادت الحياة

أرادت شغفا و توهجاً

فهل تكفي الإرادة وحدها !

***

صباح هاديء

للدقة تمنته هي هاديء

نقر على الباب

أخبرتها فاتن أنها ذاهبة لإحضار الإفطار

فتحت الباب فشهقت فزعاً

صاحب الشعر الأشهب

والأدهى مبتسماً

"صباحك سعيد شيماء"

رغماً عنها تبسمت

"هذا العليّ أكل أذناي ، نجلاء بريئة ، نجلاء طيبة ، نجلاء مريضة "

ثم نظر لها رافعاً أحد حاجبيه ومخفضاً للآخر

"هل أوقعته بشباكك المسكين "

قاطعه قادما من الخلف

"لا أحد يوقع عليّ سيد أندرو" ثم أخفض عينيه علامة لثقة عمياء مع ابتسامة

"هي الغارقة بي حتى أذنيها "

وعدل من وضع ياقة قميص غير موجودة بالأساس

نظرت لهما غير مصدقة فانفجرا بالضحك وصرخ علي

"مزححة"

وهنا كانت فاتن قد وصلت وفوراً اندمجت بالحوار

"لا ترهقاها ، هي مريضة لم تشف بعد "

اقترب علي مشمشماً بالأكياس التي تحملها

"فول وفلافل وجبن قديم ، وآآآآآه إنه باذنجان ما أشهاه"

"فلتشاركونا الإفطار إذاً"

وكانت دعوة من فاتن استجاب لها الرجلان

وتحفظت لها قليلاً نجلاء

لكنهما لم يدخلا الشقة بلا افترشا سطح المنزل

ساعدا فاتن برص الأطباق

أميرة تطوف عليهم كل يلاعبها بطريقته

وعليّ يتندر من أندرو وطريقة تناوله لطعامه

وكانت ضحكات ، وطعام يتخاطفونه ، وأُنس احتاجته

كانت لحظات ثمينة ستحفظها بالذاكرة

ودعها أندرو بطريقته الخاصة

"تعلمين أني لا أجيد تلك العبارات ، فورأن تشفي

أنا بانتظارك

العصائر بمأزق شيماء "

ابتسمت بصدق ، ووعدته بالحضور ، وودت لو

يمر العمر مثل هذا اليوم

***

صباح هاديء

أراداه هاديء

بخاخ يمر على نباتات منزلية محيطة بشرفة بالطابق الثاني

امتزاج روائح الفل مع الريحان مع شذى النعنع المميز

هواء البحر المنعش يناسب اللحظة

أنهى مهمته وتوجه إلى الحجرة الأثيرة لديهما

كانت قد أعدت إفطارهما المعتاد

قرص من البيض بالسمن البلدي

وكوبين من الشاي بالحليب وبعض قطع الفايش الصعيدي

ولم يعر كلمات الأطباء أي اهتمام عن كوليسترول مرتفع والتوقف عن تناول البيض يوميا والحليب والدسم وتلك المهاترات.

مذياع عتيق ، كرسي هزاز ، أريكة مريحة جداً بلون قشرة الفستق

جدران متشبعة برائحة البحر تعلوها ستائر خضراء بلون ثمار الفستق

من يضع ستائر خضراء !

من يبالي! هما اختارا ما يناسب ميزاجيتهما بعد الوحدة

ومكتبة ضخمة بها شتى أنواع الكتب ، يحتل جانب كبير منها كتب القانون بحكم المهنة .

وهناك فوق المنضدة المرتفعة تقبع علبة متوسطة الحجم

بداخلها صاحبة الأوتار

"الكمان"

وكان الطلب منها لكنه رفض

"ليس اليوم ، مزاجي غير معتدل "

وضعت صينية الطعام على المنضدة الموجودة بالشرفة أرادت ضوء الشمس ولم يخالفها

"لا زلت تفكر بها محفوظ!"

"بريئة ، أعلم أنها لم تقترب من الرجل ، لن أنسى نظرة الظلم بعينيها يا نيرة "

سكبت له بعضاً من اللبن فوق فنجال الشاي

" يبدو عليها البراءة بالفعل "

أكمل بكل ألم " وددت لو أزود عنها الأذى لكن بأي صفة !"

صمتت ولم تخبره أن الصغيرة أسرتها كما فعلت بها

وأنها باتت مسهدة بتلك الليلة تفكر بحالها

لكنها على خلاف محفوظ اعتادت على كتم

المشاعر

ما مرا به حفر بداخلها نقوش صلبة عوضاً عن

تلك الهشاشة التي اعتادتها

لذلك نحت نجلاء جانباً لا طاقة لقلبها على ضيافة

أي مشاعر جديدة وعليه غيرت الدفة

"أكمل إفطارك محفوظ لتتناول لدواء "

وكطفل مدلل يشاكس أمه

"لن أتناول الدواء لقد سأمت "

وتبسمت ، بعد مامرا به معاً هو ابنها الباقي وهي أكثر من سعيدة بتلك الأمومة الجديدة.

"هيا لأني أرغب بإحدى مقطوعاتك المميزة " ومراليوم أو مررته كما غيره مما مضى ومما هو آت .

*****

عادت للعمل مع أندرو

تتحمل مزاجيته

وصارت متيقنة من مكانها المميز لديه

أميرة

اعتادت فاتن ،وتشبثت فاتن بها كابنة لم تلدها

وتخلت نجلاء عن بعض الحيطة وصارت تتركها

معها ببعض الأيام

خلا المتجر من المشترين

وكانت هي ووحدتها فقط

واقتحم وحدتها بصوت هاديء

نبرة مهذبة

وابتسامة تشمل كل قسمات الوجه

وتلعثم بريء

"كنت بالجوار فمررت ...."

وتنحنح وكأنه يخترع كذبة

"شعرت بالعطش فقلت لم لا أتذوق مخفوق نجلاء

المميز الذي يتحاكى به الجميع "

به طيف من راحة

وكل من ألم

وسوط من الذكريات يصفعها الآن

لم عليه أن يكون ودوداً مثل الراحل

ولم عليها أن تصاب بهلع البدايات هذا

ولم التوت معدتها بخليط ذنب وسعادة

وبات الصمت أسلم حل

فتدخل المراقب من بعيد بعيني خبير

"سامي ! كيف حالك يا رجل ؟"

ارتبكا فور سماع الصوت

"بخير يا عليّ الحمد لله "

نقل بصره بينهما بنصف ابتسامة خبيثة

"هل اخترت طلبك أم تختار لك نجلاء بذوقها "

اتسعت حدقتا نجلاء غير مصدقة

"أريد ليمون "

وكان أسوأ عصير ليمون تعده

وعلي ينقل بصره بينهما بسعادة

"جنيهان "

وبتر صوته اللحظة بتراً كاملاً

فأردف سامي "ها ... جنيهان .. حسناً حسناً "

أخرج الجنيهين ثم خطا مسرعاً إلى الخارج

وجاء دور عليّ

"حمدا لله ستظل رأسي فوق عنقي "

كانت غضبى منه ومن سامي ومن الموقف برمته

" أخبرتك أنه غارق يا بسكويتة فلم تصدقيني"

رفعت إصبعاً مهدداً "عليّ "

ضحك من هيئتها البريئة الغير منسجمة مع التهديد

"حسناً حسناً " ورفع كفيه باستسلام

بعدما انتهيا من العمل رافقها برحلتهما اليومية إلى المنزل

بدأ هو الحديث بمودة "لماذا أصابك الهلع من سامي؟"

سحبت شهيقاً عميقاً "ربما صرتُ أهلع من أي شيء"

كان يعلم أن خلفها حكاية لكنها صغيرة جداً على هذه المآسي

"أنت صغيرة على هذه الهموم نجلاء"

نظرت إليه بأسى "ربما حياتك لم تكن مثل حياتي علي"

صدمها بردّه "دار رعاية "

والكلمة كانت كالقذيفة بقلبها

فاستدارت إليه "عفواً !!"

أكمل يقذف بحروفه كطلقات نارية

" من أمامك خريج دار رعاية ،الحياة بها الكثير من المآسي نجلاء صدقيني

كائنين بمقتبل العمر وقصة حب رقت إلى الأساطير

ومرآة الحب كانت عمياء بالفعل معهما

نخالفا الأهل ، هروب وزواج ثم مسئولية

وظهور الوجه المعتم بكل منهما

هي غير قادرة على تحمل شظف العيش

وهو لا يكتفي بامرأة واحدة

عراك وصريخ مستمر

خيانة تلو الأخرى ثم إهانات فصفعة والثانية

باتت الحياة مستحيلة

ولكن القدر أراد لبذرة بقايا الحب أن تنبت

داخلها

طفل قادم للحياة بغير رغبته

وغير رغبة أبيه وأمه

يقولون الطفل يصلح البيت لكن معه كان القشة

التي ينتظرها كل منهما ليقصم ظهر الآخر

وأخيراً انفصال

أخبرها أبوها بكل وضوح عودة إلى المنزل دون

أذيال الماضي

ولو كان الذيل هذا من حملته برحمها تسعة أشهر.

أما عن الأب فهذا الابن سيكون العائق أمام طموحاته وغزواته المتتالية ،وقطعا لن يعود به لمن تمرد عليهم

فكان الحل دار رعاية "

لم تعي بالبداية أنه يقص عليها حكايته وعندما فهمت أصابها الخرس

" لا تُصدمي يا بسكويتة

الصدمة كانت ما يحدث بالداخل

من إهانات وعقاب ويتم استشعرته وأبواي على قيد الحياة

يجب أن يكون لك ظهر وإلا صرت مطية من الصغير قبل الكبير.

أكملت أعوامي به وخرجت متنفساً هواء الحرية

لم أبحث عن أم أو أب

وجدت عملاً بأحد المحال

وتعلمين تلك التيمة المحفوظة نظرة فابتسامة فموعد فلقاء

فأصدق حب قد يمر عليك يوماً

وعندما وصل الأمر لعرض زواج

فتحت صندوق الذكريات وقصصت القصة

من مثلها هل يوافق ؟"

لم يكن ينتظرمنها رداً فقط مزيداً من التشويق لحكايته

"أنا أحبك ، لكن هل الحب وحده كافياً "

تلألأت الدموع بعينيها ليس لأجل الفراق فقط بل لأن من يقص على مسامعها القصة يحاول ادعاء القوة

ادعاء التجاهل

" شخص له أب وأم خريج دار رعاية بالقطع ملفوظ من أي زيجة "

تنهد قليلاً ثم أكمل "شيء واضح لكني كنت غِرّ لم أفهم بعد "

سألته وهما محافظان على وتيرة الأقدام " والآن "

أخذ نفس عميق وصمت

" والآن علي أن أكون واقعياً ، هذا أنا ، ما فرضه علي الواقع ، ما اخترت شيئاً ، لذلك علي التعايش مع وحدتي الغير اختيارية هذه "

اتضح لها الآن ما خلف ستار الضحكات وما بعد جدار المزاح

ثم استوقفته " وهي ؟"

مدعياً المزاح أجاب

" ألم أخبرك بالتيمة المعهودة يا فتاة ، عريس آخر بعد أسبوع وزفاف ، لكن الفارق أنه لم يحدث نسيان "

"وأنت هل نسيتها ؟"

شرد قليلاً وكأنه عليّ آخر بوجه جامد وتقاسيم متجهمة وبصوت كله حزن

"ولا يوم ، هي حب ملك كل شعاب القلب ، فصار صعب اجتثاثه "

كانا قد وصلا أمام الباب فوجدته يقول

"سامي يحبك ، كل ما به يدلل على ذلك ، لكن أوانه ليس الآن نجلاء "

نجلاء صامتة

صمت جليل

ثم نطقت أخيراً

"تصبح على خير عليّ"

استعاد مزاحه ثانية

"أخشى عليك من التفتت يا بسكويتة ، تصبحين على خير"

ورحل

وهي شاردة بما قصّه

عليّ كثير المزاح خلفه ألم شديد جداً

ألم ما تخيلت أنه موجود بالحياة

وسامي لا مكان له بحياتها الآن

وضع نقطة بآخر السطر

وانتهى

دقت الباب على فاتن فتحت لها وهرولت الصغيرة

إلى أحضانها

دعتها فاتن إلى الدخول

"هناك ضيف بانتظارك "

خطت إلى الداخل بكل خوف

وجدت أحمد صفوت جالساً بالصالون

ثياب مهندمة

وحلوى للصغيرة

"دون مقدمات نجلاء ، أحمد صفوت جاء خاطباً إياكي "

ونظرت لها ملياً ثم أكملت

" وأنا أدعوك للموافقة "

الفصل الرابع عشر

اكسر القوقعة

مزق الشرنقة

حلِّق كطائر حزين

ادّعِ انسجامك مع الأنغام

غرِّد في الفضاء السرمدي

قريباً تقود الأوركسترا بمفردك

فاغرة فاها بعدم استيعاب لما يحدث

من يخطب من ؟ ومن يوافق ؟

للتو كانت محملة بشحنة من مشاعر الألم مع عليّ لم تفرغها بعد ؛حتى لطمتها فاتن بكلماتها تلك.

وهذا المتقمص دور الخاطب ؛ممثل رديء ، أي ركاكة يتحدث بها وأي سفه يلقي به على مسامعها .

أية مشاعر تلك التي قد تتولد بقلبه لها

بدا وقع الكلمات على أذنيها غريب

" أحبكِ نجلاء"

لم تطرب ، لم تحلق عالياً ، ولم تتمكن منها أحلام اليقظة بغدٍ مشرق.

من قبل سمعت هذا التصريح مع الراحل لكن شتان بين هذا وذاك ، هناك نجلاء رحلت ولا تبغي لها عودة، والآن نجلاء أخرى تتشكل من رحِم معاناة ما يعلم أحد عنها شيئاً.

تلك الطفلة رحلت بغير عودة

وهذه الواقفة على حدود النضج بغير عبور لا متسع بجنبات قلبها لحُب جديد، ألم جديد ، وربما بل والأكيد كسر جديد.

تدخلت فاتن تنقذها من حربها الطاحنة مع نفسها والتي شاهدت وغاها بعينيها

"حسناً يا أحمد سوف نتشاور سوياً ونجيبك عن قريب "

أحمد صفوت حيادي بكل حياته ، لا يظهر على وجهه أثر لمشاعر ،ولا يبدو متأثراً بعواطف إنسانية.

عصى عليها تقبل كونه متورط بحب هذه الصغيرة ، لكنه حادثها بكل صدق وهي بدورها فندت إلى نجلاء المعطيات .

والبداية كلمة تلتها كلمات "لماذا!"

لم يكن استفهاماً قدر ما كان تعجباً

وفاتن أجابت بما تعلمه

" أَقرَّ بأنه يحبك وهو الذي لم يلِن جانبه لأي مشاعر من قبل ،تعهد بالحفاظ على الصغيرة ورعايتها، سيكفيكِ أمر المال والعمل و...."

قاطعتها قبل أن تكمل بغيظ

"ومتزوج من وحش حيّ "

أردفت الأخرى مباشرة "لهذا يبحث عن الرقة "

وبدأ سجال كانت تبحث عنه فاتن لتخرج الصغيرة مكنوناتها

"ويكبرني بعشرين عاماً ولن يستطيع الصمود بوجه زوجته ، لماذا أوافق بتلك ورطة ؟"

وألقت فاتن قنبلة عن عمد وهي تنظر إليها نظرة جانبية

" وهو وافق دون أن يعلم عن ماضيك شيئاً "

توحشت نظرتها البريئة وارتفع صوتها بقوة

" وماذا به ماضيي حتى يجلب لي الخزي ! هل تظنين بي الظنون فاتن ؟"

شهقت فاتن واقتربت تمسك ذراعها بعنف

" هل هكذا تعرفيني؟فقط أسوق إليك ما دار بعقله "

وتركت ذراعها وأدارت وجهها مبتعدة .

اقتربت منها نجلاء ولمست كتفها بتردد ، كل ما بها متردد كل ما بها تائه.

"لم أقصد " وصمتتا طويلاً

لن تبوح نجلاء ،علمت فاتن ذلك فلم تثقل على كلاهما ،لكنها واربت الباب بقولها

"قد يكون فرصة جيدة ، وقد يكون الفرصة الوحيدة ،وقد يكون أسوأ فرصة كل هذا تبعاً لك وحدك نجلاء"

أطرقت نجلاء وشردت فأتبعت فاتن بما علمت أنه يدور بعقلها

" سامي مناسب ،وبالفعل قد يضمر لك بقلبه مشاعر ،

لكن من أدرانا أنه قد يتقدم خطوة واحدة ،

عليكي أن تعلمي أنك له لستِ أفضل اختيار "

مؤلمة الحقيقة ،لكنها إذا أتتنا من قلب مُحِب تخفت وطأة الألم على قلوبنا

بالفعل هي أرملة وأم لطفلة ووافد جديد بماضٍ لا يعلمون عنه شيئاً ، لكن ما لم تعلمه فاتن أن قلبها المتألم لم يبرأ بعد حتى يستقبل هو أيضاً وافد جديد .

أمسكت بكف أميرة وتوجهت إلى الباب لكنها استدارت بثقل مشاعر قد لا تتحمله فاتن ولا هي الآن إذا انهار سده فاكتفت بنظرة طويلة أعقبها جملة واحدة

"ليس الآن"

كلتاهما فهمتا أنها بحاجة أن تفتح الجرح الحيّ لأنه مغلق على كبد ، على ظلم ، على انكسار ؛ لكن المبضع والمطهر مفقود موضعهما حتى الآن .

أومأت برأسها بفهم وتفهم وابتسمت لها وللصغيرة التي لوحت لها بكفها المكتنز وأرسلت لها قبلة بالهواء .

***

اليوم عُطلة

جلسة مع العائلة ، تنزه،تزاور وجميعها ممنوعة له أو فلنقل لم تكن دارجة بجدوله يوماً ما .

ليس له رُفقة سوى أندرو وفاتن ومن جديد نجلاء

زملاء دار الرعاية مسحهم من تاريخه كما أراد أن يمسح الماضي

والماضي لا يُمسح بكلمة ولا بقرار ولا بنسيان مُدّعى .

بيوم عطلته يذهب للصيد ، يرافقه أندرو أحياناً إذا كان بمزاج رائق ، لكن الوحدة هي نديمه الغير قابل للهجر .

واليوم عطلة مر على سوق السمك يبتاع طُعماً ،وجهز عدته :ماء،طعام،صندوق لحفظ السمك، وراديو، وكرسي قابل للطي

و

بوحدتك تكون أنت بكل فوضى وتناقض ممكن

تخلع الأقنعة

تثرثر بكل محظور

وتشعل كل نيران

بوحدتك ترسم أناساً بريشتك وتخلع عليهم صفات

من روحك وتبادلهم حياة غير الحياة.

بوحدتك تبدو فوضوياً عابثاً مملاً مشتعلاً زاهداً

وبالأخير

تختزل كل ها داخل قارورة روحك

ولا تخرجه إلا عند الوحدة

وهذا هو عليّ، بالأمس ترك قارورة روحه مواربة

قليلاً مع نجلاء ،ولا يعلم لم ! ، ربما شعر أنها

بحاجة لملامسة معاناة الآخرين !،

وربما أراد هو الثرثرة!

واليوم ها هو جالس على كرسي يعتمر قبعة ويدندن جوار اللحن الصادر من جهاز الراديو

"غمزت"

وصرخ بها عالياً ،فدهش المحيطون به

"ماذا ألم تشاهدوا شخصاً سعيداً بصيده من قبل "

كان الرزق وفير اليوم ،بيت النية أن يدعو فاتن ونجلاء لمشاركته هذه الغنيمة ،سيعد المشواة على السطح ويكتفون هم بصنع السلطة وبعض الأرز .

لو كانت نجلاء تحمل هاتفاً محمولاً مثل هذا الذي اقتناه حديثاً بعد أن ادّخر من أمواله لشهور لكان قد هاتفها طالباً منها إعداد السطح حتى يصل ،

منذ رأى الهاتف هذا مع أندرو كاد يجن ،وعندما أخبره سامي أن ثمنه قد انخفض ادخر الجنيه مع الجنيه حتى ابتاعه .

يحاكي حاله حاملاً حقيبته على ظهره مستعداً لعبور طريق البحر عائداً عندما فاجئه صوت

"عليّ"

وهل يهجم الماضي بلا رحمة !

ذات العينان لم تتغيرا،ذات الصوت الناعم

،وذات الدقة بهذا اللعين لم تمحي.

"مريم!"

كان استفهاماً أو عدم تصديق وهي اقتربت بمودة

وفرحة "نعم مريم ،هل نسيتني؟"

كاد أن يخبرها

"ولا يوم"

وكاد أن يمطرها بكلماته عن جمالها الذي تألق

ووجودها الذي طغى على كل وجود ، كاد ..لكنه

صمت .

"كيف حالك ؟ وأين حططتَ رحالك ؟"

تنحنح ليجلي صوته من هجوم المشاعر ونظر بالفراغ جوارها مشيراً بيده

"أعمل بهذا المطعم ، وأقطن جواره بعد بضعة شوارع"

التمعت عيناها "حقاً! ونحن نقطن هنا جوار متجر الملابس هذا "

قالت نحن ولم تقل أنا ، أي نحن تقصد ؟ فبادرها سائلاً

" أنت وأولادك "

تبدل وجهها من فرح لوجوم

" لم ننجب بعد ، فضلنا البعد عن العائلة بكل تدخلاتها "

أومأ برأسه ثم ودعها على وعد بلقاء قريب وحديث عن زيارة للمطعم

بين الماضي والحاضر عالق أنت

وبين القلب وسكناته تائه أنت

ذكرى ، ضمير، قلب، ألم ، نسيان ؛مفردات جميعها تغير مدولها لديه ، لم ينسى بل لا يريد النسيان ،لم

تحضر أمامه بشخصها فقط بل حضرت بقلبه وكأنها لم تتركه

وسياط الذنب تجلده كونها ملكاً لآخر بشرع وعهد،

ورياح غضب هبت على قلبه لماذا تركته؟

بل لماذا ظهرت الآن أمامه كجنية بحر غير عابئة بقلبه .

كان يعبر الطريق بشرود وأفاق على زامور السيارات لأن قدمه متصلبة بالأرض بمنتصف الطريق.

مرّ علي فاتن دعاها ونجلاء للغداء ،لكن شتان بين ما كان ينتويه وما يحدث الآن

تبادلتا النظرات بالتعجب فمن أمامها ليس عليّ الذي يعرفان ،السمك يحترق وهوبعالم غير العالم ،غارق ببقعة رمادية لم يعلم بوجودها قبل الآن.

اقتربت منه نجلاء تسأله بقلق أخت

"عليّ ماذا بك ؟"

ولو كان يعلم الإجابة لأجابها ،وعليّ لا يُحب الأسرار، لم يحمل أسراراً من قبل ما قابله بماضيه يعلمه المقربون منه دون رتوش

لكنه الآن على شفا سعير ، ماذا يخبرهما ؟

أن قلبه عادت دقاته للانتظام ، أنه شعُر بالغيرة من صاحب الحق ، أنه تمنى فراق بهجة الإنجاب حتى يُفتح لقلبه الباب!

واكتفى بكلمتين

"قابلت مريم "

نظرت له نجلاء باستفهام "هي ؟ "

أومأ برأسه "هي "

ربما غفلت نجلاء عمّا به لكنّ فاتن تغافلت أرادته أن يغلق جرحه بنفسه

أرادت له بداية جديدة بعيداً عن أذيال الماضي

؛لذلك ..تجاهلت.

رفعت صوتها تنبهه "السمك يحترق "

رفع السمكات ووضع غيرها وغمزت هي لنجلاء أن تتركه

وضعوا الطعام

"هل بإمكانك أن تخلي هذه السمكة من الأشواك لأميرتنا الصغيرة"

والحديث من فاتن والمعنى واضح والغرض إلهاء

أخلى السمكة من الأشواك ووضعها أمام الصغيرة

التي التهمتها بشهية كبيرة ثم حادثته بصوتها الرقيق

"أنا حب عليّ"

ونجحت فاتن ، فاحتضن أميرة بفرحة عارمة ،

وشعور خليط من الأبوة وغيرها

"وعلي يحبك يا أميرة الأميرات "

انتهت الأمسية بقرارات

نجلاء متيقظة ليلاً تحاكي النجوم عازمة أمرها على

إبلاغ أحمد بالرفض.

فاتن بقرار حاسم بالبحث عن عروس لهذا البائس الذي يؤلم قلبها .

وهو بات ليلة مسهدة لم يخرج منها بأي قرار .

****

قلنا سابقاً :عند الألم لا تبحث عمن يشاركك إياه .

لكنهما تشاركا بفعل القدر

عاد من السوق محملا بالخضروات والفاكهة واللحوم والبقالة

يصر على التسوق بنفسه رغم تحذير نيرة له من التجول وحيداً وحمل الأشياء

"هذه نزهتي ، هكذا اعتدت طوال حياتنا وهكذا سأظل"

تربت على كفه وتخبره بمحبة خالصة "لا حرمني الله إياك "

مشغولة هي بفرز الأشياء وهو يفتح فمه ثم يغلقه بتردد يكرهه بنفسه كل مرة

"هل دق الهاتف اليوم ؟"

السؤال واضح لكن الإجابة مؤلمة

"لا "

يعود بذات التردد والتشبث بخيوط واهية

"هل تأكدت من وصلات الهاتف لابد أنها منقطعة سوف أفحصها بنفسي "

قاطعته بحسم فاتر

"لا ترهق حالك محفوظ ، كلانا يعلم أن الهاتف يعمل جيداً"

زفر بضيق

"ربما هناك مشكلة بالاتصالات الدولية؟"

وهي الحليمة أخرجها عن صمتها بصريخ

" بثلاث ولايات ؟ المشكلة بثلاث ولايات دون انقطاع ؟"

أرتج عليه دوما ما كان يظنها غير مبالية ، بل مر به أوقات شك بعاطفتها وفطرتها ، يا لك من ساذج محفوظ ! هي تخفي الكثير فقط كيلا تؤلمك.

أمسك كفها وقبلها ،نصف القبلة اعتذار ونصفها هدهدة "آسف "

قبلت كفه بدورها "لا تأسف على ما لا حيلة لنا به يا رفيق العمر"

أدار دفة الحديث سريعاً هرباً من ثقل الماضي بكل آلامه "لقد عادت نجلاء ما رأيك أن نتذوق أحد مخفوقاتها اليوم "

ضحكت بمودة على هذا البريء الذي لا يجيد التلاعب بكلماته ولا يقوى على ألغاز لفظية

" وهل أوحشك المخفوق أم تريد الاطمئنان عليها؟"

ضحك بدوره فاحمر وجهه خجلاً وانفعالاً

" أخبرتك أنها بريئة يا نيرة "

بعد الغداء ترجلا يستنشقان هواء البحر حتى وصلا إلى المطعم ومع أول خطوة تناهى إلى مسامعهما صوت أحمد صفوت

"والحب لا يعني شيئاً!"

تبادلا نظرات متشككة وهي حدقت بهم بفزع ، لم يكن نجلاً كان فزع ، علمت نيرة أنها لم تخطيء فور أن ثرثرت بسرعة شديدة بكلمات غير مترابطة

"كنت أطلب منه الرحيل ...هو من جاء .... قسماً بالله جاء يخطبني وأنا رفضت "

تدخل محفوظ بهدوء

"هدئي من روعك يا ابنتي لا نتهمك بشيء "

وعقبت خلفه نيرة " لا أحد يحاكمك هنا نجلاء "

ثم التفتت إلى المنزوي جوار الثلاجة بحزن وانسحاب واستسلام

"ارحل إلى زوجتك وتنحى عن طريق الفتاة يا هذا

وإلا وجدتني أنا أمامك "

بانكسار كان واضحاً رحل .. رحل سريعاً ... ولا

تتفق سرعة الرحيل مع الانكسار

تنفست نجلاء الصعداء وحمدت الله أن أندرو

ليس هنا فأتاها صوت نيرة بحكمة منشودة

"ليس محارباً لا يستحقك " قالتها بتقرير وتأكيد

وهي تلعثمت بل تناثرت

ودت أن تخبرها أنها لم تفكر به من الأساس وأن

الراحل لازال بقلبها لكنها صمتت

ولا تدري لم صمتت؟ ألا يستحق حسين أن تدافع عن مكانه بالقلب ، أم أنك نجلاء تودين مواربة الباب لأحدهم.

شهقت هي عند وصول أفكارها لهذا الحد فتعجبت نيرة لكنها لم تسألها ، ولن تسألها لن تتورط بتلك علاقة إنسانية ، أو هكذا كانت تتصور .

اقتحم صوت محفوظ حوار كل منهما الداخلي مع نفسها

"أين عليّ؟"

وكأنه انتشل نجلاء من بئر عميق

"هه علي ، نعم لم يأتي بعد "

وحاول إدخال البهجة "إذا لن نطلب الطلب المعتاد سنشرب مخفوقا من يديك "

صارت محترفة بالتعامل مع الفاكهة تدمج بعضها البعض بطريقتها الخاصة فينتج مذاق مميز وبديناميكية بدأت العمل وضعت جوافة مع مانجو وبعض قطع من الكيوي والقليل جدامن العسل مخفوق جميعها بقليل من الحليب مع مكعبات الثلج ،وكان الناتج مذهلاً .

تذوقا كل رشفة باستمتاع ومزاجية فريدة ما حدا

بنيرة أن تثني عليه قائلة

"لم أذق بحياتي هذا الطعم المميز "

ولكون محفوظ على النقيض من نيرة وغير مُتوقع

ردود الأفعال فقد نطق بما جهلت سببه

"ما يوم عطلتك نجلاء؟"

"الأحد "

وبكل حبور دعاها قائلاً

"إذا أنت مدعوة على العشاء معنا يوم الأحد "

حملقت نيرة بعينيها محذرة وفزعت نجلاء من مجرد الفكرة ، أغراب هؤلاء أغراب مهما شعرت معهم بالود .

وبين خوفٍ من تورط مشاعر ، وهلع من قلب صغير لازال يتعلم الثقة رفضت بكل أدب

" أشكرك لكنني لا أستطيع "

أمام نظرات نيرة لم يملك رفاهية الإصرار لكنه عزم على معاودة الكرة ريثما يستطيع ، وتتقبل نيرة

"حسنا يا ابنتي كما تريدين، لكننا حتماً سنجتمع يوماً ما "

أومأت برأسها فأردف "سوف أهاتف علي على هذا المحمول الذي يحمله ، لم يتغيب عن العمل يوماً"

"لا داعي لذلك فقد أتيت "

لم يكن عليّ المرِح كان آخر وكأن قطار المشاعر دهسه مساء فاستفاق صباحاً على يأس

"غرقت بالنوم ولم أستيقظ سوى من قليل"

ربت على ظهره وبكل حنو مختزن كان قلقاً بسؤاله

"تبدو مريضاً يا ولدي لماذا أتيت "

تخللت يده خصلات شعره بيأس

"راحتي هنا سيد محفوظ راحتي بالعمل"

نظرإليه بحزن

" حسناً عليّ سوف أطمئن عليك لاحقاً"

ورحلا ..رحلا بمودتهما ..ودقات قلبها المطمئنة والمستأنسة بهما

وما أرادت أن تفتح ذات الحوار مع عليّ وتركته ينشغل بعمله

***

مزاجها رائق اليوم وهذا يقتضي سهرة مع فيلم قطعة حلوى أو كما الفتيات بعض التسوق لكنها ليست كالفتيات يبدو أن طفولتها التي سرقت كان لها أثر

نجلاء تطهو

وكأنها تكتشف نفسها من جديد ، لا ليس من جديد هي تكتشف نفسها ابتداءً

نجلاء لم تعرف شيئاً عن نجلاء سابقاً ،تلك التفاصيل من محبة وبغض ، أطعمة ، ألوان ، أماكن ، رفاهية الاختيار بذاتها جديدة عليها .

لذلك هي تطهو

طنجرة بها دجاج يغلي ومعه بصلة وحبة طماطم وأشعلت فرن الموقد ووضعت بداخله طاجنا نخارياً به بطاطس وآخر محملاً بأرز ولبن

رائحة الأرز عبقت الأجواء علامة على تمام امتصاص اللبن فأخرجت الطاجن وأغرقته بالسمن البلدي الذي بحثت عنه بكل مكان منذ وصولها وأحضرته لها فاتن من إحدى الفلاحات.

"أهكذا كانت تعده أمي !"

كانت تحاكي حالها بمحاولة لاستحضار أجواء القرية

والود المغلف لمنزلهم الذي رحل عنها كما رحل

كل شيء.

نضجت الدجاجة فأخرجتها من الحساء وبمقلاة

وضعت ملعقة أخرى من السمن وحمرت الدجاجة

من كل الجوانب .

حملت وليمتها الصغيرة وهبطت الدرج حتى فاتن

ونقرت على الباب

فتحت فاتن الباب فقابلتها ابتسامة رائقة ورائحة

ذكية

"يا الله ما أطيب هذه الرائحة "

وتحركت مفسحة لها الطريق لتمر وخلفها أميرة

" الجميع يثني على مخفوق نجلاء ،قلت يجب أن

تتعرفوا على طهو نجلاء "

وتحدثت بمرح يزور صوتها للمرة الأولى ، فانعكس

أثره على وجه فاتن فأطالت النظر إليها بابتسام

وإعجاب.

نجلت نجلاء فقاطعتها

"سوف يبرد الطعام هيا "

حملتا أطباق ومعالق وفوراً شرعا في تناول الطعام

والذي كان لذيذاً جداً

كانت تقضم فاتن الدجاج بشهية كبيرة وهي تقول " يا لك من تعيس الحظ يا عليّ ، كيف يفوتك هذا الطعام"

"كانت أمي تعده هكذا "وخرجت منها بسلاسة وبغير ترتيب

لم تعقب فاتن تركت لها حرية الحديث من عدمه

"كانت تستيقظ مبكراً تنتقي بطة سمينة تذبحها بمفردها ثم تترك لي مهمة نتف الريش والتنظيف وأسلمها إليها تضعها على النار ، لم نكن نملك موقد كان لدينا (كانون) هل تعرفيه ؟

قوالب من الطوب مرصوصة وبينها قطع الأخشاب المشتعلة تطهو البطة وبذات الوقت يكون الفرن الحطبي مشتعل فتضع به طواجن الأرز والخضروات "

صمتت هنيهة ولم تبدد فاتن سلام اللحظة بأي حديث فأكملت مباشرة

"يعود أبي من الحقول نتلقاه بحفاوة يكون الطعام ساخناً تجمعنا وجبة واحدة وحديث مشترك وود "

ثم التفتت إليها مباشرة

"هل تعرفين الود فاتن ، هذا الأمان والبال الرائق والعين القريرة ، والسعادة بغير سبب "

وباستفهام حقيقي سألتها

" لماذا رحل كل هذا ؟"

حنين وألم وفقد هو ما كان مغلفاً للأجواء ، ولم تملك فاتن جواباً فصمتت وتركتها تفضي بما تريد

من رحم الخسارة يأتي الحنين

ومن رحم الحنين يظهر الألم

ومن رحم الألم يطفو الضعف

ومن رحم الضعف تتولد قسوة

أو هشاشة

وفاتن اجتمع بها النقيضين وأرادت لرفيقتها المثل ،

كانت تعلم أنها يجب وأن تثرثر أن ترفض أن تتذمر

أن تصرخ

بعضهم مر بها والآخر في طريقه للحدوث حتى

تصل للسلام الذي يجمع بين القسوة والهشاشة بمزيج

متوازن

" سوف أصنع الشاي ريثما تنتهين من طعامك"

أتاحت لها حرية الهروب

تلك الصغيرة التي لم تعلم عن ذاتها شيئاً

في طريقها الصحيح لاستلام عصا الكمان

******

الحب عصي الفهم خاصة من المحبين

وبطريقين متوازيين

كان أحدهما يقف يتمهل ينتظر بقرار وتصريح لم يستطع كبحه

وآخر يفتح الصفحة على مهل ويخط بها أول سطر

واثنتين ما أرادتا هذا التصريح الذي نزل كسهم نافذ

"أحبكِ"

الفصل الخامس عشر

كن مدهشاً ..لنفسك قبل الآخرين .

طريقان متوازيان واعترافان وصدمتان ، لكنهما أبدا لا يتساويان

الأول أوقفها وهو عائدة من عملها ، لم يكن اعترافا رومانسيا على أضواء شموع تصحبه في الخلفية ألحان الكمان .

بل هي منهكة من أثر العمل وهو أتى وبيده أحد المفكات بجيبه وكأنه اتخذ قرار المصارحة بغير ترتيب .

هو ماذا كان يرجو باعترافه؟

لم يفكر بعرض زواج

لم يفكر بماض مجهول تماما

لم يفكر بصغيرة ملاصقة لها ليس لها موطن آخر .

وكأن المشاعر صارت ثقلا على قلبه وآن لها أن تخرج .

استوقفها، لم يتُعتع ولم يَتوتر

"أحبكِ نجلاء "

وهي ارتدت إلى الخلف بصدمة مستحقة، منه ومن حالها

تحاكي حالها ..ما بك نجلاء!

تورُد

خفقات قلب

قطرات عرق على الجبين و صغيرة متمسكة بكفها

وماض متشبث بها تجرجره بكل خطوة لم ولن

تمحوه .

من باطن اليأس يبزغ نور ومن مجاهل الظلم قد

يأتي العوض لكنه الزمن

الزمن ذلك الاسم المجرد الذي لا حكم لنا عليه

ربما لو كان ظهر من البداية لكان أفضل اختيار

وربما لو تأخر قليلا... لأومأت برأسها موافقة!

لكن الآن وهي بين ماضٍ متشبث بها يجرجرها للغرق به،ومستقبل ما خطت به أي حرف بل ما أمسكت به قلم بعد ، فالزمن ليس بصالحهما

أرادت أن تخبره

" دعني أصوغ ألحاني بمفردي أولاً ثم أشاركك "

لكن حتماً من تعرض للظلم لن يظلِم

أطلقت سراح قلبه قبل أن تأسره -أو هكذا كانت تظن - وبداخلها تكرر

" لو كان خيراً لبقى"

أخذت نفساً بعمق معاناتها ثم أجابته

"هو حبٌّ محكوم عليه بالفشل قبل أن نعترف به "

فاجئها الرد قبل أن يفاجئه، نجلاء الجديدة تلك

تروقها قبل الجميع .

وعنه فقد صُدِم "ماذا "

تماسكت،ادعت قوة أو ربما امتلكتها بالفعل عقب

نوائب ثم واجهته

"ابتعد عن النيران سامي "

ونسي بشأن ما قالت وابتسم

" إنها المرة الأولى التي تخاطبينني باسمي "

ولم تتورد تلك المرة بل أكملت عبارتها

"بل أول مرة أحاكيك بالأساس "

وكان وجهها متجهما واستطردت بعيون شاردة

" أنت تلقي دلو في بئر لا تعلم ما به "

لم تنتظر منه تفهم، لم تنتظر أي شيء،هي نفسها لازالت تتلمس طريقها نحو دواخلها .

بعد فترة صمت قصيرة، تغيرت النبرة، واعتدلت الوقفة، وابتسم الوجه

" سامي عبدالعزيز خمس وعشرون عاما، درست بالمعهد الفني وأعمل بورشة والدي ،لدي أختين فقط، وأقطن جواركم هنا "

وضحك بصفاء مشيرا بإصبعه إلى بيته.

هذا الصفاء الذي تاه عن عالمها عقب الرحيل،

ورفعت عينيها إليه ثم أخفضتهما

لا نجلاء

لن تنقش ملامح آخر بذاكرتها لن تنظر إلى ابتسامة وتسجلها وتنتظرها لن تعتاد صوت سواه ، لن تمحوه من القلب .

أدارت وجهها ثم همت بالرحيل فأوقفها بصوته

"نجلاء"

وضعت كفيها على أذنيها وناشدته الصمت

"أرجوك توقف لا تضيف حرفاً ،لا تحملني ما لا طاقة لقلبي عليه"

كان دوره بالشهيق المرتفع ثم جملة ستكون البداية لما هو آت

" لن أحملك ما لا طاقة لقلبك عليه نجلاء لكن اعلمي أني أحبك وسأنتظر حتى ..."

وسكت هنيهة ثم أكمل "حتى يعلم كلانا ما يريد "

وخطت هي خطوات سريعة كان هو خلفها يطمئن على وصولها ،تُسرِع فيُسرِع حتى اصطدمت مباشرة بفاتن والتي نقلت نظرها بينهما بتعجُب

****

والثاني ، كان يراقب الشُرفة لأيام

انفرجت قليلاً يلمح طيفها من خلف ستار ،الآن

ترفع الملابس من الحِبال وتضع غيرها ، وتنزل إلى

السوق كل يومين

"الغبي يجعلها تنزل إلى السوق كيف يحتمل أن

ينظرإليها البائعون وغيرهم"

وكان يحاكي حاله بغيرة شديدة وحينما ضبط نفسه

وبّخها

"بأي حقٍ أنت أيُّها الغبي تغار وتتحكم"

اليوم موعد نزولها السوق وكمن خرج من باطن الأرض وجدته أمامها يصرح بمحبة

"أحبكِ مريم"

لم يعطها فرصة للاستيعاب فوراً اقترب ممسكا مرفقها بألم

ناظرا بعمق عينيها يبحث عن نفسه لا عنها يباغتها بكلمات لم تكن تدري أيهذي بها أم يقذفها ليرتاح

وبكل غضب مخلوط بأمل نطق أخيرا بعد حرب النظرات "لماذا ظهرتي بحياتي مرة ثانية"

حملقت بعينيها باستيعاب مفقود "ماذا"

تخلصت من قيد أصابعه ووقفت طالبة الفهم

"ما بك علي، ماذا حدث؟"

فرك جبهته بأصابعه وبصوت منهك أجاب

"ماذا بي !"

شبك مرفقيه ..تنهد طويلاً وأسبل أهدابه بألم ثم أكمل

"كنت مرتاحا... كنت مرتاحا مريم، تناسيت الألم،ادعيت النسيان لكنني ما ذقت له حلاوة ولا مرارة،طويتك بقلبي وأغلقت عليك،لم أخرجكِ ولم أتركِك على الوجه"

"ربما لو كنت شاهدتك بثوب زفاف لكان مات الأمل الحي لسنوات"

تنهد وأخذ نفسا عميقا مردفا

"ربما لو تركتك خارج القلب لأتت أي رياح فحركتك بعيداً"

اقتربت منه خطوة يصحبها شلال دموع وصوت يغلفه العطف والحيرة

"عليّ أنا .. أنا ..."

وقبل أن تزيد حرفاً تحول لآخر غاضب بأعين حمراء

"ألا لعنة الله على عليّ وعلى قلب عليّ الذي لا زال ينبض بحبك صباح مساء " وتركها مشدوهة ورحل.

***

وهناك ثالثة سقطت من الحسابات ، لم تسقط سهواً بل أسقطها الجميع عامدين متعمدين مستريحيين.

هي من اختزلتها الحياة بتضحيات

من ألبسها الجميع ثوب الرهبنة دون اختيار

من حاربت دون جدوى وخُدِعت دون سبب

وخسرت إلى ما لا نهاية

الثالثة صباحاً أوشك الفجر على البزوغ وهي لم تذق النوم بعد

الفراش كأشواك تتقلب فتغرس بجسدها بألم ذكريات

الحياة تمضي والأيام تتبدل وأيامها هي صباحها لا يفرق شيئا عن المساء

تذكرت مثلاً ريفياً يقول "كالثور بالساقية " في إشارة إلى العمل دون كلل ودون توقف

وهي سامية صارت ثوراً لساقية حياتها وحياة الآخرين

لازالت ابن أبيها ، لازالت سامية العانس كما أراد الجميع .

مشعلة ضوء خافت يُمكّنُها من القراءة

رواية جلبتها لها إحدى الصديقات وللمفارقة يتحد عنوانها مع حالتها "لا أنام"

رأت من تعرضت للظلم،وتمنت أن يجد الحق طريقه بالختام وتذكرت الهاربة

"هل ظلمتُها ؟ "

سمعت حوقلَ أمُها وصوت خُفِها في طريقها للوضوء فأسرعت بإطفاء المصباح

فتحت فادية الباب ودلفت بهدوء واقتربت من فراشها

"سامية ! كالعادة متيقظة حتى الآن "

منذ ما حدث وشرخاً بينهما ظهر، بداخلها تحمل أمها المسئولية هي من ألحت بقبول الخاطب الولهان.

وأما عن فادية فلم تسامح نفسها لكنها تطلب السماح من ابنتها كل حين

"لماذا لم تنامي ! لن تستطيعي الاستيقاظ في الصباح"

وكانت أسوأ بداية فتحت فوهة بركان ما خمد بعد

استقامت بفراشها بغتة ونفضت الغطاء

"سوف أستيقظ لا تقلقي وأدور كما الثور ككل يوم ما بين معمل وصوبة وحقل وبالأخير سأرتمي على فراشي متعبة مدعية النوم حتى ترتاحون"

كل كلمة سوط يصفع فادية بما تعلم وتنكر وتخشى أن تواجه

اقتربت واضعة يدها على كتفها في بداية احتضان بترته سامية فوراً بصريخ

"اتركيني بحالي ، اتركوني جميعاً بحالي ، ليس لكم عندي سوى العمل "

رافضة لأي تفاعل إنساني غطت وجهها وادعت النوم وسمعت الأم الشهقات المكتومة بباطن الوسادة وتمزق القلب ككل مرة تحاول بها ترقيع ما أفسده الماضي.

وضعت يدها عليها من فوق الغطاء ولاحظت تشنجها لكنها أكملت ما عزمت عليه

"سامية ، أقسم لك أنني لم أرى سوى السعادة بقدوم هش.." وبترت الكلمة قبل أن تتلفظ باسمه .

"كان متقنا لدوره فصدقناه جميعاً يا ابنتي ، ما أريدك أن تتيقني منه وتعيه كاسمك ، أنك غالية

..بل غالية جداً أغلى عندي من كل ما نملك ، ولو كان باستطاعتي استبدال كل شيء بسعادتك لفعلتها دون تردد ، فليحفظك الله لي حبيبتي "

وقبلتها على رأسها ورحلت مخلفة جرح حيّ ينزف من جديد ، وأنثى مهشمة غير قادرة على النهوض من أنقاضها الآن .

****

فاتن تنظر لهما بتعجب

ألقت نجلاء التحية عليها ثم صعدت مباشرة إلى شقتها

حممت الصغيرة وأطعمتها ونيمتها بالفراش

ثم تحممت وسمحت لرذاذ الماء أن يوقف سيل الأفكار المنهمر على عقلها

ارتدت ثيابها ونزلت مباشرة تدق على الباب

وفتحت لها الباب ودعتها للدخول

هل نختار من نُظهر ضعفنا أمامهم ! ربما .

متوترة تُقدم ساقا وتؤخر الأخرى

تتحرك الحروف تقف على أطراف لسانها ثم

تزدردها بعسر مع ريقها

هل آن أوان البوح! هل وجدت موطنا تهرع إليه!

هل تفتح نوافذ الماضي أم تظل مشرّعة حتى إشعار

آخر

وأخيرا حسمت موقفها وبدأت سردا لم تكن تعلم

أنه لن ينتهي

"أخبرني أنه يحبني"

كانت فاتن بانتظارها...بانتظار الماضي

وبقدر ما كانت تنتظر بقدر ما كانت تخشى مما ستفضي به إليها

أحضرت فاتن كوبين من الشاي بالنعنع وجلسا بالشرفة وتركت لها حرية البداية

" أنا أرملة بالفعل كما أخبرتك لم أكذب عليكِ لكني لست من المنصورة ولن أخبرك ببلدتي حتى لا أحملك همّ أسرار لن تفيد "

أومأت فاتن برأسها وارتشفت رشفة من كوب الشاي مستحثة إياها على الحديث

النساء بطبيعتهن يملن إلى الثرثرة والفضول تجاه الحكايا ، لكن شعورها تجاه نجلاء كان مختلفا كانت تعلم أنها ستتورط بعالمها ولم تخف،شيء بداخلها حدثها أن نجلاء من تُوازن كفتها بالحياة وكانت سعيدة بذلك .

وحددت أُطُرا للحوار قبل أن يبدأ " سأبوح بما أستطيع ،هناك محطات ما تجاوزتها بعد ، وهناك محطات طويتها داخلا حتى لا أذكرها مرة أخرى "

ابتسمت لها فاتن بتفهم ومودة

وبدأ البوح

" أول كلمة أحبك ، ورجل لا مثيل له بكل شيء ، أم ربما ..."

وصمتت قليلا

" ربما بعمري الصغير لم أرى من الرجال غيره !

لا لا لم يكن له مثيل بالفعل ، كانت صديقاتي يحسدنني عليه

ابنة المزارع يحبها ابن التاجر الكبير ، شيء أشبه بفيلم كلاسيكي قديم أليس كذلك؟"

والتفتت إلى فاتن بتساؤل ،فهمت رغبتها بمشاركتها الحوار فأجابت

" الواقع دائماً أصعب من أي دراما ، وها قد رأيتِ من حولك !"

شردت نجلاء قليلا ثم عادت ببصرها إليها

"لم أفكر بهذا مسبقاً ،بل لم أُفكر بالأساس ، كانت دراستي وأعمال المنزل حتى تبدلت الحياة يوم اقترنت بحسين "

كانت وكأنها تراجع شريط حياتها القصير معها بصوت مرتفع

" رأيت وجهاً آخر من البشر ، غير أبي وأزواج أخواتي وغير حسين

علمت ما يعني الحقد والغل والكره والغيرة والشك والخيانة ، وأنا بدور المتلقي دائما المفعول به " "صِرت أُحاسَب على ذنوب ما اقترفتها ،ثم فاجئني القدر بالرحيل المفاجيء وخسارة طفلي الذي علمت بوجوده قبلها بيوم واحد وصارت الحياة غير الحياة "

توقفت قليلا تستدعي مشاهد عدة بعقلها عادل هشام سامية ضعف شك هجوم ونفضت رأسها تريد محوها من ذاكرتها وارتشفت رشفة من كوبها

"ثم كان الهروب "

"هروب" ونطقتها فاتن بدهشة حقيقية

أومأت برأسها وأجابتها

" بلى ، لم أكن لأقبل بخضوع ، ولم يكن هناك مجال لغيره فكان الهروب هو الحل الأمثل "

اقتربت فاتن بوجهها منها وسألتها " والآن !"

اقتربت نجلا كذلك وأجابت بكل صدق

" لا أدري ، الآن عرض زواج رُفض من أحمد صفوت "

صمتت هنيهة ورُغماً عنها تبدلت النبرة " وعرض محبة من سامي"

وعادت بوجهها للخلف متوردة وخجلى لأكثر من سبب

أكملت فاتن ما لم تصرح هي به

"وحيرة "

أومأت برأسها موافقة

هبت فاتن واقفة وسحبتها معها نحو ركن منزوي بالشرفة حيث قفص به عصفورين

"هل ترين هذا الطائر ؟"

وأشارت بأصبعها نحو طائر مستكين ..هناك شيء مربوط بأحد جناحيه .

"بلى "

ودققت نجلاء النظر به وهي تستمع إلى فاتن

" جناحه مكسور ، حوله جبيرة حتى يلتئم الكسر

لن يستطيع الطيران حتى يلتئم "

ونظرت إليها مربتة على وجنتها

" أليس كذلك نجلاء؟ "

بادلتها نجلاء تلك النظرة العميقة وفهمت ما ترمي

إليه

"بلى فاتن .. بلى "

أمسكت كفها وأجلستها ثانية وخاطبتها بما كان

يجب أن تسمعه

" لن تخرجي من كنف رجل إلى آخر دون أن

ترمي قلبك أولاً

وتفكيرك برجل آخر ليست خيانة نجلاء "

ولم تزِد حرفاً

هذا القلب الذي جهلت صاحبته بحركاته وسكناته

هذا الذي دخل معترك الحياة مبكراً

هذا الخافق على اليسار الذي تحمل الكثير

بحاجة إلى ترميم ،ترميم لن يقوم به سوى صاحبته

صاحبته التي يجب أن نتعلم كيف تداويه بمفردها .

***

رنين هاتف بوقت متأخر

وهما رُغم إحالتهما على المعاش إلا أنهما لا زالا

محافظين على عادات النوم المبكر

انتفضا كليهما ظناً أنها المكالمة المنشودة

رفع محفوظ السماعة وأجاب

"ماذا ! "

"حسنا يا ولدي اهدأ فقط وسوف نلتقي صباحاً"

" لا عليك ليس هناك إزعاج فقط انتبه لنفسك ولا تخرج الآن "

"إلى اللقاء"

كل هذا ونيرة لا تستمع لما يحدث على الطرف الآخر كل ما سمعته كلمة "ولدي "

فور أن وضع السماعة ثارت عليه

"لماذا لم تعطني الهاتف ؟ هل هو هاني ؟ أم كريم؟"

التوت شفتيه بغضب " ليس هذا ولا ذاك ، انه عليّ"

بكل يأس استفهمت "عليّ ؟ "

"بلى نيرة عليّ ، هو من تذكرني ، هو من لجأ إليّ عند أزمته "

حاولت تغيير الموضوع "ما به عليّ ؟"

جلس على مقعد الصالون يلتقط أنفاسه ثم أجاب

" كان يبكي ويطلب مني أن يلتقيني بضرورة مُلِحة"

جلست نيرة إلى جواره وأمسكت كفه " لم لا تسأل بالخارجية يا محفوظ لربما أصابهم سوء هناك!"

تنهد بضيق شديد

ضيق حاول طرده فورأن سمع صوت عليّ على الهاتف بدلا عنهما لكنه أبداً لم يرحل

"لن أسأل نيرة ، بعد ما حدث لن أسأل ، وإن أصابهم سوء سوف يعلموننا لا تقلقي"

أجهشت بالبكاء حتى اهتز جسدها فاقترب منها محتضناً إياها ومن بين شهقات البكاء سألته

"لم نخطيء محفوظ ، لم نخطيء بشيء ، لماذا حدث ما حدث ؟"

زاد من احتضانها وأجاب بما يعزي به حاله كل يوم

" لأننا مؤمنون وأراد الله اختبارنا بالصبر ليعلم كم سنصمد "

ابتدعت قليلا تمسح وجهها بكفيها مستفهمة

"الصبر!"

"وهل الصبر يكون وهم على قيد الحياة ؟"

أطرق رأسه بأسى وهو يجيب

" هنا يكون الصبر أشد "

أمسك بكفها متوجهاً إلى المطبخ " هيا ، هيا لنعد كأسين من الينسون حتى نستطيع معاودة النوم من جديد "

تلك الصُحبة ، هذا الرجل ، بالكون كله ، لعل الله أراد به العوض دون أن تدري .

***

وبين من تعد كوبين من الينسون كانت هناك من تُعِدُّ قدحاً من القهوة

لم يكن الأول كان الثالث فسابقيه انسكبا من (الكنكة) على الموقد وهي شاردة

عندما أتاها صوته

"مريم ، كل هذا من أجل كوب قهوة "

أطفأت الموقد وأفرغت السائل بالقدح وأجابته

" قادمة مجدي ، ها أنا قادمة "

وضعت القدح أمامه وجلست جواره يتابعان التلفاز

كانت حلقة لبرنامج تليفزيوني يتابعانه بذات الموعد كل أسبوع

اعتاد أن تحاوره ، لا تترك تفصيلة على الشاشة دون أن تعلق عليها واليوم هي صامتة .

"ما بك مريم ؟"

ولم تسمعه فلم ترد ، قام فأطفأ التلفاز وجلس جوارها وهي بعالم آخر

حرك كفه أمام وجهها ثم صرخ "مريم "

فزعت حقاً فصرخت بدورها "ماذا هناك !"

كتف ذراعيه ونظرإليها

"أنا من سألت وأنا من ينتظرالإجابة "

صمتت تماما ولم تستطع الرد اقترب منها وجلس جوارها تماما ملاصقاً لها

" هل هاتَفَكِ أحد من العائلة ؟"

حركت رأسها يميناً ويساراً في إشارة للرفض

ثم نظرت إليه وسألته " مجدي .. هل لا زلت تحبني "

مجدي زوج حنون وعاطفي بطبعه ويحبها حقاً فلم السؤال الآن !

"بالطبع حبيبتي ،لم السؤال ؟"

نظرت بعينيه " ولن تتركني مهما حدث ، حتى وإن لم نرزق بأطفال ؟"

أمسك كفيها وقبلهما " هل هناك من يترك قلبه خارج جسده ! "

هزت رأسها رفضاً وهي مبتسمة فأكمل لها

" كذلك أنا لن أترك قلبي بعيدا عني "

شدت بكفها على كفه بتشبث تستمد منه القوة فغمزها مداعباً

"يبدوأنك تفتقدين إلى بعض الحنان وأنا السبب "

وأمضيا ليلتهما محلقان بعيداً ..بعيداً جداً

هو كان يظن أن ضغط المجتمع بالإنجاب قد أثقل عليها

وهي حاسبت نفسها على مشاعر تلقتها سمحت لها أن تأخذ حيزاً بيومها ببيتها بتفكيرها

مشاعر كانت يجب أن تموت عند عليّ لكنه تركها حتى تمكنت من شعاب القلب

والآن يجب أن تموت أو تُميتها هي بنفسها

الشفقة أو العطف لا مجال لهما ولا لغيرهما مريم ،

هل تفهمين !

***

صباحاً التقى محفوظ بعليّ قبل دوام العمل

أحد المقاهي على البحر وكوبين من الشاي

وشاب شارد بعيون محلقة بسواد وذقن نامية ومثال

متجسد للكآبة

"ماذا بك يا ولدي ؟"

جذب شعره بقوة وأطرق رأسه بحيرة قاتلة وصمت

انتابت محفوظ الحيرة الشديدة

"هل تعاركت مع أندرو ؟"

هز رأسه نافياً

"هل ضايقك أحد الزبائن "

هزرأسه ثانية

بدأ الرجل يفقد صبره

" حسناً ماذا بك ؟"

شرد بموجات البحر المتكسرة قرب قدميهما والتي

انتهى دورها وعلمت مصيرها

"سيد محفوظ هل بإمكاننا التحكم بقلوبنا ؟"

"هو حبٌ إذا "

حادث محفوظ نفسه بذلك

وعليه أجاب بما يجب أن يقال

"نعم يا عليّ بإمكاننا ذلك "

صُدِم الشاب فسأله

" بإمكاننا التحكم بمن يدخل ويخرج ،من يبقى ويملك الشغاف كلها ، ومن يرحل تاركاً إياه بسلام ، من يملك الدقات دقة دقة بكل حين ، ومن يمُر كموجة مثل هذه بكل هدوء"

تنهد الرجل واستعد للمهمة الكبيرة

" ليس بكل هدوء بالقطع يا عليّ لكن يمكننا ذلك"

صمت كلاهما قليلاً كل بما به

" أريد نسيانها سيد محفوظ ،تزوجت ورحلت وأخذت قلبي معها "

يا ويح قلبك يا عليّ ، اخترت من اختبر الأمر بكل قساوة لتسأله

"ولماذا تريد النسيان؟ هذا مستحيل ، لما لا تفكر بما تستطيعه؟"

زوى عليّ ما بين حاجبيه بتساؤل فأكمل الرجل

"حب كهذا مستحيل النسيان ، لكن الأسهل أن نرحل مكان صاحبته بقلوبنا "

اعتدل الشاب بجلسته ونال الكهل كل الاهتمام

"وكيف هذا ؟"

عدل الرجل من وضع منظاره الطبي وأخذ رشفة من كوب الشاي بالحليب

" الإجابة ليست بسهولة السؤال ، والفِعل أصعب من كليهما ، لكن علي أن أسألك :هل تريد نسيانها بالفعل ؟ هل تريد أن تستعيد قلبك كاملاً؟ أن تمنحه لأخرى ستمنحك القلب بإخلاص"

صمت عليّ قليلا وشرد بالأمواج ثانية ثم أخذ نفسا عميقاً وأجابه بعد عناء

"بلى "

أسند محفوظ ظهره للمقعد وعدل من وضع قبعته وحادثه بجدية

"فلتترك نفسك لي إذا ولا تسأل عن شيء ، اتفقنا؟"

مد عليّ كفه إليه ، فقابله محفوظ بكفه كذلك

"اتفقنا "

نهض محفوظ وطالبه بالنهوض أول خطوة يجب أن يخطوها هذا المحترق عشقاً

"بدل ثيابك وصفف شعرك ولاقني عند أندرو

سوف أسبقك لا تتأخر "

ورحل بالفعل وترك الآخر بقرار واجب النفاذ.

*****

بالطريق إلى العمل قابلته نجلاء

يبدو وأنه تخلص من حيرة الأمس

وهي اتخذت قرارها بالفعل

ألقت الصباح عليه بكل ثقة

"صباح الخير سامي"

وواصلت طريقها إلى العمل تزين وجهها أجمل ابتسامة ، ابتسامة قوة لم تحظ بها يوما

وهو شملت الابتسامة وجهه كله وهو يجيبها

" صباح الخير كله "

وصلت العمل وجدت محفوظ بانتظارها

حضرت له أحد مخفوقاتها المميزة

موزاً وحليب وسوداني ومعلقة مثلجات فانيليا

جلس يحتسيه منتظراً لعليّ على أحد المقاعد عندما وجد من يدلف إلى المطعم

فتاة شابة جميلة تتلفت يميناً ويساراً

وبصوت ناعم سألت " هل عليّ هنا ؟"

الفصل السادس عشر

قارورة الأمل تُتَجَرِّع على مهل

مغمور باليأس متشبث بالأمل مترقب لخطوة ، لفتة ، إشارة من إشارات القدر تهديه لطريق آخر ، توجه القلب لقِبلةٍ أخرى

ودلف فسمع الصوت الذي أراد محو أنغامه من أوتار قلبه .

واقترب فارتوت العين من الملامح التي لم تغادر الفؤاد .

عيناه مثبتة عليها لا يحيد قيد أنملة ، هي ذات العيون الحالمة تحاكي محفوظ بجلسة يبدو عليها الود تحتسي مشروباً ما لا يعنيه تكوينه .

رشفات قليلة سريعة بكل مرة كما عادتها ، يتخللها العديد من الثرثرة المرحة عن ارتيادها لشاطيء وكيف أنها لم تكن ترتدي لباس سباحة فغمرت جسدها بالماء بملابسها لأنها لم تقاوم إغراء الماء هي

و .....

وسمع اسم الزوج صاحب الأحقية كيف شاركها المرح ــــــــ ثم صم أذنيه عن الباقي .

أي حرفٍ يُضاف أو يُمحى لن يغير من صرير الألحان الذي بات يدور الآن برأسه

وبوجه متجهم أقبل عليهم ملقياً سلاماً مستسلماً

وكأنه يودّعها بكل حرف من حروف السلام ،

يرفع رايات انتصار القدر بحكاية كان طرفاً بها ثم

أُقصِيَ بغير رجعة .

والبتر يكون علاجاً فاعلاً عند نحر العشق

"ما الذي أتى بكِ هنا مريم ؟"

هبت واقفة بحرج استحوذ عليها ومن حولها وتلعثم

يُحكم شباكه على حديثها

" أ أ أ كنت كنت أريد الحديث معك "

ادعى اللا مبالاة و حاد ببصره قليلاً حتى لا تتبين

كذبه

"عن أي شيء نتحدث؟"

وهنا ارتأى الجمع أن يتركاهما بمفردهما

هناك بوح ما كان يجب أن يغادر حدود القلب

وبذور مشاعر ما كان لها أن تُسقى

وأمل مكبوت منذ أمد ما آن له أن يطفو على الوجه

وحرب طاحنة بين الأمس والغد عليها أن تنال هدنة

أصبحا بمفردهما تخاطبها بصلابة مدعاة لا تليق به

"لماذا أتيت مريم ؟"

مريم لم تكن يوما قاسية ، بل الواقع من قيض أركان الحب ، من فرض عليها القسوة.

كيف ستواجه أسرة فعائلة فمجتمع بمفردها ليست هي تلك القوية التي تربط كفاً بكف بوجه الحياة ،وتشن حروب في سبيل الحب .

الحب .. والحب الآن بات آخر وجدران بيته وذكريات صنعتها معه ،لذا كان البتر هو الحل.

"جئت لأتمم حديثنا عليّ ، لأضع جملة تمت بالختام "

رفع كفه بوجهها موقفاً إياها من استكمال سرداً ما رغب بوروده على مسامعه

أغمض عينيه قليلاً يستحضر طاقة الحديث وسحب نفسا عميقاً بدا وكأنه ابتلع به هواء البحر ثم تحدث بكل هدوء

"وأنا أعفيك من الحرج وأخبرك أني قد وضعت كلمة الختام ، ومن اليوم من هذه اللحظة لن يكون لكلينا مكان بحياة الآخر "

لم تدرِ هل عليها أن تزفر راحة أم ألماً

هناك جزء بالعمق ذاك الذي تأثر بتصريح المحبة شعُر

بالحزن دون سبب ، لكنها استسلمت للبتر

كعلاج سريع وحتمي.

وقفت على مقربة منه متصنعة ابتسامة هادئة

وبنفس الصوت الوديع

"إلى اللقاء علي "

وجاءت إجابته " وداعاً مريم "

ولم يلقِ عليها نظرة وداع

بدفتر الحياة هناك صفحات يجب أن تُطوى بما بها

من ألم أو أمل أو شجن أو عشق

تُطوى وتضغط عليها كيلا تُفتح ثانية

لن تُمزقها ، ولا تسأل لِمَ فالإجابة مجهولة

ربما تحتاج إلى استراجعها بعد حين

وربما تسقط من حسابات الذاكرة فتنال جنة

النسيان .

***

مشاكسة وبدايات

وما أجمل البدايات ،ساحرة ببريق زاهٍ

تأسر القلب ..ترفرف لها الروحِ

وقالت "صباح الخير سامي "

وآه من سامي وهو يرى الابتسامة الواثقة ويسمع

حروف اسمه من فِيها ، ما بالها لو قالت

"أحب سامي "

وسجل في مفكرته (٢٠٠٣/٩/٤ ، قالت صباح

الخير)

هو رجل التدوين وهي امرأة التجارب

هو يثق بما تخطه يده ، وهي تثق بنتائج معاركها

وراهن نفسه أن مفكرته ستزخر بمئات التدوينات

وأراد أن ينقل إليها العدوى فأوقفها في طريق

العودة مباغتاً

هي علاقة كالقهوة ..لا تشرب على عجل

كل خطوة بمذاق ..والمفارقة أنه لكليهما

" ٢٠٠٣/٩/٣ أخبرتك أني أحبك دونيها في

مذكراتنا معاً"

باغتها! نعم

تروقها المشاكسة! بكل تأكيد

لكن هناك أصول لابد أن يعلمها وحدود عليه ألا يتخطاها

بترت الابتسامة في مهدها وادعت الجدية

" سامي عبدالعزيز عليك ألا تتخطى حدودك معي "

واتسعت ابتسامته فشملت الوجه والقلب بل وألبسته جناحات ليحلق عالياً فعقب مباشرة بحماس وهمس

"٢٠٠٣/٩/٤ لثاني مرة أسمع حروف اسمي بصوتك

وتلكأ قليلاً ثم أضاف "بصوتك أنت نجلاء "

وهي الجديدة بدروب المحبين -إن صحت التسمية- لن تنفي أثر الكلمات ، لكنها أفاقت من استغراقها سريعاً

"عمت مساء سامي "

ورحلت قبل أن يضيف تاريخاً جديداً لعشق مجهول الدروب لكليهما

ثم حدثها عقلها "هذا إن كان عشقاً بالأساس"

متأرجحة بين يوم وغد

مترددة باستهلال الألحان

مقيدة بخفايا الماضي

ومكبلة بكل أنواع الخوف

وحديث العاشقَين وحكايتهما لا زالت أصدائها في عقلها

والنهاية المؤلمة لطرف دون الآخر تهرب منها

حديث عليّ معهم جميعاً بعد رحيل مريم أدمى قلبها

"أريد حياة "

وكأن قلبه الذي تبتل بمحراب حبها كان بوضع

موات

وتلك التي ينعتها الجميع بالصغيرة تفكرت عن ماهية

الحب والحياة

هل نحيا بالحب

هل نحيا للحب

لم تصف عليّ بالاستسلام

ولكن هل صارت هي المستسلمة الآن ؟

هل في طريقها لاستبدال حب حسين بغيره ؟

والإجابة ضاعت بدهاليز العقل ولم تغادر خزائن القلب وبقيت على حواف اللسان

وعلى الرغم من بعض اليقين مما تعتزم عليه

وجدت نفسها تبتاع دفتراً صغيراً بلون السماء وقلماً غير قابل للمحو

وتكتب بأول صفحة

٣/٩/٢٠٠٣ ولم تضف المزيد .

***

رنين هاتف بالثالثة صباحاً

لطالما انتظراه فلم يشعرا بالذعر

نهض محفوظ من نومته واعتدل جالساً بالفراش

لكنه لم يهرع للإجابة

والتفتت إليه نيرة متعجبة ، فاعتدلت ترتدي خُفها

سريعاً لكنه أوقفها جاذباً ذراعها وبصوت جمع

الأمل واليأس "لا تجيبي مباشرة "

زوت ما بين حاجبيها تعجباً واستفهمت بصدق

"ستفوتنا المكالمة محفوظ ! ألا تنتظرها مثلي ؟"

وصِدق بصِدق "بل أكثر منك،فقط ...."

والتصريح هنا موجع وجع مسببه ، والألم هنا شامل لكل الحواس

ماذا سيخبرها ؟

أنه يجري اختباراً يعلم يقيناً رسوبهم جميعاً به يستجلب منهم ما كان يجب أن يكون فطرياً يبحث عن قلق ،اهتمام،طيف لأي مشاعر تدل على أن هذا الموجود على يسارهم ليس صخراً صلداً خالٍ من أي لين .

وفهمته رفيقة العمر فربتت على كفه ومسحت العبرة

"سوف أُجيب "

وأراد أن يسابق خطواتها لكنه مافعل

واستمع إلى الثرثرة

"هدى ،حبيبتي كيف حالك ،وزوجك والأولاد"

وتتلاحق الكلمات لتخرج من فمها وكأنها تخشى أن

تنهي محدثتها المكالمة مبكراً

"ماذا ! أموال !"

وهنا شعر بوخز بكتفه الأيسر امتد ليشمل الذراع

المهاتفة ليست اطمئنان وليست غيره

لم يرسبوا بالاختبار فقط ، بل خرجوا خارج أي تقييم

الوخز يزداد مع سماعه لحروف زوجته

"ألا تملكين أي إحساس أنت أو أخويك بعد ما فعلتموه "

وتحتد عليها لأول مرة بألم دامع

"ليتني ما أنجبتكم جميعاً "

حاول مناداتها لكن صوته لم يغادر حلقه وبدأ يشعر بتيبس بالقدم اليسرى وثُقل باللسان

أغلقت الهاتف ووقفت قليلاً تحاول مداراة الدمعات وتفند في عقلها عن كذبة تطرحها عليه لكنها حين دلفت الحجرة لم يخرج منها سوى صرخة "محفووووظ"

كان ملقى على الأرض يجاهد ليصل إلى الفراش فلا يستطيع وبدأ فمه بالاعوجاج

فوراً طلبت سيارة اسعاف

وبعدما وصلا إلى المشفى تذكرت عليّ فهاتفته

أرادت دعماً ، سنداً فقدا أكثره بفعل دوائر الزمن التي تدور

أخبرها الطبيب بكل هدوء

"جلطة و استطعنا التغلب عليها بفضل الله "

لم تهتز ولم تنهال العبرات فقط كانت تردد

بديناميكية "الحمد لله .. الحمد لله"

مستندة على الجدار الزجاجي خاصة حجرة العناية

المشددة

تنظر إليه من خلفه تلك الأنابيب الموصولة ،وذلك

الصوت الذي يدق برتابة إشارة لانتظام الدقات .

ثم سمحت لها الممرضة بالدخول لبعض دقائق

فدلفت بكل سكينة ، جلست جواره واحتضنت كفه بحنو ، تنظرإلى وجهه المتعب وتطوف بها الظنون ثم وجدت نفسها تخاطبه :

"كنت ستتركني يا محفوظ ! هل هانت عليك عشرة العمر ! من لي من بعدك!

أنت أبي وأخي وابني المدلل "

ولم تمنحها العبرات رفاهية الراحة فزفرت بألم

" أخذتني صغيرة وكبرت على يديك ، كنت أبي بعد أبي ، أنت من علمني تفاصيل الحياة والبشر ، ومن أخذ بيدي بطريق طويل قطعناه معاً "

وانثنت شفتيها بشبه ابتسامة وهي تُكمل

" أتذكُر حين علِمت بحمل هاني ،كيف أخبرتني أنك سيكون لك الآن صبي وفتاة ،وأنني سأظل دوماً ابنتك الكبرى "

ثم تحول الابتسام إلى شجن " وبقِيت أنا ابنتك الكبرى والوحيدة "

وكأنها استفاقت إلى حقيقة ما فغضبت وخاطبته بحدة

" كيف تسمح لنفسك بالرحيل ! هل استئذنتني ؟ والله لوفعلتها لكنت قتلتك "

شعرت بأحد أصابعه يتحرك حركة بسيطة جداً وهنا تدفقت الدموع وتكررالحمد "الحمد لله ... الحمد لله"

واختلطت الدمعات بالبسمات وارتجاف الجسد من نشيج بات وشيكاً

انتهى موعد الزيارة ، وعندما خرجت وجدت عليّ وما إن رأته حتى انهارت تماماً

شهقات ودموع وألم وجرح حيّ ينزف كل يوم تخفيه عن رفيق العمر.

وأخذت تلوح بأصبعها تجاه الحجرة وتتحدث بصوت مختنق من بين دموعها

" أرأيت يا عليّ ! أرأيت ما فعلوا به ! من بقِي لي بالحياة كاد أن يتركني وحدي بسببهم "

وارتفع صوت البكاء حتى اجتمع من بالمشفى ، فأمسكها من مرفقها وأخرجها حتى الاستراحة ، كوباً من الماء وبعض لحظات الصمت قطعها هو بتأمل وفلسفة

" لِمَ القسوة ؟"

طالعته بوجوم ، تعلم قصته وتعِي الهدف من سؤاله

" أخبرني يوماً أن الحياة عادلة ، أي عدل فيما يحدث معه الآن ! هل يستحق هو هذا المصير ؟ "

ارتشفت بعض رشفات الماء ونظرت بعيداً ، إلى عمر مضى كانت به نعم الأم وبالأخير نالت الهجر هجراً غير مكتمل بوجود محفوظ ،صُحبته هوّنت كثيراً من الألم فوضحت لعليّ

"وأنا أيضا أخبرني يوماً أن الله يختبرنا ، واليوم يا ولدي أُفكر لعله اختار لنا الخير ، من يدري ماذا كان يحدث لو بقوا هنا بنفس الوطن معه بهذا الجفاء "

شرد عليّ بألمه الخاص وتفكر مثلها

كان غارقاً بين سحابات كان ، لو كان ، يكون

وما كان قد كان وانتهى

ولو كان غيره ربما ما مضى

وما يكون اختاره لنا القدر وعلينا الرضا

ولعل صفحة مريم كان أفضل لها أن تُطوى هكذا

قبل أن ينزف القلب أكثر

وتملكه نشاط مفاجيء فهب واقفاً مخاطباً إياها

"هيا سأوصلك إلى المنزل"

زجرته بعينها وبصوتها الدافيء أوضحت

"وهل لي من منزل سوى جواره وفي محيط أنفاسه

يا عليّ"

اتسعت ابتسامته يشملها الحنان فأومأ برأسه موافقاً أحضر لها بعض الأغراض وأكد عليها أن تجيب على الهاتف المحمول الخاص بمحفوظ حين يهاتفها مطمئنا عليهما .

ربتت على ظهره بحنو أمٍ فقدها بإرادتها وبلا إرادة قبّل كفها ببر ولد فقدته بإرادته.

وامتلأت العيون بالدموع فخاطبته بصوت مختنق

"أرأيت كيف يأتي العدل ! "

ويجاهد اختناق الصوت فيجيب " بلى ... بلى "

ورحل .

*****

كن أنيقاً بمشاعرك

لا تنثرها بكل حين فتفقد الرونق

ولا تدخرها فتحيا الجمود

وسامي أنيق ، ولا يريد من نجلاء الهروب لذلك

بهذا الصباح لم يعترض طريقها فقط سلام أنيق

مثله

"صباح الخير أميرة "

ورغما عنها ابتسمت وردت التحية

"صباح الخير سامي "

لم يضف المزيد وهي ارتاحت لذلك فأكملت طريقها

شرعت مباشرة بتحضير مخفوقاتها وبدأ الزبائن بالحضور وعلي مختفي

انتصف النهار ولم يأت

أصابها القلق ، استشعرت حرجاً أن تطلب من أندرو مهاتفته ، واحتارت.

أنهت عملها وحل المساء ولم يظهر

في طريقها للمنزل فكرت أن تهاتفه على ذلك الهاتف الذي يحمله

يا إلهي لكنها لا تملك الرقم

حسناً ستحضر الرقم من فاتن وتهاتفه علها تطمئن

من الهاجس الملح عليها بحدوث خطب ما .

حمدت ربها أن سامي لم يكن بالورشة بطريق

الرجوع ، لا طاقة بها لمناوشاته الآن

نقرت الباب بنقرات سريعة متوترة وفتحت فاتن

فتوجست من وجهها سوءا

"ماذا بك نجلاء؟"

"لا شيء لا تقلقي ، إنه علي ..لم يأت اليوم

ولا أدري لم أصابني القلق

هل يمكن أن تعطيني رقمه لأهاتفه "

انتقلت إليها حمى القلق لكنها حاولت استحضار الهدوء

"لعله بخير بإذن الله ربما احتاج إلى الراحة بعد ما حدث أمس "

"سوف أحضر الرقم "

وأخرجت محفظتها التي تسجل بها كل الأرقام وأخرجت الرقم وخطته على ورقة صغيرة

اختطفت نجلاء الورقة سريعاً وخطت خارجاً مباشرة تاركة أميرة بصحبتها

وقبل أن تبتعد أكثر كان صوت فاتن

" لا تتأخري أريد الاطمئنان"

بعد خطوات كانت بإحدى الكبائن تنقر رقماً

فأجابها عليّ بصوت ضعيف

" مرحباً علي أنا نجلاء ، هل أنت بخير !"

قص عليها ماحدث لمحفوظ فشهقت فزعاً وانسابت

دموعها وأخبرته أنها قادمة فوراً للاطمئنان

خرجت مسرعة بوجهها الباكي فاصطدمت بسامي

الذي ارتعب من هيئتها

"ما بك نجلاء ؟"

حاولت التماسك وأخبرته ثم أسرعت الخطا بالرحيل

أوقفها بصوته "انتظري هنا ، سوف آتي معك "

ترددت بالموافقة ، كيف سيرافقها بمفردهما ، تسير

معه بالطرقات ، وأقوال الناس وهي وهو وما بقلبه

أوقف تفكيرها بإقرار

"لن أتركك بمفردك بهذا الوقت "

ثم بدد بمخاوفها التي كان على علم بها

" المشفى قريب لا تقلقي نجلاء "

"سوف أخبر فاتن أولاً "

في الطريق إلى المشفى أصرت على الذهاب سيراً على الأقدام ، كان واضعاً كفيه بجيوب بنطاله يتقدمها بخطوة واحدة لا أكثر .

" هل تعرفيه منذ زمن ؟ "

والسؤال كان عن محفوظ ، والهدف سماع الصوت وتقصير الطريق و.. والدخول لعالمها على مهل .

" منذ وطأت قدمي أرض الاسكندرية "

وكانت فرصة لامتداد سيل الأسئلة

" وأين كنت قبل الأسكندرية ؟"

وبذات الكذبة أجابت "المنصورة "

وبدا مترددا في السؤال التالي

"ولماذا أتيت ؟"

توقفت لحظة وسمع هو سكون وقع الأقدام فالتفت

إليها ، ووجد نظرة حائرة

أخبرها أنه يدون كل شيء بعلاقتهما

والآن سيدون أول كذبة

هل عليه أن يملأ الدفتر بكذبات

أشفقت عليه وعلى حالها

سقطت هي بشبكة نسيجها حادٍ مؤلم بغير إرادتها

فلم عليه السقوط مثلها!

ما أرادت له بداية متعثرة ونهاية متأرجحة مفتوحة الأطراف مجهولتها

كيف سيخطو أولى خطواته نحو ماض طمست هي معالمه عن الجميع

حتى فاتن ما أطلعتها على ما نحر القلب

وكأن ألحانهما معاً لم تجد من يقود الأوركسترا

لم تبغ بسماع نشاز

أرادت عذب الألحان والتي لن تأتي إلا بعد فتح دفاتر الماضي واقتباسها منه

فخاطبته بشفقة وإشفاق عليه وعلى حالها

"أخبرتك سابقاً أنك تقذف دلواً ببئر تجهله "

اقتربت منه خطوة وحاولت تلاشي الخجل والنظر إليه

" وأضيفك اليوم أنني على غير استعداد لإمدادك بماء صالح للشرب "

التقت نظراتهما لثوان قبل أن تخفض بصرها

وبتلك الثواني رأى ماضي كان به ما كان لكنه لم يفارقها ويبدوأنها لا تستطيع مفارقته .

وشك ...شك بقدرتها على فتح صفحة جديدة معه أو مع غيره

وقبل أن يفتح فمه باغتته بما رأته بعينه

"لم يئن الأوان بعد سامي "

أومأ برأسه وابتسم معقباً

" في انتظار الأوان متى حان "

وواصلا المسير حتى المشفى

***

عند الصدمات

تهتز الروح ، يذبل الأمل ،تنهار القناعات.

عند الصدمات

تسقط النصائح ، يُضرب بالمنطق عرض الحائط ، ويتمكن اليأس.

عند الصدمات

يسود الأسود ، وينمحي الركن الركين الذي يتحملنا دون كلل.

عند الصدمات

تختفي أنت ويحل محلك نسخة منك أشد ضعفاً وهشاشة وخوف.

وهو .. لآخر لحظة متمسكاً بخيط رفيع من أمل ، يختلق حججاً وأعذار

يفند بخياله أسباباً للاختفاء

يعذر ما يجهله وينتظر فتات الفتات ليطمئن قلبه لا ليرتوي الفؤاد من محبة معدومة.

وعندما سمع كلمة أموال انهارت كل مقاومته لعن الدنيا وغرورها ،لكنه أبداً لم يلعنهم

تأرجح قلبه بين عفو وغضب وحزن وخيط من أمل أبى أن يقطعه

فسقط صريع معركته الخاصة

أفاق على وجه نيرة وعليّ ودموعهما الفرحة بالنجاة

لكن أي نجاة تلك التي يعقبها خيبة مستمرة إلى الأبد

وهو الداعم دائماً سقط بهوة الاحتياج إلى الدعم

وكانت ثرثرة عليّ خير رفيق

ذلك الذي يتعافى من ملحمة عشق ،تناسى ما به

وعاد صاحب الروح المرحة

ببهجة يحتاجها قبلهم جميعاً

" وكنت تظن طبعاً أنك ستفلت من عليّ ونكات

عليّ ، هه هه هيهات لك ذلك سيدي

سوف أصلك بأي مكان "

وأجبره على التبسم فأكمل المسيرة

" ااه علمت لقد تعبت من تلقي الخسارة على رقعة

الشطرنج فادعيت المرض "

وهب واقفاً أمامه مقرباً وجهه منه بهمس

"سوف أحضر الشطرنج هنا ونتلقى هزائمك على

فراشك "

وختم حديثة بضحكة انتصار متقطعة " ها ها ها "

وكانت نيرة تنظر إليهما بسعادة حقيقية وامتنان

لهذا الشاب الذي سد فراغاً كبيراً كانت حيرى

كيف تملؤه

حينما وجدا باب الحجرة يُفتح وجسد ضئيل يدخل

بكل هلع

"أنت بخير !"

مشفى ورائحة مطهر ورتابة جهاز يعُد الدقات

وذكريات طحنت رأسها فتوقفت قليلاً تلتقط

الأنفاس

وهنا ابتسم بمحبة شديدة وبصوت ضعيف جداً مازحها

" الآن تلبين دعوة الحضور،سوف أمرض كل يوم"

وهنا انسابت الدموع على وجهها ، رأت به أباً افتقدته واستشعرت حنيناً لأيام مريحة

بالضبط ها هو التوصيف " مريحة " ما كانت تبذل بها جهدا عقلياً ونفسياً كما الحاضر.

أشفقت عليها نيرة فاحتضنتها بمحبة فزاد النحيب ، فكان التدخل من صاحب البهجة الحاضرة

" هل تبادلت الأدوار يا بسكويتة ، فلتحتضني السيدة نيرة وتربتي على كتفها "

كانت جلسة حنونة انصرفت منها بوعد بالقدوم غداً

وأتت غداً وبعد غد وبعده وبعده لأيام متتابعة

قص عليها عليّ قصة الزوجين اللذان أنجبا ثلاثة أبناء

رعاية وحنان ومحبة

كبر الأبناء

أتت منحة هجرة لأحدهما عارض الأبوان الغربة

أصر الكبير وسافر دون علمهما

فوجئا بخطاب على المنضدة حينما استيقظا يخبرهما

بالرحيل وأنه سوف يأتي بزيارات

وبأول زيارة بعد عام أقنع أخاه أن يلحق به

وبنفس الآلية فرّ دون مواجهة

وجاءت القاصمة بصغيرتهما التي توسما بها الحنان

تفعل المثل

والحجة حياة أفضل للجميع

تأقلما مع الوضع انتظاراً لزيارات متبادلة

فكانت القسوة هي الصدى

زواج تلو زواج واستقرار نهائي

لم يكلفوا أنفسهم عناء دعوتهم إلى زفاف ولا مشقة رحلة إلى الوطن لتعارف الأصهار الجدد مع العائلة

واختلفت طبيعة الحياة بمفردات جديدة وانحلال مسمى حرية شخصية

ثم انقطاع ، بداية كان لأسابيع ثم شهور ، ثم غير معلوم المدة.

وجاء سؤالها منطقياً لعلي

" لماذا ؟ "

التوت شفتيه علامة الجهل بالسبب

" هذا ما يؤرقهم ليل نهار ، ماذا قدمنا لننال هذه القسوة "

كانت تنهي عملها وفي طريقها للرحيل وبعقلها طواحين أفكار

كيف يلفظ الإنسان محبة خالصة ؟ كيف يرى بالحب الفطري قيود ؟ كيف تتملك القسوة من قلب نشأ على خير فتعمي بصيرته عن أي صواب ؟

وهنا تذكرت من هربت بسببه ، جامد القلب وأعمى البصيرة (عادل)والذي ليس بعادل أبداً، ترى كيف حاله هناك ؟

خلفت وراءها قرية تحترق

وما التفتت لترى الرماد

كانت النجاة هي الهدف

وإن شابها بعض الأنا فلا ضير

وعن الرماد فقد نثره أحدهم بوجه الجميع بعد رحيل الأب

من !

ذلك المغرور بقوته المفتون بسلطة لا طائل منها سوى الهم

وأسقط أول لعناته على عائلة إسماعيل بتضييق حصاره على الأب بالعمل

وضمن طاعة أصحاب الكثير من الحقول خوفاً من بطشه أو تعارض المصالح

وظن أنه المتحكم بالرزق ، أعماه بريق الأموال وانصياع الضعاف

ووجد إسماعيل رزقاً بتجارة بسيطة شاركها مع أحد أقربائه بقرية مجاوره

وكان ولده صاحب رأس المال .

والمتجبر مارس تجبره على الحلقة الأضعف

الزوجة المستكينة الراضية أم البنات

وفاجئها بتصريح زواج يأتي على عنوان المنزل يخبرها

بزواج من تحملته وهي لم تكمل العشرين ، من عانت

من جفائه ، من تقبلت غضبه وبطشه بفتياته .

الزوج المصون تزوج لينجب الذكور

لم تثور كما النساء ولم تقدم تهديدات ولا إغوائات

فقط أخبرته أنها ستعود إلى أبويها وتتركه

وللحق لم يكن وغداً للختام فقبل العرض

وتصلها الأخبار

عروس بنصف عمره ، وهدايا وثياب ، ونزهات

ماذا!

عادل يدلل ويقبل الدلال

لم يؤلمها سوى الأخيرة فلطالما تدللت عليه فلم تجد

سوى الجفاء

وهو كان كمن ارتدى ثوباً لا يخصه

حب التجربة ، إحكام سيطرة ، نفاذ قرارات ،

إنجاب ذكور

ما الفارق !

حدث الظلم ولوث الرماد الكثير من القلوب

العم وابنته اللذان تحولا من شريكين لجنديين

طائعين في مملكة الحاكم بأمره

و "فاطمة" التي صارت لا حول لها ولا قوة بعد

رحيل الأب

اقتصر يومها على أداء الصلوات وانتظار الزيارة من

سلوى وبناتها

والدعاء كل يوم بقدوم داعي الموت لتلقى الأحبة

بجنة الخلد

قرية كانت تحترق ، لكنها لم تقم من أنقاضها

ومنزل كان عامر صار طابعه السواد وسكنه الحزن إلى الأبد

حتى نبأ حمل العروس بذكر لم يحرك بفاطمة شعرة

ما الفائدة من نسل ملعون بأب ميت القلب أو فلنقل أمات قلبه بيده

ونسل مفقود لحبيب راحل تمنت أن تكبرُ أمام عينيها يوما بعد يوم لتشاهد ولدها بها

وبالفعل لوكانت شاهدتها لوجدت نسخة مصغرة من حسين

باتت تتحدث وتشاكس الكبير والصغير بعودة أبيها التي غابت وحضرت بها .

ولا أسوأ من انتظار الغيرآت.

*****

خرج محفوظ من المشفى

وواظبت هي على زيارته كل يوم بصحبة أميرة

تضفيان بهجة على الأسرة المكلومة بفقد الأحياء

وهم أحياء

أكد الطبيب على تجنب المؤثرات العصبية وممارسة

رياضة المشي قليلاً

واليوم عزم على السير على شاطيء البحر

نقرت نجلاء على الباب فوجدته متأهباً للخروج

فتوجست

"إلى أين ؟"

ابتسم بمودة وسألها " هل يمكن أن تشاركيني تلك النزهة!"

بالطبع لم تملك حق الرفض فأومأت موافقة

استند على عصاه وتحرك معها بطول الشاطيء بخطوات متمهلة

التوقيت عصراً

الطقس بدايات الخريف

السماء ملبدة بغيوم طفيفة لكن الهواء منعش

والأمواج تتصادم بسرعة فيأتي رذاذها عليهما

تمهل قليلاً فظنت به التعب، فجلسا على حافة السور الرخامي

وبادر هو بالحوار " أشكرك نجلاء"

التفتت إليه وبكل تعجب سألته " علام !"

هي لا تعي ما أحدثته بقلبه من تطبيب ، ما تقوم به صغيرتها من إحياء لروح كادت أن تموت على قيد الحياة .

"على الكثير "

مر أحد الباعة بذلك الحساء الحار من الحمص "الحلبسة " فابتاع لها واحداً ووعدها أن ينال إعجابها

وبالفعل التهمتها بتلذذ شديد

كان متردداً ، تأتي الكلمات حتى طرف لسانه ثم تعود وأخيراً تجرأ

" هل لي بطلب منك ! "

وأجابت فوراً " بالطبع "

استند بوجهه على عصاه يفكر في طريقة لطرح مطلبه فوجد المباشرة أسلم حل

" هل يمكن أن تنتقلي أنت وأميرة للعيش معنا !"

الفصل السابع عشر

طوفٌ ضعيف يتأرجح بين الأمواج

لم تكن يوماً بربان سفينة ... لم يطف بخيالها أبداً أن تكون بهذا الدور

لكنها الحياة يتأرجح طوفك بين أمواجها

فعليك استلام دفة القيادة

أو يتكسر الطوف مع أول صخرة يقابلها

وكأنها على موعد ببدايات جديدة رُغماً عنها ،لكنها الآن ليست مرغمة .

قطعت الطريق سيرا على الأقدام ،ولم تشعر قدماها بالتعب كانت تفند ما عرضه محفوظ بعقلها.

أسرة بديلة دفء وحنان وعمل يسير

بالمقابل ستفقد الخصوصية ، ستحل كضيفة دائمة على الزوجين التائقين إلى الأنس.

لكن الأهم "فاتن" كيف ستخبرها ،هذا بحال الموافقة !

بل كيف ستتركها ! فاتن وتد بحياتها الآن و منبع الحكمة المنشودة.

مرت بسامي في طريقها ألقت سلاماً لكنه لم يبش لرؤيتها ككل يوم فقط أومأ برأسه ورد السلام بصوت خفيض

تعجبت حقاً،ظنت أن به خطب ما لكنها لم تجرؤ على مبادرته بالسؤال، توقفت خطواتها في مواجهته، بادلها نظرة صامتة تسرب منها الأسف،وبعض اليأس وهو ما أدهشها أكثر!

حالما وصلت وقبل أن تغلق الباب فوجئت بمن يقحم يده ويدفع الباب بحدة!

أنثى خمسينية متشحة بسواد وبصوت صدّاح لم تغرد بل ألقت قنابل بوجه نجلاء

"لماذا تشاغلين ابني يا فتاة!"

عند اعتياد الظلم ..تكراره من أهله ومن غير أهله

تتبلد انفعالاتك وتختنق دمعاتك ويصبح القلب

صلبا

بيد أنّك تكتسب قوة التصدي ليس دفاعاً لا

تحتاجه بل رفض لاجتياح النفس وأذى القلب

لا طاقة لعرض مبررات أو تفنيد ما نراه حقائق

هي صلابة تجبرك على صد العنف بحدة.

وبصوت حاول الصدوح واجهتها

" بأي هذي تهذرين يا امرأة "

ولم تكن مواجِهتها ممن ينكمش مع قوة الرد بل زادت بأن جذبتها من قبة ثوبها كالجرذ وأفاضت بوابل من الافترائات

"سامي أيتها المتبجحة، كيف أوقعته حتى يقف بوجهي أنا وعائلته مرحبا كفتك علينا ! "

وهنا صعدت فاتن مستفهمة عن الصوت فوجدت من تتأرجح بيد المرأة كدمية

حاولت نجلاء التملص من قبضتها وتفكيك قبة الثوب من يدها فلم تُفلح أبداً

وفاتن مذهولة بخرس وعدم حِراك

وعندما وصل الأمر إلى محاولة نجلاء مبادلة العنف

بقبضات بكتف السيدة استفاقت فاتن من هذا

الجمود وحشرت نفسها بينهما في محاولة لفض النزاع

مجهول السبب

تجذب هذه من ذراعها ، وترد كف الأخرى عن

الوصول

وبين سُباب متطاير ومحاولة غيرمكتملة من نجلاء

لصرف الاتهام

فهمت فاتن فثارت على السيدة بحمية دفاعية

ورفض للظلم

"ابنك هو من يتودد للفتاة بالصباح والمساء ماذا نفعل معه نقتله !"

وهنا توقفت السيدة تلتقط أنفاسها بلهاث

"يتودد يحب لا يهمني ،ما يهمني هو أنني لا أوافق على الزواج "

وهنا اندفعت نجلاء كالقطار

" زواج من يا سيدة ! لم يطلب مني سامي الزواج أبداً"

زوت ما بين حاجبيها بتفكير وتعجب فصرحت بما يدور بخاطرها

"منذ شهور وهو يفاتحني بأمر الزواج وأنا أرفض ، كيف لم يخبرك إذا !"

تبادلت فاتن ونجلاء نظرات مفادها أنه لم يصرح لها بالعرض حتى يضمن القبول من والدته فتدخلت فاتن بحماية أم

" ما بينك وبين ولدك شأنكم الخاص لا يعنينا ولا نهتم به "

تحفزت السيدة بحاجب مرتفع وآخر منخفض

" أي شئون خاصة ! أخبرك أنه يفاتحني بأمر الزواج كل يوم ، وعندما تأكد من رفضنا هدد بالرحيل عن المنزل "

والتفتت إلى نجلاء بحمائية وغضب

"ولدي حبيبي من حلّ محل أبيه يود هجرنا لأجل خاطرك"

مسحت نجلاء وجهها بكفها بنفاذ صبر واستعانت بالله

" يا الله ، أخبرتك أنه لم يطلب مني الزواج قبلاً "

فالتفتت فاتن بفجأة

"ثم ما هذه الجملة التي ترددينها بكل سخف ، ترفضين ترفضين ، ماذا بها نجلاء لترفضي زواجهما "

حملقت السيدة بها بهلع

"ماذا بها ! أرملة أو أياً كان لا نعلم لها أصلا ولا عائلة ، هبطت علينا من حيث لا نعلم ، لماذا يتزوجها ولدي الشاب الأعزب ، هل أُلقي به إلى النيران بيدي"

سياطاً كانت تكوي قلبها مع كل حرف من المرأة ولا تملك لها رداً ، ولا طاقة بها لجدل لا طائل من ورائه

قامت بهذا الدور فاتن

" أنت تهينها ببيتها وهي صامتة هل هذه هي النيران التي تخشين على ولدك منها،بل قد كتب الله له الجنة إن كانت نجلاء ببيته"

اقتربت السيدة من فاتن بتحفز شديد تحدق بإدراك لحقيقة كانت غائبة

"هكذا إذاً أنت من تشجعين الولد على عصياني أيتها المتصابية "

وكانت ستبدأ وصلة هجوم جديدة حينما صرخت نجلاء

"كفى "

ناظرتها بثقة مهتزة وملامح بأس وعنفوان ترتسم على وجهها وكانت تضغط على كل حرف

"جئت وألقيت ما بجعبتك من تراهات وأوهام وإهانة وتركتك تماماً ، أظنك ارتحت هكذا ، والآن فلتذهبي من حيث أتيتِ"

اعتدلت السيدة مصلحة هندام ثيابها وحجابها ثم التفتت إلى فاتن

" بمقدار زوجك الراحل في نفوس الجميع ، إذا تدخلت بهذا الأمر لأخبر الجميع عن العجوز

المتاصبية التي تسمح للرجال بدخول منزلها،
وسيصل الأمر إلى عائلة زوجك وتعلمين جيداً
كيف هم "

وابتسمت ابتسامة شامتة قابلتها فاتن بوجوم ثم
تحركت صوب الباب وفتحته ودعتها للخروج
بإشارة من يدها وكلمة واحدة

" اخرجي "

تحركت صوب الباب ثم التفتت لنجلاء ثانية
وبنبرة كلها تحذير

"اغلقي الباب بوجه سامي لمصلحتك "

وتلكأت قليلاً تراقب انفعالاتها ثم أضافت

" ولأجل ابنتك " وخرجت.

أغلقت نجلاء الباب بعنف ثم ارتمت على أقرب مقعد تلتقط أنفاسها

لحظات من الصمت خيّمت عليهما ، صمت ثقيل به خوف وغموض وألم وتحفز وغضب

وأخيراً تحدثت نجلاء

"كما أنا كالمطيّة يركبها الجميع،كحجر بالطريق يتعثر به كل المارة فيقذفه أحدهم بقدمه يرتطم بقدم آخر وهكذا إلى ما لا نهاية"

وفاتن على صمتها ما فارقته ، فأضافت نجلاء

" أرأيت كيف توعدت لصغيرتي ، لا تعلم أني قد

أنهش لحمها إن اقتربت منها "

وكأنها تحاكي حالها فتسأل وتُجيب

" وتجرأت وهددتك بكل وقاحة ، أنت لا تخافينها

أليس كذلك "

لم يكن استفهاماً كان خوفاً، خوفاً من اختفاء

خط الدفاع الأول وموطن الحكمة المنشودة بعد

تعثر طويل ، واحة الراحة بصحراء الحياة القافلة .

تنحنحت فاتن لتجلي صوتها وأجابتها بنبرة متأرجحة بين اليأس والندم

"بالطبع لا أخافها نجلاء "

ووصلت الرسالة لنجلاء من صوتها دون أن تُصرح بها

فأومأت برأسها على ما لم تسمعه ، ووافقت العقل على ما كان يريد

حماية أب ، وقلب أم ، وحماية لرفيقة روح كانت لقلبها نعم الونس

محطة جديدة ... بداية جديدة .... إخفاق جديد

أياً كان المسمى فقد بات انتقالها إلى بيت محفوظ أمر واجب

****

بمفردهما وصوت المذياع بالخلفية على إحدى المحطات المفضلة

الإذاعة البريطانية والتي يتابع برامجها باهتمام وشغف

مشروب الينسون الدافيء

منشغل بجريدة بيده يكمل بها ما نقص من حروف الكلمات المتقاطعة

ونيرة منهمكة بإتمام دثار صوفي بإبرة الكروشيه وخيوطها الملونة الجميلة

حينما قطع الصمت بسؤال

"مرادف أوافق من ثلاثة حروف ؟"

لم تطل نيرة التفكير فأجابته وعيناها على تداخل خيوطها " أقبل "

خط الحروف ثم نزع منظاره الطبي وسألها

" أتظنين أنها ستقبل !"

أوقفت عقد الغرز ونظرت إليه بحنو وخوف من صدمة جديدة

"أياً كان قرارها محفوظ لا تحزن ، لن نتوقف عن زيارتك ، وبإمكاننا زيارتها كذلك "

هي محقة وهو يعلم

لكن جزء منه يريد الأنس بها وبالصغيرة ،وكأنه اكتفى من الوجع والفراق ووجدهم دوحة للقلب.

"معك حق"

كان يقولها لنفسه قبلها ،لكن قلبه كان يدعو الله أن توافق .

"فلتغير تلك المحطة الإذاعية كفاك أخباراً عن العراق وأسلحة صدام السرية "

أجابها بحسم

" كل يوم يحدث جديد وعلينا المتابعة ،تعلمين تلك المحطة تنقل الخبر فورحدوثه "

انشغلت مجدداً بمشغولتها الجديدة وتركت له الحرية

" كما يحلو لك "

****

بعضُ من ألحان كماني

هوبعضُ من وجيب قلبي

يهدر بعنفٍ داخل صدري

فأريده أن يخرج عذباً رائقاً على أذني قبل الجميع.

وباستسلام لقوة الحاضر اخترت بداية ألحاني

كهديل حمام بصبيحة يومٍ متشبع برائحة المطر

كلعثمة صغير بأول حروف تخرج للدنيا

وكأول نقرة على درجات البيانو .

وبصوت مملوء بالأمل متشبث بالحياة أمسكت

كف الصغيرة التي تقفز بمرح ورفعت وجهها

بمواجهة الحياة

"هيا بنا أميرتي "

نقرات هادئة على الباب ،فتحت فاتن لتفاجيء

بحقائب مرصوصة أمام الباب ومفتاح معلق

بسلسال يتأرجح أمام وجهها

ابتسامة تجاهد للخروج ودموع معلقة بالعين

هوى قلبها لقدميها فسألتها بهلع "ماذا هناك !!"

بصوت متحشرج من كتم البكاء أجابت

" محطة جديدة "

ناظرتها باستفهام فهربت بعينيها التي بدأت العبرات بالهطول منهما وجاهدت لتدعي الثبات

" سوف نرحل لبيت السيد محفوظ "

وكأنها تخبرها بعينها "وتتركيني" فأكملت نجلاء

" لن أتحمل أن تتلوث سمعتك بعد هذه السنوات بسببي "

قاطعتها بشهقة رفض

"ماذا تقولين ، كانت تهدد فقط "

أخفضت بصرها أرضاً ناظرة إلى قدمها

" تهديد ، حقيقة أو حتى مزاح لا فارق ، لن أقبل أن يطالك أذى بسببي "

حدقت بها فاتن وقد بدأت العبرات تتسلل من عينيها أيضاً ، هي نفسها تعلم أنها اهتزت قليلاً من التهديد ، لكن إذا كان المقابل الرحيل لن يهمها أحد

أمسكتها من كتفيها تخبرها بعزم "سأقف بوجه الجميع ، أنت قطعة ألماس لن يطالك شيء من هذا الغبار"

رفعت كفيها تتشبث بذراعيها

"ويأتي يوم يصيبك به الندم ، وأموت أنا إن طالك ظلم"

وهنا بدأت الشهقات والانهيار وباتت الدموع لا تكفي لترطيب القلب ، والكلمات عاجزة أمام المشهد.

مسحت نجلاء وجهها بكفيها وأسرت عن فاتن سبب قرارها

لقد رأت بها تردداً جرح كرامتها لم يعد بها طاقة لتحمل المزيد من الذنوب التي لم تقترفها

رحيل مبكر خير من إثم البقاء الذي سيطالهما معاً ستكون موضع اتهام دائماً كلما مرت بسامي سامي ..الأفضل لها الابتعاد عنه حقا ، والأفضل له كذلك .

حوار طويل قرأته فاتن بعينيها فأرادت نجلاء أن تُعفيها من الحرج

وبصوتٍ منهك من تتابع الانفعالات قررت لها

"الأفضل لي الابتعاد عن سامي صدقيني "

احتضنا بعضهما طويلاً ، حضن بألف معنى ، حنان.. وداع ..غضب من واقعٍ ربما بالأخير

رفعت نجلاء وجهها وأخبرتها

"سنلتقي أليس كذلك !"

ربتت على وجنتها برفق وأقرت

"بالطبع حبيبتي ، لا مجال للمناقشة "

احتضنت أميرة وأغرقتها بالقبلات المالحة بفعل الدموع

"صغيرتي أنتِ كيف سأتحمل فراقك !"

بالأخير تحركوا جميعاً في اتجاه الطريق الرئيس لاستقلال سيارة أجرة حتى بيت محفوظ بعد إصرار من فاتن أن توصلها بنفسها

***

خطوات وكانوا يمرون أمام سامي والذي ما إن شاهد الحقائب حتى انتفض تاركاً ما بيده قاطعاً طريقهم

"إلى أين ؟"

لأول مرة ترفع نجلاء وجهها إليه

لأول مرة يدقق بلون العيون الذي امتزج ببقايا

فيضان الدموع فبات ساحراً بشجن

تنحت فاتن جانباً تاركة لهما حرية الوداع

وكانت البداية منه بكلاسيكية ربما لا تلائمهما أو

تلائم تلك الحكاية

"عيناكِ بهما شجن "

أخفضت بصرها ثم رفعته ثانية

" ربما يليق بي الشجن "

ابتلعت ريقها ثم أكملت

"بل بت أظن أنه خُلق لي "

لم يرها صغيرة مثل الجميع ، كان يرى عنفواناً وكبرياء وصمود بوجه الحياة .

لم يتعلق بها تعلق وقتي كما تظن أمه ، رأى بها ما يكمله ، ذلك المزيج من النعومة والقوة هو ما أسره منذ اليوم الأول، والآن بعد هجوم الأم والذي رفضه بالكلية يراها ترحل

بكل تمسك كرر السؤال

"إلى أين نجلاء؟"

ابتسمت ابتسامة مختلطة بالدموع وأجابته

" إلى حيث أراد القدر ،

مأوى جديد ، وأُناس جدد "

ابتلعه الخوف نخرج بكل نفس من أنفاسه وهو يسأل

"تعودين إلى بلدتك! "

ولا تعلم لم أرادت طمأنته أنها ستكون بالجوار ، أم ربما هي أرادت اطمئنان لا تدري

"لا ... سأبقى هنا بالأسكندرية "

أراد وعداً ، وأراد أن يُسمعها عهداً قطعه على قلبه فاقترب خطوة وبات في مواجهتها تماماً تاركاً لها مساحة الخجل

"أنت لي نجلاء ولو بعد حين "

كان عهداًواقراراً وطمأنة وراحة لتصريح جاهد بخروجه فأضاف

"أًشهد الله أنكِ لي ولو كان بعد مائة عام "

وأراد طمأنة فحصل على شبه انهيار ، بكاء شديد حد أن وضعت يدها على فمها تكتم نشيج البكاء .

" لن أقول وداعاً لأننا سنلتقي ، متى وأين أتركها للقدر "

أطال الوقوف وكأنه يخزن بعض من عبيرها بصدره

يسجل بعض من الاستئناس بها بذاكرته وعنها فكانت وما زالت حيرى،لكنها لن تنكر أن بعض منها سيفتقد وجوده .

قطعت فاتن ذلك اللقاء الذي مهما طال لابد له من بتر

"هيا بنا نجلاء "

كفكفت دمعها وأجلت صوتها ثم أخبرته " إلى اللقاء سامي"

فراق ، لقاء ، رحيل جميعها باتت مفرداتها التي تحيا بينها منذ زمن .

نقرات على الباب ، نقرات نجولة وأخرى ضعيفة جداً نكربشة قطة .

لا يأتيهما زوار سوى علي ومؤخراً نجلاء

توجهت نيرة إلى الباب وواربته فرأت ثلاثة أزواج من العيون

فتحت الباب مباشرة بترحاب شديد

وما إن رأت الحقائب حتى تملكتها السعادة فجذبت نجلاء وأميرة لأحضانها بحنو شديد

وبصوت مختنق بدموع نادت عليه "محفوظ لقد أتت نجلاء "

كان يمشي خطوات بسيطة مستنداً على عصاه

وفور اقترابه هرولت الصغيرة نحوه بنداء أذاب قلبه

"جدي "

فتح أحضانه وتلقفها غير مصدق لما سمع

" حبيبة جدك أنت يا أميرتي "

رفع وجهه إلى نجلاء فرأت أنهار الدموع فوجدت

نفسها بلا إرادة تهوي على يده تقبلها

رفعها حتى لا تكمل وأمسك رأسها بحنو

" لقد أنار بيتنا بقدومكما يا ابنتي "

رحب بفاتن ودعاها للدخول

أحضرت نيرة أقداحاً من الكاكاو الساخن

حمل محفوظ الصغيرة على رجله يسقيها قدحها

بنفسه ثم بدأ حديثاً كان لابد منه

" حسنا يا ابنتي قبولك العرض هو طوق برقبتي إلى

أن أموت ، معروف كبير لا أدري كيف

سأسدده "

قاطعته فوراً بحزم " لا تقل هذا سيد محفوظ "

ابتسم بامتنان ثم أكمل ما بدأ

"هنا سيكون بيتك مثلك مثلنا ، لكني أعلم أنك لن

تقبلي أن تمكثي بدون عمل ، لذلك فاعتبري نفسك

مديرة المنزل تشرفين على كل شيء ونتذوق من يدك أصناف الطعام المميزة وذلك براتب شهري ثابت "

قبل أن تقاطعه أوقفها بإشارة من يده

"حرصا على راحتك وخصوصيتك سيكون لك وأميرةغرفة منعزلة بالركن الأيمن من المنزل مرفق بها دورة مياه "

"وقت أن تحتاجي أجازة هي لك ، ولن يتعرض لك أي شخص بأي مضايقات زوارنا هنا قليل "

ثم التف إلى فاتن فأخبرها بما أرادت

" نجلاء ابنتي أخاف عليها وعلى سُمعتها لن يجرؤ أحد أن يقترب منها "

زفرت تنهيدة راحة وإن كانت منقوصة لفراقهما ثم استقامت مخبرة إياهم

" نجلاء قطعة من روحي هنيئا لكم صحبتها فلتسمحوا لي بزيارتها من آن لآخر "

أجابتها نيرة مباشرة

" بالطبع سيدة فاتن ، هذا بيتك وقتما تريدين القدوم مرحب بك دائماً"

"حسناً علي الرحيل الآن "

أوصلتها نجلاء حتى باب البيت ثم عناق طويل ورحيل.

حالما أغلقت الباب وجدت محفوظ مستنداً على عصاه وممسكاً كف أميرة

"هيا أعرفكم على المكان "

تنقلوا جميعا بين حجرات المنزل ، وفتح لها غرفة ابنته من قبلها وجدتها واسعة بشرفة ترى جانبا من البحر ولون طلاء أبيض أدخل الراحة على قلبها فوراً

ثم وصلوا إلى حجرة مميزة ، تلك الحجرة ذات ستائر الفستق

شهقت انبهاراً ، كانت الألوان مع المكتبة الضخمة والكمان المعلقة جميعها خلقت حالة من الحنين للحياة ، النبض الجديد

الأمل بالغد الذي ظنت أنها فقدته

التفت إليها وبصوته المتشبع بالسعادة خاطبها

" كنت أعلم أن قلبك سيستقر هنا "

اتسعت ابتسامتها براحة لا تدري مصدرها وأجابته

" بالفعل تعلقت روحي بهذه الحجرة "

أنار وجهه لسعادتها البادية عليها فتحمس مباشرة

" والآن فلتفرغي أغراضك بالخزانة وتبدلا ثيابكما ثم نتناول الغداء هنا بهذه الحجرة "

أومأت برأسها وأمسكت كف أميرة وتوجها إلى حجرتهما

****

دلف إلى المطبخ محادثاً نيرة

"نيرة أنا جائع أريد طاجناً من اللحم بالخضروات ، وبعض المعكرونة بصلصة البشاميل ، كما أريد تلك

الكرات من الكعك التي تغلفينها بالشوكولاته الغنية

و..."

وقبل أن يُكمل قاطعته نيرة

"محفوظ ، تعلم أن الطبيب لم يسمح بهذه

المأكولات "

أخفض بصره أرضاً وبدا عليه الخجل

" فلتصنعيها لنجلاء والصغيرة إذاً"

ربتت على كتفه ووافقت فورا

" بالطبع سوف أصنع لهم أطيب الطعام لا تقلق"

سعادته البادية على وجهه كانت أكثرمن كافية

لتغلف قلبها بالسكينة

***

دلفت نجلاء إلى الغرفة وشرعت بإفراغ محتويات

الحقيبة

وتذكرت يوم الهروب والثوب الواحد وقميص

حسين

جذبت القميص برفق وتشممته باشتياق وبدا وكأن

ما مضى والذي لم يكد يكمل العام ، أعوام مرت

على قلبها .

علقته بالخزانة ثم أكملت

مع كل قطعة جديدة كانت تسترجع ذكريات ما مضى

ثوب الزفاف ، الثياب الجديدة التي ابتاعها لها ، ثوب الحمل

ذلك الثوب الذي كانت ترتديه يوم نزفت وكادت تفقد أميرة

ثم ثوب الحادث صاحب الألوان الزاهية

وأخيراً ثوب الحداد الذي ارتدته طويلاً

كل ذلك خلفته هناك بموطنها

خلفت الخيبات والانكسارات وتجلاء

نعم من تحيا الآن لا تشبه تلك الصغيرة ذات الحجاب الوردي التي استوقفها حسين بالطريق مصرحاً بخطبة قريبة

وأتى التساؤل ،هل بإمكانها العودة الآن أم أن ذلك المتجبر لا زال على عهد الطغيان .

أغلقت دفتي الخِزانة هرباً من سيل الذكريات وتوجهت خارجا بوجه واجم

استقبلها محفوظ بحفاوة شديدة لكنه لم يغفل عن حالها وأعزاه إلى رهبة المكان الجديد

تناولوا الغداء ثم ساعدت السيدة نيرة بجلي الصحون

ومساء تحلقوا حول منضدة مستديرة عليها حلوى وأقداح من الشاي

وفاجئته نيرة " أظن أنك تستطيع الآن "

ابتسم بسلام ثم أجابها " نعم أحضريها "

لم تفهم نجلاء ما يدور حولها حينما وجدت نيرة تسلمه علبة الكمان

أخرجها منها ضبط الأوتار ثم أمسك العصا وباحترافية شديدة أخذ يحرك الأوتار بعصاه

وكانت البداية انخطاف تلاه سحر ثم ذوبان وأخيراً انسكاب الدمعات

عاشت نجلاء مع أنغامه ، لخص حياتها بتلك الأنغام التي تصعد وتهبط بدرامية وشجن يلائمان الكمان ويلائمان حياتها

وعندما انتهى صفقت بكل حماس ، باختلاط الدمعات مع الذكريات والأحزان .

وأخيراً استئذنت منهم بالخلود إلى النوم

على الفراش كانت تتقلب ، غير معتادة على المكان وكان اجترار الذكريات مؤلماً لقلبها حتى هجرها النوم.

ظلت هكذا حتى سمعت أذان الفجر فقامت للصلاة

أدت صلاتها وسمعت بالخارج صوت تلاوة

فتحت الباب بهدوء وخرجت بحذر فوجدت محفوظ يتلو آيات الله بصوت نديّ

تنحنحت لتخبره بقدومها ثم جلست جواره مستمعة حتى أتم التلاوة

عندما انتهى خلع منظاره ونظر إليها مبتسماً

"جافاك النوم حتى الصباح أليس كذلك ؟"

أومأت برأسها

" رأيت الكثير يا صغيرة العمر كبيرة القلب "

أطرقت بحزن

"لم أرى الكثير من البشر "

وبخبرة بدروب الحياة وعثراتها ثرثر معها

"البشر يا ابنتي صنفان

الأول من يطلب ويمتلك ويأخذ والثاني من يخجل

ويزهد ويمنح ."

طالعته بكل ما بها من توق للمعرفة

"فقط صنفان ؟

أليس هناك من يطلب ويمنح ، يملك ويزهد ، يخجل ويأخذ بقدر ؟

من يوازن الكفتين بنفسه

أليس هناك من يجبر القلوب ويتقبل المحبة

أم أنهم مكتوب عليهم الرحيل من هذا العالم !"

ارتسم الحزن على محياه لم يكن يعلم أن أحزانها بالغة لهذه الدرجة

"يوجد يا ابنتي لكنهم قليل ، لابد أن يحفر الزمان أخاديده بنفوسنا أولا قبل أن نقابلهم "

طالعته بشك " ولا يرحلون !"

وذاك المحفور بحياته علامات الرحيل القاسية لم يمتلك يقين الإجابة المنشودة لكنه أراد طمأنة نفسه قبلها

" ربما لا يرحلون "

فأرادت التأ كد " وربما لا "

وكان يفكر معها بصوت عال ثم ابتسم

"الحياة مقامرة ، لكن خساراتها غير دائمة ، فهدايا القدر دوما تفوق التوقعات"

فهمت الإطراء وتقبلته بابتسامة نجلى

" أستأذنك الآن أميرة سوف تفتقدني "

غفت قليلاً ثم استيقظت ، استأذنتهم بالمرور على أندرو والاعتذار منه .

ذهبت وقابلت علي الذي علم بقرارها من محفوظ

"بقدر حزني لفراقك العمل معنا

بقدر سعادتي لمحفوظ ونيرة بصحبتك لهما "

ابتسمت بهدوء

"سوف نتقابل هناك علي ، كما أنني كان يجب أن أرحل "

ودلف أندرو مع كلمة رحيل

"أي رحيل شيماء "

ضحكت ، بل ضحكت بصوت "نجلاء سيد أندرو"

أشار بيده علامة اللامبالاة ثم أخبرها

" لا يعنيني ، المهم رحيل من "

تنحنحت قليلاً ثم تحدثت بعيداً عن العاطفية التي لا يفضلها أندرو

" أنت أول من فتح لي باباً بهذا البلد ، لن أنسى فضلك ما حييت ، لكن عليّ الرحيل لأسباب شتى"

نظر إليها وعلم صدقها وعزمها على قراراها

"فليكن لك ما تريدين نجلاء ، أتمنى لك الحظ السعيد وليعينني الله أن أجد ماهرة مثلك"

ودعتهما وقفلت عائدة إلى بيت محفوظ

نقرت الباب فسمعت صوته من خلف الباب

"لم تعطيها المفتاح بعد يا نيرة "

وعندما دخلت وجدت من يجلس بالصالون مع محفوظ مرتدياً زي الشرطة ويناظره بغضب

" أي وافد تأتي به من الشارع ليحيا معكم ، وكيف تستأمن هذه على مفتاح البيت "

الثامن عشر

سر وحيداً ..غرِّد خارج السِرب ..

ليس مهماً أن تجد من يُشارك ..

المهم أن تجد نفسك بختام الرحلة..

والخارج من أزمة صحية شديدة يتعرض الآن

لانفعال

والسبب من ؟

ابن الأخ الذي يجبر الخاطر بزيارة كل حين بعد

رحيل الأبناء

لطالما كان ممتناً لوجوده العزيز هذا فهو الوحيد من

يطرق الباب

كمن يتعلق بقشة لكونه لا يملك سواها

لكنها بالأخير قشة

لحضوره متململاً متعجلاً

يظنه المشاهد يمن عليهم بزيارته لكن الحقيقة أنه بالفعل يحب العم محفوظ وزوجته

لكنها حياة الشرطة وانضباطها انطبعا على سلوكه فأكسباه بعض الصرامة

وكذلك أكسباه نظرية الشك

والآن هو غاضب كونه لم يعلم بمرض عمه إلا اليوم بالصدفة البحتة

وغاضب ومتخوف من صفاء نية عمه بأن يفتح بيته لتلك التي يراها بلا أصل لتقبل المكوث ببيت أناس أغراب عنها .

وبادر محفوظ بوده المعهود ولهجة أكسبها بعض المرح ليكسر جليد التعارف الأول

" إنها نجلاء يا هاني ، مديرة المنزل الآن "

وبنظرة ساخرة تقيمية شملتها جميعها وصوت متهكم أجابه

" مديرة ماذا ؟"

توتر غلف الأجواء حاول محفوظ محوه بأي شكل وهو يردف مُسرِعاً

" تعلم أن الوحدة تقتلنا يا هاني ، كما أنّ نيرة لم تعد تقدر على أعباء المنزل بمفردها

سنجد بنجلاء وأميرة بعض السلوى "

اقترب منها واضعاً يديه بجيبي بنطاله ودار حولها بنظرة متفحصة كأي ضابط شرطة يواجه متهم ثم نطق بديناميكية

"ما اسمك ؟"

رفعت نظرها إليه ،شاب يبدو بأواخر العشرينات يقترب من الثلاثين ، قامة طويلة خصلات سوداء مجعدة بعض الشيء ، وملامح وسيمة قريبة الشبه من محفوظ

نظرت إلى محفوظ فأخبرها بعينه أن تمرر الموقف لأجل خاطره

فأجابت بصلابة " نجلاء "

ضحك بسخرية ثم وضّح لها

"الاسم الرنان سمعته منذ قدومي أكثر من مرة "

ثم اقترب أكثر وكأنه يستخرج منها اعترافاً بجريمة ما

"اسمك بالكامل كما هو مدون بالهوية ؟"

أخذت شهيقاً عميقاً بنفاذ صبر لكن عيون محفوظ كانت تتوسل

هو يعلم أن ما يفعله ابن أخيه دافعه القلق

وعنها فكانت قلقة ، اسمها بالكامل وبالطبع سيرى

الهوية

وماضٍ ربما يعود على يديه

تدافعت الأفكار بعقلها سريعاً

فبحثت عن مخرج وأجابت

" نجلاء إسماعيل السيد "

التف حولها ثانية وهو يسأل

" من أي بلدة أنت؟"

وتجيبه بذات الإجابة التي عممتها للجميع

" المنصورة"

رفع حاجباً مشككاً بصحة حديثها

" لكنة حديثك لا تنتمي إلى المنصورة"

زفرت بنفاذ صبر وتوجس

" اكتسبتها من زميلات الدراسة "

ولم يكتفِ

" أين هويتك ؟"

قلبها ينبض بجنون والدماء تدافعت إلى وجهها فكادت تفضحها

وهنا نفذت ما توصل إليه عقلها بغية النجاة

"السيد محفوظ فقط من له حق الإطلاع عليها "

التوى جانب فمه بسخرية وإعجاب بالرد

" هه هكذا إذاً "

ثم جلس واضعا ساقاً على الأخرى ناظراً إلى عمه وموجهاً حديثه إليها

" وأنا نيابة عن عمي السيد محفوظ أطلب رؤية هويتك الشخصية "

فقط نظرة قد تنقل آلاف العبارات التي عجز عن قولها اللسان

فقط نظرة تستجدي سنداً تعلم بيقين أنه موجود

فقط نظرة تمثل بها الخوف واليأس والنجاة

هي فقط نظرة من نجلاء إلى محفوظ

نظرة صادقة

جعلته ينهر الواقف قبالتها كمحقق جنائي في جريمة قتل

"كفى هاني .. كفى"

التفت هاني إليه متخوفاً من أثر انفعاله مقترباً منه ممسكاً كفه

" عمي ، أنا فقط أطمئن "

شد عمه على كفه وربت عليها باليد الأخرى وبصوت حنون وابتسامة تجاهد الصمود أمام الدموع

"أعلم يا ولدي ولطمئنتك سوف أطلع بنفسي على الهوية ، بل سأحصل على نسخة منها وأحفظها لك"

احتضن عمه بإشفاق ، يعلم حاله جيداً بعد رحيل الأبناء ، ويعلم ضعفه تجاه الونس ، يخشى عليه بصدق

هو لا يعلم تلك النجلاء

ويتعجب من قبولها أن تمكث معهم

وأمرها عجيب ، صغيرة ولها ابنة تكاد تُجاوز العامين

أي أسرار خلفها يا تُرى

خاف على عمه من الانفعال فقرر المهادنة قليلاً

"حسناً عمي ، مرحبا بها معنا "

كان سيمر سريعاً ويرحل لكنه قرر تمضية اليوم

معهم يراقبها حتى يطمئن قلبه

وهي توترت بحضرته ، حيثما دلفت غرفة وجدته

يظهر فجأة

مرتعبة وتحاول مداراة رعبها وهو يعلم

وتوجس أكثر لا بد أن خلفها خطب ما

أعدت الطعام مع نيرة ولم تجلس معهم رغم إلحاحهما

مظلومة لكن له الحق بالشك

قلبها متألم لكنها فاقدة لطاقة الحُزن

وأخيراً رحل بتهديد خفي أطلقه من عينه مفاده أنه يراقبها

محفوظ لم يشأ أن يضغط على أعصابها أكثر فترك لها حرية توقيت البوح

وهل لزاماً عليها البوح ؟

ربما بهذه المرة بالفعل هي مرغمة

حتى لا ينبش هاني بأسرار الماضي بنفسه ويفتح

عليها باباً للهموم قد أغلقته بيدها وظنت أنها

أحكمت الغلق .

***

فقد الرُفقة والمشاكسة اليومية

افتقد أُنسها

حديثهما القليل جداً والذي كان يسترجع حروفه

بخُلوته

تدوينه الذي يؤرخ به لعشقاً يراه مستمراً

وبدفتره فتح صفحة جديدة وخطّ بها

"أول خريف ٢٠٠٣

رحلت

رحلت ليس ببعيد لكن قلبي رحل معها

أعلم أنه بأمان هناك

يدق بانتظام أنفاسها جواره

ويضخ الدماء بعمري كونها تعلم أنه ملكها

وأنا .. أنا لا أملك سوى الأمل

أمل بغدٍ قد يأتي فتعلم هي أن قلبها معي بأمان

بغدٍ نتيقن فيه أن مصيرنا واحد

نزيل العوائق ،ونمحو الجسور

ونبقى أنا وهي ولتفنى الأكوان من حولنا إن شاءت "

وزيله بتوقيع عجيب

"سامي بقلب مخلوع"

أوقف استرساله بأفكاره نداء أمه

" سامي ألن تأكل معنا اليوم أيضاً؟"

زفر بضيق ، هي أمه ولا يريد أن يغضبها ، لكنها تحاملت كثيراً على الفتاة الضعيفة

خرج من حجرته بخطوات حزينة ، حالما رأته أمه بهذه الهيئة حتى شهقت

" الله وكيلي بهذه الفتاة التي بدلتك هكذا ، هو وحده قادر على الانتقام منها "

حرك رأسه يمينا ويساراً بيأس

"وماذا صنعت الفتاة حتى تتلقى هذه الدعوات ؟"

"ماذا صنعت ؟" وخرجت منها بصدمة

"لقد بدلتك ، وقست قلبك عليّ أنا وإخوتك "

زفر بضيق شديد لما يراه من ظلم للفتاة ووصمه

بضعف ليس من شيمه

"لم تبدلني نجلاء يا أمي ،أنا فقط حزين من

صنيعك معها "

وصمت قليلاً

" أنت أم سامي من لها وضعها بالحي تقتحم بيتها

هكذا وتجبرها على الرحيل "

ونطق آخر كلماته بأسى

"لم أتدخل احتراماً لك أمي لكني لم أتخيل أبدا أن تفعلي هكذا "

ثم ارتفع صوته قليلا " لماذا ؟"

شابها بعض من الشفقة عليه ، لكن الخوف وعدم الرضا محوا أثرها سريعاً

" وتسأل لماذا سامي ! هل هذه من تليق بك ؟ "

واقترب من أمه مستفهما بصدق

" وما بها لكيلا تليق يا أمي "

وكانت ذاهلة من عدم فهمه ، مغتاظة من سيطرة الفتاة على قلبه

"يا الله يا سامي ، هل سحرتك هذه الصغيرة ، إنها أرملة يا ولدي ، أو هكذا تقول ، برقبتها فتاة ، لا نعلم لها أصلاً ولا عائلة ، كيف ترتضي لنفسك هذا النسب ! "

ووكزته بكتفه

" ألا تريد فتاة بكر تكون أنت أول رجل بحياتها ؟"

وجاء رده قاطعا

" لا "

نظرت إليه بعدم تصديق فأضاف

" أريد نجلاء وفقط "

وهنا استحضر كل شياطينها ، ابنها الوحيد الذي
تملك من الدنيا

من تمنت له عروس تختارها هي بنفسها ابنة عائلة
معروفة

يتورط بمثل هذه الزيجة

فهددته بأمر قاطع " لن تتزوج هذه الفتاة وأنا على
قيد الحياة يا سامي ، أمامك من الفتيات الكثير
اختر من تشاء عداها "

هل عليه الرضوخ ؟

والإجابة قاطعة بقلبه وعقله

"لا "

لكنه لن يغضب أمه فهوما بقي لها بعد والده

لذلك سينتظر

يقولون " تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن "

وهو يظن أن يوماً ما ستأتي رياحه بما يشتهيه

يوما ، شهرا، عاما أو أعوام

القلب باق على العهد

مرابطاً هناك على ضفاف قلبها

ورياحه قد تواكب التيار فتجرف القلبين معاً دون تخطيط

***

أخبره محفوظ أن يبحث عن ذاته ويسعدها

أخبره أنه سيساعده

ثم حدث ماحدث

وهو سأِم مخاض القلب الذي يحياه هذا

يجب أن ينزع العشق من الجذور

وذاك ليس بالأمر الهين

فكان الحل برفقة جديدة تؤنس أيامه

" سوف أستكمل الدراسة "

وذكرها لأندرو بصبيحة أحد الأيام وهم يجهزون المطعم لاستقبال الزبائن

وبلا مبالاته المعهودة سأله

" تدرس ماذا علي؟"

وبحماس أخبره علي " محاسبة "

وأندرو الغير مبالي التمعت عيناه بشبه حماس

"يبدو أنك تفهم علي "

وضحك علي ضحك كثيراً

"بالطبع أفهم سيد أندرو لذلك أعمل معك "

وانفجرا بالضحك سوياً

ثم تقمص أندرو الجدية " والعمل ؟"

ترك علي الحضروات التي كان يرتبها وأوضح له

" الحضور بأيام محددة لا تقلق ولن أبدأ إلا بعد أن تجد من يشاركني العمل"

كان أندرو منهمكا بتقطيع شرائح اللحم فرفع رأسه

"بديل لنجلاء ويشاركك العمل !"

ثم زم شفتيه بيأس "مهمة مستحيلة "

وعلى ذكر اسمها ابتسم علي

" أوحشتنا البسكويتة "

وهنا غرس أندرو السكين بلوح التقطيع بحدة

" عليها اللعنة لقد تركت فراغاً كبيرة هذه الصغيرة وابنتها "

ضحك عليّ وأخبره من بين ضحكاته

" أتمنى أن تكمل جملة مدح لآخرها دون أن تقذف إحدى دررك المكنونة من قاموس السباب "

رفع بصره إليه بحرج غير موجود ثم استكمل تقطيع اللحم وهو يقر

"هكذا أنا عليّ ولن أتغير"

لان صوت عليّ وهو يأمن على كلامه

" وهكذا أحببناك جميعاً سيد أندرو "

ثم أعلن نيته سوف أزور السيد محفوظ وأطمئن على نجلاء والصغيرة.

ودون أن يرفع أندرو بصره

"أخبرها سلامي وقبِّل الصغيرة"

هؤلاء من يرسلهم القدر بطريقك بغتة

من نتعثر بهم برحلة الحياة

من يكفكفون الدمع دون قصد

ويربتون على الروح بكل ود

هؤلاء الذين لم نخترهم بل اختارهم الزمان

فكانوا خير عوض

فقط لأنهم هدية جاءت بوقتها تماماً بغير طلب

***

انتظرها أن تأتي وتفتح صندوقها لكنها لم تأتِ

يوم تلاه أيام

وعلم خوفها وأراد محوه

وكانت البداية بتريض بسيط على شاطيء البحر

وبحة صوته المفضلة سألها

"هل سمعت عن نجم والشيخ إمام؟"

رفعت كتفيها بلا حيلة إشارة إلى جهلها بمن يذكر

"أتعلمين حينما تنسقين تنورة مع بلوزة بألوان متماشية؟"

أومأت برأسها فأكمل

"هكذا الثنائي شاعر ثوري ومؤدي ماهر"

صمت قليلاً ثم مهّد لما أراد

"وكأن كل منهما قاد الآخر باتجاه نفسه"

نظرت إليه تخبره أنها فهمت ما استبطن من كلماته

ثم صمتت تماماً فأراد طمأنتها

"سوف أُطرب أذنيك بإحدى مقطوعاتهم حين العودة"

عندما وصلا وجدا جلبة تستقبلهما ببهجة مطلوبة من الجميع

"حسناً تأخذ البسكويت كله معك وتتركنا بلا تحلية ووافقناك

لكن أن تمتنع عن تذوق مثلجات علي التي لا يوجد مثلها فهذا لا يعني سوى شيء واحد"

ورفع إبهامه مهدداً رافعاً حاجباً ومخفضاً الآخر وهويهمس

" أنك اكتفيت بالبسكويت وحده وهذا خطر على صحتك سيد محفوظ"

وانفلتت الضحكات ببهجة

وصرخت هي بسعادة "علي"

اقترب ببهجة"أوحشتينا يا بسكويتة"

"وأنتم أيضاً" وكانت صادقة جدا جدا

اقترب منها غامزاً بعينه

"لن تصدقي من يرسل سلامه معي!"

وقلبها ذهب لذلك الذي قطع العهد

والذي رغماً عنها تسرب بعض من الافتقاد إليه

لكنه استكمل "وأرسل قبلة أيضا"

شهقت بخجل محدقة بعينيها

اقترب هامساً بدوره بمشاغبة ضاحكة

"قبلة للصغيرة نجلاء ماذا فهمت "

زجرته بعينها وحذرته

"علي"

قهقه ضاحكاً "يبدو أن الأمور تطورت كثيراً بالغياب"

اغتاظت منه لحذرته مجدداً "كفى علي"

رفع كفه على وجهه وهو غارق بالضحك

"حسناً حسناً لا تغضبي إنه أندرو "

اختلط بوجهها مشاعر ، حزن لكونه ليس المنشود
وسعادة كون أندرو يذكرها

وبترت هذه الفوضى وهي تخبره

"أبلغه سلامي الحار"

أمضى الأمسية برفقتهم وهويثرثر ويضحك

كما أخبرهم عن قراره باستكمال الدراسة

"حسناً فعلت يا ولدي ، وعدتك بالدعم لكنك
تعلم ما حدث ، وها أنت لم تحتجني بشيء"

نال التشجيع والدعم ثم انصرف مودعاً بعد عناق
طويل للصغيرة التي تعلقت برقبته

" علي أميرة حبك كتيييير حالص"

وخطفت الصغيرة قلبه بهذه الكلمات وفتحت باباً لشوق جديد عليه بدأ يدب أولى خطواته نحو قلبه.

****

باليوم التالي وجدته جالساً بالحجرة المفضلة

اقتربت منه وبسطت كفها

"هاك كفِّي ، هل بإمكانك أن تقودني إلى نفسي التي أجهلها"

هو صاحب ذائقة فنية فريدة

صوت الشيخ إمام في الخلفية

وأمطار الخريف تتساقط

وهي وحوارها وتيهها وشكّها بقدرته على إنقاذها

وجد نفسه يعرِض " نجلس بالشرفة !"

وافقت بإمائة رأس

الهواء بارد بلطف

يصيبهم بعض من الأمطار ، لكنها كانت حنونة كريتة على الوجنة.

ثم بدأ الحوار الناعم نعومة نسمات الخريف

"حسناً ماذا تريد نجلاء ؟"

قذفت الإجابة سريعاً

" أريد النجاة

لا لا بل أريد الحياة"

ثم صمتت قليلاً وكأنها تفكِّر

" أتعلم، لا أدري ماذا أريد "

استحضرت ذكرى بعيدة بعد مسافاتها التي قطعتها

" كان يخبرني معلمي أني سأصبح عالمة نباتات ، لطالما أضجرته حكياً بأنواعها ومواسم زراعتها وشكل بتلاتها وبذورها "

"أمّا أمّي فكانت تظن أني أُحاكي البط والأوز بلغتهم"

وضحكت ضحكة رائقة ثم أكملت بعفوية وليدة

"كنت متفوقة بدراستي ، أتذوق الشعر

والأدب،وأفك ما استعصى من مسائل الرياضيات

كنت أندمج مع أخي بحديثه عن النباتات حتى

صرت ماهرة بأنواعها ، والآن...."

صمتت هنيهة تشرد بالماضي وتتأمل الحاضر

" والآن من أنا ، وماذا أفعل ؟

لماذا أحيا وأمرر الأيام ؟ لأي هدف ؟

ما الفارق بين الأمس واليوم وما الذي سيميزهم

عن الغد ؟"

هو يعلم أن ماضيها ممتلء بما يفوق عمرها ، أما حاضرها فوظيفته أن يعلمها كيف تقوده

"وأميرة ؟"

قادها إلى المنطقة التي جمعت النقيضين ، أمانها وخوفها ، وداعتها وشراستها، أملها ويأسها

أحدث الهزة وانتظر التوابع نخرج صوتها محملاً بذاك المزيج من المشاعر :

" أريدها أميرة ،نجمة عالية بالسماء، لا تطالها الأيدي بسهولة ،فقط من يستطيع التحليق ، من

يُقدر قيمة الضوء الساطع ، من يرغب بالعلا ؛ هو فقط من يستطيع الوصول إليها "

ابتسم لها بإعجاب وأمل ثم عقّب على حديثها

"هنيئاً لأميرة بهذه الأم إذاً"

وكانت الفرصة مناسبة لطرق الحديدوهوساخن

"فلتجعليها فخورة بكِ إذا "

تمثل الحزن مع الاستنكار مع التهكم بصوتها وهي تسأله

" وأنّى لي هذا !"

اقترب منها وبنبرة خفيضة مشبعة بالحنو أجابها

"هذه هي مهمتك الآن"

وختما الحديث بهذه البداية

**

وباليوم التالي أخبرته بقرارها

وقفت بكل ثقة تسأله دعماً لن يتأخر عنه

"لقد قررت"

وفركت أصابعها وهي تفكر

" أريد استكمال دراستي،سأدرس بالتعليم المتوسط الزراعي"

التمعت عيناه بحماس وأثنى عليها

"نعم الرأي"

ترددت بالتالي وهي تخبره

"أريد مساعدتك باستخراج بعض الأوراق"

أظهر الدعم فوراً

"بالطبع هاني بإمكانه المساعدة بأي شيء"

"لا لا لا وخرجت بهلع"

ابتلعت ريقها ثم أخبرته بيقين

" يجب أن تعلم ما حدث أولاً

استخراج الأوراق من المدرسة لن يكون سهلاً"

الفصل التاسع عشر

وهل الاختيار متاح للاختيار

تفرك أصابعها بحدة

تزدرد ريقها بعسر

هي مجبرة على البوحِ ،لكنه ليس إجباراً كاملاً فقد تسرب بداخلها يقين ما أنه الشخص المنشود

ذلك الركن الذي بإمكانها الارتكان إليه بثقة

رائحة الحِكمة تفوح منه.

دوماً ما كان تخبرها أمها أن السر إذا خرج من فمك أضحى خبراً للتناقل

"احفظي لسانك نجلاء"

وبسني عمرها الصغيرة يومئذ لم تعِ ما السر وكيفية الحفاظ عليه

والآن وهي تفتح خِزانة أسرارها لمحفوظ تشعر أن السر لن يفارقهما، أنه وفقط سيقود بوصلة حياتها بالاتجاه السليم.

وبصوت خفيض كانت البداية رجاء

"من العسير علي أن أذكر هكذا طلب ،لكن لكن ......"

وتلكأت الحروف أو ترددت وكادت تتبخر فقاطع ترددها بتأكيد وعزم

"أنت ابنتي الوحيدة الآن ،وما تلقينه على مسامعي هو شأن يخص ابنتي لن يسمع به بشر"

أومأ برأسه رغبة في طمأنتها ودعوة للجلوس والاقتراب بأن ربت بكف يده على المقعد المجاور.

"سيد محفوظ ،لن تسمع هنا حكاية عن فتاة صغيرة غرر بها أحد الشباب الطائشين وتركها حبلى وهرب وواجهت هي الحياة بمفردها"

وصمتت قليلا مخفضة بصرها وعندما رفعته فاجئتها ابتسامته ثم ألقى مزحة

"يبدو عليك أثر أفلام فاتن حمامة وعماد حمدي"

ضحكت ثم نظرت إليه وأكملت

"حسناً كن مستعداً للمفاجآت المختلفة بالكلية عن أفلام فاتن حمامة

وبدأت السرد

وكانت تضع بعض من روحها مع كل حرف تسرده على مسامعه

سردت كل شيء بأدق التفاصيل ،الأزمنة والأمكنة وكل الشخوص المتداخلين بحكايتها

حكت الخسارات المتعاقبة ،والحياة التي أدارت لها ظهرها فجأة

حكت الطمع والغدر والخذلان

وحكت عن الأب والأم اللذان اغترفت من بحر حنانهما ثم فارقتهما بغير وداع ولا يعلمان عنها شيئاً

وكان هو أكثر من منصت ،فقط أهدابه ترفرف وكل ما به ساكن ،يضيق حاجباه على ذكر عادل ثم ينبسطا تلقائيا بظهور حسين

وعندما أتت على ذكر الهروب، كان يضغط على مفاصل أصابعه.

انتهت وغلفهم الصمت لثوان طالت قليلاً

قاطعته هي بقولها

"ألم أخبرك أن حكايتي مختلفة عن تلك الأفلام الكلاسيكية"

شبك أصابعه واستند بذقنه عليهما وكان شاردا تماما بالتفاصيل ثم أجابها

"وأنت يا صغيرتي مختلفة بالكلية عن أي بطلة ،لقد تعلمت العزف مبكرا...مبكرا جدا"

صمت جديد كان بطله التفكير ،وتفنيد المعلومات مراجعة الأحداث بالعقل للوصول إلى مخرج

أن تملك الحقيقة الكاملة فتلك معضلة

لن تنتظر باقي قطع الأحجية

عليك الآن أن توجد لها حلا بما بيدك

وفقط

وبعد تفكير بدا سيطول دهرا تحدث

"سوف أحضر الورق من المدرسة بطريقتي الخاصة

فقط أحتاج هويتك"

تهلل وجهها ثم انطفأ ثانية

"أخشى من عادل"

رفع بصره إليها بنظرة نصفها شفقة ونصفها ثقة

"بعد عمر بساحات المحاكم لن أخشى من هذا

العادل"

ارتعبت قليلا وهي تطلب

"لا تخبر السيد هاني بشيء"

تظاهر بالهدوء وهو يبثها بعض من الطمأنينة

" لن أخبره بشيء لا تقلقي"

دلفت إلى الحجرة أحضرت الهوية وقدمتها إليه

وبكل ثقة شددت على حروفها

"كل ما يخص نجلاء بين يديك الآن فاحرص عليها"

أن تختار البداية لهو عين الصواب

لكن أن تختارك البداية فهو عين التحدي

والآن فلتبدأ المعزوفة الجديدة

****

"أبيييييييي"

صرخة فانتفاضة أتبعها استيقاظ

أخذ يردد" لا إله إلا الله"

استيقظت سعاد على صوته فأحضرت له الوعاء

الفخاري ليشرب الماء

"نفس الكابوس؟ "

وكانت تسأل بتقرير

"لا كان مختلفا ، كانت ضاحكة وتطلب مني المساعدة"

فرك وجهه بكفيه وبكل يأس باح لها بالقليل

"توصلت إلى سائق قال أنه شاهدها منذ شهور

حاولت معرفة المكان لكنه لم يتذكر"

وبحزن عاتبته

"ولماذا لم تخبرني؟"

أخفض رأسه بأسى

"خشيت عليك من الأمل سعاد"

الأمل.. ينحر كما اليأس تماما

واليأس ..يقتات على الأمل حتى يفنيه

وكان محقا، فالآن أضيف إلى حزنها حزن،وارتفع

منسوب اليأس ،ففقدت بمقابله بعض الأمل

الذي كانت تحيا به.

أمسكت كفه تستمد منه وتمده بالقوة وثرثرت

قليلا

"أتدري! أحيانا أتخيل أن الباب سيدق وأفتح

فأجدها وصغيرتها أتلقفهما بأحضاني

وأغلق الباب بألف مزلاج حتى لا يصل إليهما

ذلك الوغد"

نظر إليها بأسى ورجولة باكية"

هل أنا ضعيف يا سعاد ،لم أستطع حمايتها فهربت ونجت بابنتها بعيداً عني"

نفت فورا بإشارات رفض من يدها ورأسها وبصوت يخترقه البكاء"

لا لا لا تقل هذا يا إسماعيل ،لقد خافت البنت ولم تنتظر لترى ما سيحدث"

أخفض رأسه بخزي وهو يغمغم"

ما الذي سيحدث! لقد ضيق علينا بالرزق وأكسبنا عداوات ما سعينا إليها من كان سيقف بصفنا ضده"

رفعت وجهه بيدها بقوة وحنان ثم أشرق صوتها وهي تخبره

"ألم تصدق دائما بحدس قلبي !قلبي يحدثني بالخير ،استبشر يا إسماعيل استبشر"

***

المنزل خالي إلا منها و نيرة

والأمطار تتساقط بغزارة بالخارج

كانت بالمطبخ تُعِد حساء العدس ومحشي الكرنب

ما يلائم الأجواء

تذوقت الحساء فأضافت بعض الملح ثم قلّبته

ووضعت الملعقة

عندما سمعت رنين متواصل على جرس الباب

جففت يديها وتوجهت لتفتح الباب وهي متعجبة

هذه ليست عادة السيد محفوظ فهو يضغط ضغطة

واحدة فقط وينتظرها لتفتح.

الرنين مزعج جدا،من يكون الطارق يا تُرى!

"حسناً حسناً أنا قادمة"

فتحت الباب وتسمرت تماماً وأجزمت أنها بالتأكيد تتوهم، فمن رأته خارج عن حدود المنطق.

"نجلاء"

وكان نداءً متلهفاً باكياً مشبعاً بعواطف من ألم وحزن وفراق وسعادة لقاء

ولقاء عيون أحدها محدق بعدم تصديق والآخر يتشبع من الملامح

ووجدت حُضنا يضمها فذابت به.

"أمي "والتفتت جانباً " أبي"

.....

حالما انتهى إسماعيل وسعاد من حوارهما ، قاما فتوضئا وبعد الانتهاء من الصلاة وجدا طرقا على الباب، فتحت سعاد لتجد أحد العاملين بالمدرسة الإعدادية التي كانت تدرس بها نجلاء.

تعجبت من تلك الزيارة الصباحية فبادرها بالتحية

"صباح الخير يا أم نجلاء"

"صباح الخير يا سيد شكري خيرا"

ابتسم من تعجلها فأراد طمأنتها"

خيرا بإذن الله ،أين الحاج إسماعيل؟"

حضر إسماعيل من خلفها متعجبا ذات التعجب

"خيرا يا سيد شكري"!

"لا تقلق يا حاج إسماعيل خيرا بإذن الله مدير المدرسة يريدك لأمر هام"

ثم أخفض صوته" ولا تخبر أحدا بذلك"

نظر إليه يستشف من ملامحه شيئا فلم يجد

"حسنا انتظرني لدقائق"

قاطعه شكري مرتعبا"

لا لا لن أبقى ،لقد أكد السيد المدير ألا يرانا أحد معا"

ازداد تعجب إسماعيل فلم يملك سوى الحضور حتى يتوصل لأصل هذا الأمر

منذ عبوره بوابة المدرسة لم يجد ما يثير الانتباه أو الريبة، توجه لحجرة المدير ونقر الباب بهدوء ثم دلف إلى الداخل

قابله وجه أبيض البشرة ودود الملامح تفحص كل منهما الأخر

ثم وصله صوت المدير

"تفضل يا حاج إسماعيل"

"هذا صديقي السيد محفوظ سيتحدث معك قليلا"

قالها وهو يتحرك من خلف مكتبه خارجا من الغرفة

"سوف أترككما بمفردكما"

نظر محفوظ تجاهه كان له هيبة ووقار لا يمكن تجاهله"

كيف حالك يا أبا نجلاء"

وعلى ذكر اسمها ارتج جسده وتحجر بؤبؤا عينيه ،ازدرد ريقه ثم أجاب باقتضاب

"بخير"

أراد محفوظ استغلال الوقت سريعا قبل أن يلتفت أحد لوجود إسماعيل هنا وبصوت خفيض بدأ معه رحلة جديدة

"أتيتك من طرف نجلاء"

هب الرجل واقفا بقامته الطويلة جاذبا معه كتفي محفوظ ،وبصوت لاهث من الانفعال غير مصدق لما سمعته أذناه

"ماذا قلت؟"

أمسك كفيه يحاول امتصاص انفعاله

" اهدأ يا حاج إسماعيل، نجلاء بخير"

كان متلهفا لأي كلمة أو خبر

" أين هي ؟كيف حالها؟وأميرة ماذا أصابها ؟"

"بخير أقسم لك أنهما بأفضل حال"

وأمسكه من كفه وأجلسه

" اجلس وسوف أقص عليك كل شيء"

قص عليه ما مرت به نجلاء حتى وصلت إلى منزله

شرد الأب طويلا ثم تحدث بنبرة مكتومة بغضب وحزن

" تعني أن نجلاء الآن تعمل بالبيوت"

"لا لا لقد أخطئت الفهم هي تؤنسني أنا وزوجتي وتساعدنا"

نظر إليه الأب يستشعر ريبة ،ولا يدري هل يصدق الحكاية أم لا ! لكنه لا يملك سوى التصديق.

عندما لمس محفوظ الهدوء منه حدثه عن الأوراق الموعودة

"والآن نأتي لنقطة مهمة ، نجلاء تحتاج أوراقها وشهاداتها من المدرسة لأجل الالتحاق بالمدرسة الأخرى"

بذات الصوت المكتوم أوقف استرسال حديثه

"أريد أن أراها أولاً، بعدها لنا حديث"

أومأ برأسه موافقاً

" أصبت وهذا ما جئت أسعى إليه، نجلاء لا تعلم بوجودي هنا الآن ،فلنجعل زيارتك لها مفاجئة وسرية يا سيد إسماعيل "

ضغط على ضروسه بغضب شديد

"سرية "

تنحنح بحرج

"سيد إسماعيل ، أنت أعلم بالأشخاص هنا أفضل مني ، لكن من حديث نجلاء عن عادل هذا أظن انه من الأفضل ألا يعلم أنك تعلم مكانها "

ثم استدرك فوراً " على الأقل الآن حتى تجلس مع نجلاء "

هزرأسه بأسى واتفاق مع ما صرح به

ثم ساق له الخطة التي أعدها

"بعد حصولك على الأوراق بأيام تدعي أنك مريض وذاهب إلى المنصورة تركب السيارة وفور

الخروج من الاسكندرية تنزل منها وسوف تكون هناك سيارة بانتظاركم تحضركم إلى هنا "

وقد كان

***

تجلس جوارهم على الأريكة كل منهما يحتضن أحد كفيها وهي لازالت غير مصدقة

وأميرة متقوقعة داخل حضن جدها بسكون وسلام

كان محفوظ يراقب انفعالات وجهها والسعادة تملؤه

عندما حولت نظرها تجاهه وأهدته نظرة امتنان ستظل وساماً يحتفظ به لسنوات.

كان يرتب لهذه اللحظة منذ أسابيع

جمع بعض المعلومات عن القرية ،وعن المكان الذي تقع به مدرستها بقرية كبيرة تبعد عنهم بمسافة ليست قليلة

توصل عن طريق دائرة معارفه لأحد المحامين التابعين لهذه الدائرة والذي أوصله بمدير المدرسة.

أعد الخطة وتمنى من الله نجاحها

ذهب إلى مدير المدرسة على أنه أحد المحامين والذي يترافع في قضية ما ،يجمع لها بعض المعلومات ويحتاج لمقابلة السيد إسماعيل بصفة ودية وسرية ،وساعده زميله على ذلك

....

تركهم بمفردهم

كانت أمها تلاحق الكلمة بأختها

"كيف مضى هذا العام ؟ أين ذهبت ؟ وأميرة كيف تعاملت معها؟ والناس ؟ "

وهي تجيبها عن كل أسئلتها وتطمئنها على كل تفصيلة ، ثم تسأل عن أحوال الأخوات والأخ وتطمئن على الجميع.

وعندما التفتت وجدت أبيها يطالعها بنظرة غريبة ، جديدة ، كانت خليطاً من غضب وغيظ وثقة وإعجاب خفي .

اقتربت وأمسكت كفه وقبلتها وأخبرته عمّا سألته عيناه

"كان حتمياً يا أبي "

أطرق بحزن فاقتربت تشارك أميرة بحضنه

"كان سيتزوجني رغماً عن إرادتنا جميعاً أبي"

وفور تذكرها أجهشت بالبكاء

"كان سيخرج أحقاده وكرهه من أخيه الراحل بي

أنا وابنتي وسيحيل حياتنا بحيماً"

"والحاج برهام لا يملك حيلة أمامه ولا حتى

الحاجة فاطمة "

تبادل إسماعيل وسعاد النظرات فتوجست

"ماذا هناك ؟"

أطرقت سعاد بوجهها

"الحاج برهام ترك لك العمر الطويل "

صرخت بجزع "لا"

احتضنتها الأم وشددت من الضمة

"القرية اختلفت عن الماضي ، وعادل صار متجبراً،وكأن رحيل حسين قد أطفأ مصابيح البهجة على الجميع "

شعرت بنشيجها المكتوم فزادت من الضمة

"فليبارك الله بأميرة يا ابنتي هي خير عِوض"

وهنا تحدث أبيها

" نجلاء ،ستعودين معنا ، أليس كذلك؟"

مسحت دموعها واعتدلت بشموخ

"ليس الآن أبي "

"أحيا هنا بأمان ، وسوف أكمل الدراسة ، السيد محفوظ وزوجته أمينان وحنونان جدا ،وأنا أعمل وأُنفق من راتبي لا يعطف أويتفضل علي أحد، لم ينقصني سوى رؤياكم"

نظرلها والدها بعتب فأقنعته

"صدقني يا أبي لم يحن موعد العودة بعد "

جلسوا طويلاً يتحدثون بكل الشئون ويخططون معاً للقادم

تزودت منهم بزاد يعينها على أيامها القادمة

زاد من المحبة.. من الاحتضان .. من هذا الأمان المفقود الذي لمسته فور أن رأت وجيهما أمام الباب

زاد من القوة والصمود على بناء نفسها لتقف أمام هذا الطاغية

كانت نجلاء تتشكل من جديد تبعاً لمتغيرات حياتها

وهذا ما طمأن الأب

زودها بمبلغا من المال ووعدها بمثله كلما استطاع

نقر محفوظ على الباب يدعوهم لطعام الغداء

حاولوا الاعتذار لكنه أبى بشدة

"كما تقولون فليجمعنا خبز وملح"

لفتهم طاولة الطعام التي أبدعت فيها نيرة من المأكولات البحرية

"قطعاً لا أستطيع أن أجاريكم بصنوف الطواجن وغيرها لذلك لجأت إلى الأسماك"

استشعرت سعاد الحرج

"ماذا تقولين ! هذا كرم زائد منكم ، لا نستطيع رده ما حيينا "

جلسوا جميعا وفورأن شرعوا في تناول الطعام

رن جرس الباب ورافقه نقر على الباب نقر ذا إيقاع

فتحت نجلاء فوجدت علي يحشر رأسه ويشمشم

"اممممم كنت متأكداً أن حماتي المستقبلية تحبني لكن ليس لهذه الدرجة "

لم تفسح نجلاء المكان لدخوله فشاكسها

"تنحي جانباً يا بسكويتة لُعابي يسيل من هنا أقسم بالله "

وهي متسمرة لا تدري ماذا تفعل

تدخل محفوظ سريعاً ودعاه للدخول

نظر إليها يطمئنها ثم دعاه للدخول بوجوم

"تفضل يا علي "

دخل فوجد أغراب منضمون للطاولة

"لديكم ضيوف ، لماذا لم تخبريني نجلاء" واستشعر الحرج

"ليسوا ضيوفاً عليّ ، انهما انهما ...." وصمت يريد اختراع كذبة

"انهما والديّ علي "

حدقوا جميعا ببعضهم البعض

وهو نقل بصره بينها وبين محفوظ وبين الأغراب

أراد إنهاء حرج الموقف فتقدم مصافحاً الأب

"علي ..بإمكانك تعريفي بأخي نجلاء "

ثم انتقل إلى الأم

" لطالما ..لطالما تسائلت من أين أتت البسكويتة

بهذا الجمال والآن زال اندهاشي "

"عليّّ" وكان محفوظ ينهره

"عليّ شديد المزاح ، لكنه موضع ثقتنا جميعا سيد

اسماعيل"

"أهلا بك يا ولدي "

وبمزاحه المعتاد كسر جليد التعارف والرهبة

"تصافحنا وتعرفنا لن أمكث واقفاً للأبد وأمامي هذه المائدة العامرة "

"ناوليني صحنا يا بسكوي ... يا نجلاء .... أقصد يا أم أميرة "

وقهقه الجميع ضاحكين من ارتباكه ومزاحه

عقب الطعام جلسوا جميعاً بجلسة كانت عائلية ودودة باقتدار وبالقطع كان بطلها الكمان الذي أجاد السيد محفوظ اختيار لحنه مناسباً للموقف .

قبل أن يغادروا استئذنه اسماعيل بالحديث على انفراد

" ابنتي كانت بأمانتك دون أن ندري فحافظت عليها لذلك لن أوصيك بها أعلم أنها بخير جوار ، فقط أستئذنك بزيارتها من آن لآخر "

"ماذا تقول يا سيد إسماعيل ، هذا بيتك بإمكانك القدوم متى شئت فقط احتاط من عادل هذا "

عند الوداع تشبثت بهم نجلاء ببكاء مرير

وهما قدما انهيارا مقابلا

"فقط أريد سماع صوتك يا ابنتي "

فوراً عاتبتها نيرة

" هنا بيتكم سيدة سعاد ، بإمكانكم زيارة نجلاء دائماً ، أو محادثتها على الهاتف "

تخلصت من أحضانهم بعسر ثم رحلوا

لعنت الفقد والظلم والتجبر

لعنت القوة المزعومة التي يمتلكها عادل

ثم أقسمت أن تكون أقوى وأن تعود مطالبة بكامل حقوقها يوما ما

****

لم يسأل عليّ عن تفاصيل لا فائدة من سردها

واحترمت نجلاء هذا كثيراً

وشق كل منهما طريقه

هو بدراسة المحاسبة

وهي بالزراعة

والأيام كفيلة بتطبيب الجروح

والحال يتغير أحياناً تبعا للمراد

يوم ..شهر ... عام ...أعوام

كانت فاتن خير معين لها برحلتها تحضر لها كتب

تشاركها بأمسيات المذاكرة

وتحمل عنها أميرة بعض الوقت للذهاب إلى المدرسة أحيانا

تستمد من وجودها دفئاً خاصاً لا يقارن بشيء

واندمجت بالدراسة جدا ، فالتخصص يوافق اهتماماتها بالماضي وصارت شغفاً بالحاضر

الأسرة تزورها على فترات متباعدة تتشرب من حنانهم ويتزودوا برؤيتها على أيام الغياب

أميرة صارت بالروضة ، تكتب أبي وجوارها حسين

وتحفظ كل فعل فعله مع نجلاء من حديثها عنه

لكنها تعلم أنه سافر إلى حيث الملائكة الطيبين

وأما الآخر

ذاك الذي احتل مساحة بالعقل وربما طال القلب

كان يظهر دوما بطريقها

يخبرها أنه موجود .. باق على عهده ... لم يفتح خزائن قلبه لغيرها

ينتظرها عقب كل اختبار بقلق أب

يوصل لها رسائل بعينيه أنه لا زال منتظراً بل وازداد تمسكاً

"هاني"

أخضعها للعديد من الاختبارات حتى تيقن من

صدقها وعلم أنها لا تبغي شراً

ثم أصبح يكن لها الأكثر

تقدير واحترام لهذا الجهد وهذه المثابرة

تأكد أنها ليست طامعة وعلم أن عمه وزوجه بأمان

وعنه "الأب الروحي "

بحياتك تحتاج دوما نقطة اتزان

شخصا تكون معه أنت

أنت وفقط

دون حسابات أو قيود أو محاولات تجمل وإظهار الكمال

من يعبث بمكنونات النفس

يخرج ما خلف الغبار

شخصا يراك كما لم تر نفسك من قبل

يفتح كل جنبات تلك الروح

ويبحث بيقين تام عن كنوز لم ترها يوما بذاتك

من يقبل العيب ويغض الطرف عن السيء

من يجيد الإنصات، ويبدع في التعبير

ومهما ادعيت القوة ، تبقى دائما بحاجة لنقطة الاتزان تلك

وإما أن تكون ذا حظ سعيد فتعثر عليه برحلة حياتك

أو تواصل البحث للأبد

وهي...

رغم نوازل الدهر التي أصابتها كانت سعيدة الحظ بنقطة اتزانها

مستيقظة حتى خيوط الضوء الأولى تستذكر دروسها

وجدت من يأتي حاملا كوب من الحليب وبعض الشطائر

وبصوت يفيض حنان سألها وهو على يقين

"ستكونين الأولى، واثق تمام الثقة من هذا"

ومن ثقته بها استمدت ثقتها بنجلاء

التي تحارب الآن أمام نفسها قبل الجميع.

فأجابته بعزيمة وإصرار

"الأولى بإذن الله"

وأتمت اختباراتها

وانتظرت النتيجة على جمر

وشاهدت فاتن من الشرفة قادمة من بعيد

" الأولى نجلاء .. الأولى مثل كل عام "

قفزت بسعادة لا تُوصف واحتضنت أميرة تدور بها في الغرفة

مساء دعاهم محفوظ لتناول المثلجات

اجتمعوا جميعا محفوظ ونيرة ونجلاء وأميرة وفاتن وهاني وكانوا بانتظار عليّ

عندما دخل ببهجته المعهودة

"بالقطع لا شيء مذاقه حلو دون عليّ"

وكانت معه كفوفهما متشابكة ، تلك من أنارت القلب بعد ظلام

وكانت واحته النضرة بعد صحراء التيه القافرة

"مرحباً كريمة " واحتضنتها نجلاء بمحبة أخت

أمسية مميزة والسعادة ترفرف عليهم بتفوق نجلاء

كانت تتحرك بخفة وكأن السعادة أضافت لها

جناحين

عيناه كانتا تراقبانها بإعجاب لم يستطع إخفائه

اقترب منه محفوظ وقبل أن يفتح فمه

" أعلم أنه مستحيل لا تقلق "

"أشك بالأمر منذ سنوات لكن عيونك فضحتك

اليوم "

أدار وجهه بعيدا

"هي فراشة رقيقة رفرفت بأجنحتها حول حياتي

لكني أعلم أنها لن تستطيع الطيران جواري"

ربت محفوظ على كفه

" أحسنت بني "

أوشكت الأمسية على الانتهاء عندما قام محفوظ

وطلب منهم الإنصات

فالتفوا جميعهم حوله

وبدأ هو بهدوئه وصوته المريح يتحدث

" والآن تتسائلون ما هي هدية نجاح نجلاء ؟"

دُهشت نجلاء

"أية هدية أكثر من هذه الأمسية؟"

اقترب منها واضعها بيدها ورقة فتحتها وجدتها

عقداً

محرراً باسمها

عقد إيجار

لمشتل زروع

فلتبدأي العزف على أوتار كمانك نجلاء .

الفصل العشرين

وبعد أن بدأنا

فلنحسن الختام

هناك أحداث نقف عاجزين أمامها

تنحنى الحروف أمام جلال اللحظة

ولا يليق بها سوى الصمت

وقد تشاركه الدمعات

ناظرت العقد غير مصدقة ، محملقة بعيونها ، فاغرةً فاها ، الابتسامة مرتسمة على كل قسماتها وفاقدة للنطق

تبدل نظرها بينهم

السعادة والمفاجئة بادية عليهم جميعاً وجميعهم ينتظرون ردة الفعل

عادت إليه ببصرها سريعا كلما فتحت فمها أغلقته وأخيراً حاولت تخطي الموقف

" سيد محفوظ أنا ... أنا "

وصمتت ثانية ، اقتربت منها فاتن تحتضنها وأعطتها كأساً من الماء

ابتلعته بجرعة واحدة ثم التفتت إليه ثانية بهدوء

"سيد محفوظ هذا كثير... لا أستحقه... كبلتني بكرمك طوال الثلاث سنوات الماضية ، لا أستطيع قبول المزيد "

تبدلت نظرته من المودة إلى الغضب ثم العتاب

"نجلاء "

"هذا عقد إيجار ريثما تستقر أمورك المالية بعدها فلتدفعي الإيجار كما شئت"

وقبل أن تنطق لاحقها "ولا تزيدي حرفا واحداً"

أحاطتها كل من فاتن ونيرة وكريمة بأحضانهن ومن زحام الأحضان أطلت بعينيها فرأته دامع العينين ، ووصلتها مشاعره المختلطة جميعها .

كانت تائهة ضائعة جاهلة ببدايات العزف المنفرد ففاجئها القدر بأوركسترا متكاملة

مايسترو بارع

وما عليها سوى الإمساك بعصاتها كما يحلولها ونثر ألحانها المندمجة مع الجميع

****

وأنيق المشاعر صار أنيق الحديث أيضاً

أنيق المشاعر صار أنيق الحروف أنيق الحضور كان لابد من زيارة ومباركة ،مرتديا أفضل ثيابه بنطال بلون الحليب المعكر بالشاي وقميص بلون السماء ،ومحملا بعلبة مغلقة ،هدية لها.

دخل وألقى السلام و فور أن رآها صار مشدوها.

اليوم ترتدي ثوبا زاهيا من الأزرق الزهري، لونه

المفضل ،وحجابها أبيض اللون مثل قلبها، وجهها

مستنير تزينه ابتسامة خلابة ،تحيطها المزروعات من

كل اتجاه كبدر مشرق بليلة مقمرة يضيء عتمة

الليل.

لاحظت انفعالات وجهه فأصابها الحرج البالغ فلم

ترد السلام.

ظل محدقا بها فاحمرت وجنتاها وأطرقت..

وأخيرا تحدث

وهو الذي لم يخطو يوما بدروب العابثين ،ولا

يدري شيئا عن فنون المغازلة

فما يقوله نابعاً من عمق مشاعره وصدقها فقال:

"لا أجمل منك إلاك"

وخرجت بعفوية صادقة

ورجل التدوين ثرثر عما يدونه

اقترب خطوة وأخرى لم يفصلهما سوى طاولة تحوي أنواعا من الصبار ، عقد ذراعيه ونظر إليها

"كلما رأيتك كنت أدون اليوم وذكرى المقابلة "

تملكها الخجل أكثر فأشاحت ببصرها لكنه أضاف

"اليوم وأنا بالطريق ،لا أدري لم تسائلت عما سأدونه حال عودتي ! حتى أتيت واختطفني بهالتك تلك"

صمت قليلا وبصوت مشحون بعاطفة راقية أقرها حقيقة واقعة

"اليوم سأكتب لقد خطفتني نجلاء ولا سبيل للنجاة

صار مكتوبا علي الغرق بهاتين العينين النجلاوتين حتى آخر العمر"

يا الله ... أرادت من ينتشلها فهي تغرق بالفعل

تغرق بالصوت ،الهيئة ،البسمة

وتغرق بتلك الكلمات

تغرق بالعاطفة التي يحفظها بالقلب وتنمو عام بعد عام

ولا تدري هل مسموح لها الغرق أم لا

أرادت أن تجيبه بكلمة ، طمأنة لكنها احتاجت الطمأنينة قبله

"ماذا تفعل بي سامي ؟"

وابتسم مطمئناً فهي تنشيء معه حوار وهذه بادرة جيدة فتنهد طويلاً

" أحبك يا نجلاء ، دون مواربة "

همّت أن تجيبه فقاطعها

" تصريحي هذا لا أقصد به توريطك ، لولا شعوري بوجود شيء بيننا ما انتظرتك هذه السنوات "

وشهقت بخجل واضعة يدها على فمها

فضحك ضحكة متلذذة بهيئتها الخجول وتعثرها بالحديث

وما زاد من حنقها أنها رأته وسيماً عند الضحك ، وهو لاحظ نظرتها فاتسعت ابتسامته أكثر

حاولت ادعاء الجدية لكنها لم تستطيع ، حضوره الأنيق ، وكلماته جاءت بلسماً لروحها

ولأول مرة تعترف نجلاء لنفسها أن القلب يدق

وأن هذه الدقات مختلفة

ولأول مرة لا تكبت تلك الدقات

وباتت متلبسة أمام نفسها قبل الجميع بفعل العشق

وإن كان عشقاً نامياً فلن تستطيع إنكاره

ولكن يأتي السؤال

"وماذا بعد سامي ؟"

واعتبره تصريح ، ولم يسعه الكون سعادة ، وذلك الوقور الهاديء

قفز خطوتين وجذب زهرة حمراء من إصيص مجاور وقدمها إليها وحاكاها بسعادة تملؤه

"الآن يكفيني ما رأيت ولا أطلب المزيد "

أخفت وجهها بكفيها خجلا وتبسمت وتوردت فأشرق الكون لديه وبدا وكأن عِقد بوحه قد فُرِط

" يا الله سيهلك سامي حتماً على إثر تلك البسمات الخجلى "

تنحنحت برقة لتتغلب على الخجل

" سامي كلانا يعلم أن والدتك ترفض أي ارتباط "

رفع حاجبا مداعبا وشاكسها

" ومن قال ارتباط!"

تبدلت نظرتها فوراً للغضب ومن ثم أدارت وجهها بعيداً

التف إليها وتحدث بكل وضوح

"حتى الآن لم أُقدم عرض الزواج الذي يليق بك ، والذي أضمن موافقة جميع الأطراف عليه ، عرضاً يليق بكِ كما أراكِ نجلاء "

صمتا قليلاً وقطع هو الصمت بكلمات صارمة

"يوم أن تسمحي لي بالاطلاع على خزائنك الخاصة

أظن وقتها أن علي إعداد العرض المناسب "

ورأت أن معه الحق كل الحق

هو من رابط على ضفاف قلبها سنوات وأحق

الناس بدخول حجراته

لكنهاغير مستعدة الآن

رفعت بصرها إليه ، والتقت العيون بشرود ،

متبادلة رسائل صامتة .

بصوت واحد نطق كلاهما

"سامي"

"نجلاء"

ابتسما مجددا ثم بادرها محولاً دفة الحديث

"ألن تفتحي هديتك ؟"

انتبهت للهدية التي قدمها إليها

فضت الغلاف وفتحتها ووجدت

"هاتف "

وخرجت بسعادة ولهفة كالصغار

كانت تفتح العلبة بتعجل وخجل وهو يراقبها

يتشرب ملامحها ، حركات أصابعها ، أنفاسها

المرتفعة بفعل الانفعال

احمرار وجنتيها وأرنبة أنفها ، وكان هو من يغرق بها هذه المرة لكنه كان يريد الغرق ، ويبحث عنه

رفعت بصرها ووجدته هائما بها فرفعت حاجباً تزجره

وذاك الأنيق الرقيق لن يفلت زمام قلبها بعد الآن

"ماذا ! أشاهد وقع الهدية عليك، هل هناك مانع من ذلك ؟ "

تتورد وتخجل وتخفض بصرها ثم ترفعه طالبة منه أن يشغل الهاتف

تحركت يديه يدخل شريحة الخط ويضبط الجهاز

وهو يحاكيها بكل أريحية

لقد تخلى عن الرسميات وترك لقلبه العنان

"كنت مغتاظاً أننا لا نستطيع الوصول إليك أبداً ،

أكون مضطراً دائماً لمهاتفة علي للاطمئنان ، الآن

أحاكيك متى شئت"

وكان سعيداً بحق

غارقاً بحق

متشبثاً بحق

وعنها يبدو أنها ستصوغ ألحاناً جديدة .

واختارتك الحياة سفيراً عن القلب تحارب من أجله وتبقى شاهراً سيفك بوجه أي عدو إلى النهاية

يشار لك بالبنان كصاحب أسطورة عشق

وترتضي الدور وتضيف إليه من روحك فيصير اسمك مربوطاً بمتمم دقات قلبك حتى الرحيل.

ولكن تريد الحياة أن تمنحك حق التجربة

كيف يمكن للعقل أن يدير الدفة ويبقى القلب راضياًَ!!

نقر رتيب على الباب

نقر هادىء غير متعجل

وفتحت الباب

"سلام عليكم "

غير مصدقة للشخص ،لوجوده، لهدؤه

لم ترد السلام بل اندهشت فورا

"منير !"

وكان متوقعاً رد الفعل فابتسم وأجابها

"بلى منير"

تسمرت قليلاً ، سنوات طويلة مرت ،تقابلا خلالها مرات قليلة في مناسبات عائلية ولم يكن الود سيد الموقف لكنه كان يحترم غيرة زوجها ولا يريد إحراجاً مع زوجته كذلك .

لطالما أكنّت له كل احترام ومودة على رجولته وانسحابه دون ضجيج.

يوم وفاة زوجته ذهبت لتقديم واجب العزاء بحزن حقيقي وأسف ليُتم أطفالها.

طال الشرود فقطعه هو

" ألن تدعيني للدخول ؟"

استفاقت من الشرود على وقفتهما ومواربتها الباب

"ها بالطبع ..تفضل منير "

أزاحت نفسها عن المدخل وقادته إلى غرفة الصالون والحيرة تغلفها

جلس ثم طلب قدحا من القهوة

أتته بها وأصابعها تعاني شبه ارتجافة من التوتر

كان عليها أن تخرج من هذه الحالة فرسمت ابتسامة مجاملة على وجهها

" كيف حال الأولاد؟"

ارتشف رشفة من قدحه ثم رفع بصره إليها وتنحنح

" من المفترض أن أقول حمدا لله بخير حال .."

وصمت قليلا

" لكن مع الأسف ليسوا بخير "

ارتسم القلق على ملامحها كلها

"ماذا بهم ، هل أصابهم شيء ؟"

أطرق رأسه بأسى

"منذ رحيل ميرفت وهم متأثرون جدا... تعلمين بالطبع وجود الأم لا غنى عنه"

شاب عينيها غمامة من بكاء لم تهطل بعد

" يا صغاري..لطف الله بهم "

ولم تلبث أن التمعت عيناها واستدارت إليه بحماس

"منير بإمكانهم الإقامة معي ،صدقني سأرعاهم حق الرعاية "

مد يده لكوب الماء يرتشف منه رشفة

تساقطت بعض القطرات على ملابسه رفع محرمته الورقية وجففها بتلعثم ثم رفع بصره ليلاقي بصرها في نقطة ... نقطة واضحة له ... خافية عنها ... وتنحنح ثم صرّح :

" أرغب بالفعل أن تقومي برعايتهم فاتن لكن دون أن يحضروا هنا "

زوت ما بين حاجبيها بتفكير

"وكيف هذا ؟"

"نتزوج"

وقذفها بوجهها هكذا دون مقدمات

ارتج جسدها بصدمة

"ماذا !!"

وكانت الحيرة من نصيبه

هل يفصح عن محبة بالقلب ما غربت شمسها حتى الآن؟

أم يحدثها من الزاوية التي يعلم علم اليقين أنها لن ترفضها " أطفاله "

والبداية كانت المسئولية

" الأولاد يحتاجون أم ، ليست زوجة أب ولكن أم.. لن أطمئن عليهم مع أحد سواك كما أن ... "

رفعت بصرها بتوجل مما سيذكره

وعنه فقد أخفض بصره ثم رفعه وبكل رقي ونجل أضاف ما لم يكن خافياً

" مكانك بالقلب كما هو فاتن "

وفاتن صاحبة الأربعين عاما ويزيد والعمر الطويل بزواج ناجح جدا تتورد بخجل فتيات ويرتج عليها فتصمت تماما.

ينظر إليها بأمل ..بخوف .. بترقب وعنها لم تكن حيرى لأنها لم تستعب الأمر بالأساس

منير ومشاعر وعُمر وزوج راحل والكثير !

كاذب من يدّعي أن كلمات المحبة لا تطرق باب القلب .

وكاذب أكبر من يدّعي أن أثر المحبة ينمحي بمرور العمر.

بل تقرؤه العيون دونما جهد

تتغافل

تتجاهل

لكنها تقرؤه

وهي لطالما قرأت المحبة بعيون منير بتلك اللحظات الخاطفة التي كانت تجمعهما

لكنها دوماً ما كانت تتجاهل وتترك له حرية الاحتفاظ بمشاعره

فهي أدرى الناس أن القلب لا سلطان عليه وذاقت ذاك السلطان.

لكن الآن بهذا العُمر تبدأ من جديد !!

وعزمي حُب العمر

والأطفال ...تلك النعمة التي حُرِمت منها .. هل يكون عرضه هذا عوض من الله

يستحثها على الحديث ويخشى الإجابة فملامح وجهها تشِي بحرب داخلها

"ما رأيك فاتن ؟"

تتلعثم وتحتار حيرة حقيقية

"أ أ أ لا أدري منير "

وكما هو راقياً " سأترك لك حرّية التفكير ثم أزورك ثانيةً لأسمع الرّد"

همهمت بكلمات غير واضحة فهمّ بالرحيل

"ألقاك قريباً يا ابنة العمّ"

أغلقت الباب خلفه وحسمت أمرها عليها زيارة نجلاء والسيدة نيّرة يجب أن تجد من تثرثر معه ويشاركها الرأي.

***

وأنثى أخرى بعرض زواج آخر

لكن هيهات بين الحال والحال

ذلك الكيان المكبل بقيود وقناعات مجتمعية أطفأته وأذهبت بريقه

أكملت العام الخامس بعد الثلاثين لكنها لازالت على جمالها

جمال متشح بالشجن والحزن لكنه جمال لا تُخطأه العين

لازالت ابن أبيها تتابع أملاكهم بكل دقة

ما غاب عنها هي الروح

صارت شبحاً ساكناً جسد أنثى مفعمة باللامبالة

اليوم عليها أن تقابل السيد "شعبان " أحد أكبر تُجّار الأعلاف ،بدلا عن عادل

لماذا !!

لأنه اصحب الزوجة الجديدة بنُزهة !!

وأصاب شفتيها نصف التواء ساخر!

نصف فقط ككل شيء تحياه .

ذهبت إلى مكتب عادل لاستقبال الرجل وترتيب الأوراق والاتفاق على الكِمّيات

مرتدية ملابسها الأنيقة ببساطة

ثوب من ألوان مختلفة بين درجات البني والبرتقالي ووشاح كريمي اللون.

تخلت فقط عن حذاء(عمّال الإطفاء) فهي اليوم تُمثل العائلة

ولا تدري لم استرجعت ذكرى رحيل حسين ؟ لو كان موجوداً

لقابل هو الرجل .. ولدعمها بوجه أخيه المتجبر ..ولراعى صحة والدته المتدهورة ..

ولو لا طائل منها الآن .

نفضت سواد الماضي وذكرياته عندما أخبرها

العامل بقدوم (الحاج شعبان)

والذي لم يكن (الحاج شعبان تاجر الأعلاف

بالمعنى الدارج)

رجلٌ بأواخر الأربعينات بكامل لياقته وأناقته

وشبابه يرتدي بنطالاً وقميصاً تعلوهم سترة وممسكاً

بمسبحة بيده اليمنى .

بدأت الجلسة بتبادل التحية

واختتمت بمعرفتها أنه متزوج ولديه من الأولاد

أربعة

وأنه ورِث هذه التجارة عن والده لكنه بالأصل محاسب مالي

واستشعرت بعض الأُلفة .. هناك من يتحدث معها

أتمت معه الاتفاقات وبقي بندٌ واحد كان عليه الرجوع إلى مخازنه للتأكد منه ثم يكون كل شيء في حيز التمام .

وأوضح أنه سيرسل أحد مندوبيه لينهي معهم الأمر

لكنه لم يبعث أحد مندوبيه بل حضر بنفسه

وذهب أولاً إلى معمل الأجبان الذي علم بوجودها الدائم به.

كيف علم ؟ لقد أجرى عنها بحث شامل فور عودته!

السن والحالة الاجتماعية والظروف المحيطة

ووجد أنها الشخص المناسب لما سوف يطلبه

أخبرتها إحدى العاملات بوجود شخص بالخارج يطلب مقابلتها

خرجت فوجدته وتعجبت

شملها بنظرة فاحصة من رأسها حتى أخمص قدميها

ثم ابتسم

"مرحباً سامية "

حذف الألقاب وفاجئها بالزيارة وهي بهيئة مزرية لكنها لا تكترث

"مرحباً سيد شعبان "

كانا لا يزالان على وقفتهما

"جئت لأتمم آخر بند بالاتفاق "

برمت شفتيها بتعجب

"حسناً بكل توفيق بعون الله"

يبدوأن من أمامه جاهلة بالبشر ،لا تدري أنه جاءها خصيصاً

فاضطر إلى التصريح

" جئت أحاكيكي قليلاً "

زوت ما بين حاجبيها بتفكير "عن ماذا ؟؟"

امتعض من الوقفة أمام العمال

"هل لنا بالجلوس !"

رفعت بصرها إليه بتعجب قليلاً ثم قادته إلى

مكتب الإدارة

وجلس يأتي بكلمة من الشرق وأخرى من الغرب

وهي تستمع

"أخبرتك اني متزوج أليس كذلك ؟"

وبكل تعجب تجيب أسئلته "بلى "

"لدي من الأولاد أربعة "

استشعرت الملل "سبق وأن ذكرت بالفعل "

نظر إليها متخوفاً من ردة الفعل ثم غامر بالحديث الذي ربما يغير مجرى السرد بروايتها إلى الأبد

"ما لم أخبرك به أني انفصلت عن أم الأولاد منذ عام مضى لظروف تخصها ،انفصال وليس طلاق ، ومنذ ذلك الوقت وأنا أبحث عن زوجة تشاركني الحياة "

بدأت أنفاسها بالارتفاع وارتعبت مما تصورت أنه سيطرحه عليها

تعرقت يديها وبدأت تفركهما بتوتر شديد.

استشعر توترها فأراد أن يوضح الموقف

"لم أكن أبحث عن صغيرة لا تفهم طبيعة العمل ومعنى المسئولية ، أردت شريكة للحياة "

وصمت .. وطال الصمت

فاضطرت أن ترد بسذاجة

" حسناً سيد شعبان ،كيف بإمكاني أن أساعدك؟"

بكل بديهية أجاب

"تتزوجيني"

فغرت فاها بدهشة ، فقد كان أغرب عرض زواج تتلقاه.

ثم أكمل بنفس البديهية

" دعيني أوضح الصورة ، لا دخل للمشاعر هنا بالأمر ، إنه توافق العقل لتأسيس حياة هادئة ومريحة "

لا زالت فاقدة للنطق ،لكنه قدر صدمتها بوعي

"أعلم جيّداً أني أعرض عليكي أن تكوني زوجة ثانية

لكن صدقيني أم الأولاد وجودها فقط على الورق

احتراماً لعمر قضيناه سوياً ومشاركتها لي بالعمل "

تهرب بنظرها من ملاقاته ولا تدري ماذا تفعل !

ماذا تقول ! أي رد فعل يجب أن يكون ؟

الغضب

لأنه رأى بها النطيحة التي تقبل بأي وضع

أم السعادة

لأنه استشعر بها المتممة للنقص القادرة على قيادة

الدفة معه بمنتصف الطريق .

تنحنحت قليلاً ثم سألت بكل منطق

" وما يدريك أني سأكون تلك العاقلة المريحة "

وكان سلساً سهلاً بكل إجاباته

" ما علمته عنك ، ما تحملتيه يخبرني أني أحسنت الاختيار "

أخفضت بصرها بخجل أي بِكر وأرادت أن تعطي عقلها فرصة التفكير

سريعاً تسترجع كلماته ، سريعاً تفكر ، سريعا تتذكر خساراتها

وذلك القلب المهزوم بملاحم عشق خاسرة وطعنات غادرة

سريعا تقيم موقفها ، عادل ، أبيها ، أمها

ثم أخذت نفساً عميقاً تبغي هدنة

"علي أن أجلس معك أولاً أعرفك وتعرفني ، لن أقبل بتجربة فاشلة أبداً"

قاطعها بإشارة من يده

" لدي من الخبرة بالحياة ما يؤهلني لأؤكد لك أنها لن تكون تجربة فاشلة ... لكن بالطبع علي أن أطمئنك .. سوف أحضر لزيارتكم بالغد أحاكي الوالد ونجلس سويّا كما تحبين .. اتفقنا سامية ؟"

ازدردت ريقها ببطء ثم أجابته

"اتفقنا"

"فقط أطلب منك ألا يعلم أحد بشأن زيارتك لنا بالغد "

رفع حاجبيه بتعجب بسيط ثم ما لبث أن ابتسم وأومأبرأسه

"لك ماشئت بالطبع "

ورحل سريعاً كما قلب حياتها سريعاً بكلماته تلك

وسقطت على المقعد منهكة من وقع ماحدث .

وسامية الوحيدة دائما ،والتي لا تثرثر عن أي شيء تشتهي الآن ثرثرة فتيات.

أن تخبر إحداهن بما حدث

أن تفند الأمر معها بمقاييس العقل فقط حتى

تربح .

انتظرت حتى انتهاء العمل ،لم تشأ أن تعود مبكراً

فتشعل قلق والديها.

حيرى لا زالت وقرأت فادية الحيرة بعينيها ، تمنت

أن تكسر ذلك الصمت البارد بينهما فاستقبلتها

باحتضان وربتة على الأكتاف

"حبيبتي حمداً لله على سلامتك "

نظرت إليها سامية بحيرة أكبر

"سلمك الله أمّي "

جذبتها من يدها وأجلستها على الأريكة

" ما رأيك أن تأخذي إجازة من العمل غداً وننزل إلى المدينة نبتاع أقمشة "

ووجدتها سامية فرصة تلقي إليها الخبر وتتحسس الطريق نحو بداية جديدة معها

تنحنحت ثم أخفضت بصرها

"غدا .. غداً لدينا ضيوف"

تعجبت فادية "ضيوف ... من يكونوا ؟"

تعلم سامية أن ما ستلقيه سيقلب الموازين تماما

لكنها لم توافق بعد لذلك تحتاج بعض الهدوء للتفكير.

أخذت نفساً طويلا أخرجته باحتراق الحيرة

"هناك خاطب يريد التقدم لي "

التمعت عين الأم فوراً قبل أن تقتل سامية البهجة في مهدها "لكنه متزوج"

لم تصدق الأم ما سمعت فأعادت الكلمات

"متزوج!"

أومأت برأسها

"وهل توافقين!"

ولم تصدق سامية بساطة السؤل ، أنها امتلكت

الحق الآن ، أن هناك من يبحث عمّا توافق .

"أُفكر"

ونالت سامية ثرثرة الفتيات التي تبحث عنها

ولكن مع قلب محب مخلص يريد لها الراحة

والسكينة

وبعدما استمعت فادية أمسكت كفها وطمأنتها

" أنت سيدة قرارك ونحن معك بما تريدين ، لكن

عليك أن تعلمي أنها ليست بالخطوة السهلة "

وافقتها بهزة رأس

قبلتها أمها ودعت الله بسرها ألا توافق بالأخير

هذه الزيجة ليست ما تتمنى

أخبرت عاشور والذي لم يبدِ أي رد حتى يجلس

مع الرجل أولاً

وباليوم التالي كان حاضراً ، بهدية نخمة وحضور

مهيمن

ثقة واعتداد بالنفس وأناقة

رأت الأم وانبهرت لكن كلما تذكرت أنه متزوج

تمتعض

جلس مطولاً مع الأب المرابط بحجرته منذ أمد

وكانت الأم تسترق السمع

حتى نادى باسمها

"أم سامية فلتصحبي السيد شعبان لحجرة الضيوف ،

ونادي على سامية لاستقباله"

حملقت السيدة به بعيون غير مصدقة ولسان حالها

"يا ويلك إن كنت وافقت مطلبه "

قادته إلى غرفة الضيوف وذهبت لاستدعاء سامية

والتي كانت للعجب ثابتة هادئة بطلةٍ من أبسط ما

يكون ثوب نبيذي اللون ووشاح أبيض وكلاهما

أظهر جمالها.

دخلت بشبه ثبات وما إن خطت إلى الداخل

سمعته يتيمتم بصوت خفيض

"بسم الله ما شاء الله"

تماسكت.. فهي تبحث عن إجابات محددة

ففكرة الزوجة الثانية قاتلة للكثير مما حلمت به يوماً.

وتسأل ويجيب

تبحث عن اطمئنان ويحاول أن يهديها إياه

الأولاد ووضعهم

الزوجة الأولى

لا أب ولا أم

مكان الإقامة

والأم تدخل كل حين بواجب الضيافة ويلمح نظرات الرفض بعينيها

وأخيراً أقر بما سعت لمعرفته بالفعل

"لن أخبرك أني سأكون أميراً وأنت أميرة ونسافر عبر الغيوم

لكني أعدك بكل صدق أني سأحترمك وصدقيني هذا يكفي ولن أُعطي المزيد"

واستشعرت أنها ليست بموضع اختيار من الأساس

عندما تفقد رفاهية الاختيار لا يكون أمامك سوى الرضوخ

وعندما ترفض الرضوخ تفقد بوصلة الاتجاه

تنهار حد اللاحد

تتخبط بكل درب

تتحسس بهجات الحياة بغير موضعها

تنزوي ومضات السعادة جوار خوار الروح

تنحسر الآمال إلى حدود اليأس

تتلظى بين نيران خضوع وجحيم ترفع

وبتخبطك قد تصل لبر الأمان أو تظل تصارع

أمواج تتقاذف روحك إلى ما لا نهاية

وبكل لا قناعة نطقت بما فاق حدود اليأس

" أوافق على الزواج "

طالعها صاحب العرض الواثق من الرفض بعيون محملقة

" موافقة "

وتلك لم تمسك عصا كمان أو تدري ماهية الألحان

يوماً فالصرير قد يأتي.

فقط حفنات من العمر تمضي .

انطفاء العين جوار انكسار النبرة

" أوافق، لم يكن الزواج الثاني أبداً بحرام !"

لاحظ انطفائها فأراد نشر بعض البهجة

وكانت الأم تنظرمن بين ثنايا الباب فأصابتها الصدمة

وما صدمها أكثرجملته

"فلتتفضلي حماتي المستقبلية باطلاق الزغاريد"

مختلف .. هذا كان انطباع الجميع عنه .

وربما هو مختلف لأنه أكبر بالعمر

وربما لأنها نحت القلب جانباً

وربما لأنها الفرص الأخيرة التي تبدو جيدة عاشور كان متفائلاً عكس الارتباط السابق أرسل من يستعلم عن العريس ولم يصله سوى كل طيب

واتفق هو وشعبان على عقد القران مباشرة والزفاف بعد عدة أشهر فقط .

ستقطن بمحافظة مجاورة (البحيرة) وسيؤسس لها شقةأخرى بمنزل والديها تطوع هو بالعرض دون طلب منهم .

وهذا أشعر عاشور بالامتنان الشديد والاطمئنان

فقد راعى أنه لن يستطيع زيارتها هناك.

زفت البشرى لفاطمة فانتشلتها من آلام الماضي

والحاضر واستشعرت السعادة بحق

وطلب عاشور من عادل أن يستقبل الجميع بصفته

أخيها الأكبر والباقي من العائلة

ابتلع سخافته ورفضه وكل ما صدر منه.

وبعد أيام

البيت أضائته الأنوار وكأن جدرانه صغرت أعوام

وهي عروس بثوب وردي وحجاب يضاهيه
بالدرجة وزينة هادئة

ممسكة بيد والدها الذي تحامل على قدميه وجلس
أمام المأذون

أمها إلى جوارها

وهو أتى مرتدياً قميصاً وبنطالاً وذات المسبحة
بكفه

صافح الوالد وبدأ المأذون بالتوثيق

"زوجتك ابنتي "

وهنا ترقرقت الدمعات من عيني عاشور

غير مصدق أن هذه اللحظة أتت ، وخائف...

حبيبته ووحيدته ستصير تحت حكم رجل آخر يجهله بالكلية.

"قبلت زواجها "

وهنا شعرت أن دقات قلبها قد بلغت الحد الأقصى واكتنفتها برودة وبكت

ليس خجلا ولا سعادة ولكن خوفاً من المستقبل من ماضي أصاب قلبها بعطب مؤقت

من حياة كانت تتمناها فرحلت وأخرى على وشك البدء لا تعلم عن تفاصيلها شيئا.

"زواج مبارك إن شاء الله "

وزغردت النساء وبكت كل من فاطمة وفادية

احتضنها عاشور طويلا ودعى لها بالبركة

ثم ذهب متكئاً على بعض شباب العائلة إلى غرفته

واقترب منها شعبان أوقفها ثم أمسك وجهها بين كفيه

ارتعبت مما قد يُقدِم عليه

اقترب أكثر

وقبّل مقدمة رأسها ثم خلع مسبحته وألبسها إياها

"هذه المسبحة ورثتها عن أبي أتاه بها أحد الحجاج من مكة معطرة بالعود وأرى أنكِ أحق بها ... مبارك يا أجمل البنات "

وتوترت ولم تعرف بما تجيب فخرجت إجابة رسمية "بارك الله فيك" وأخفضت وجهها خجلاً .

توجه لجمع الرجال وتركها مع الفتيات اللاتي أخذن ينشدن لها ويرقصن

وهي بحالة غريبة وكأنها ليست حاضرة معهم

بختام الأمسية جاء مودعاً مبتسماً

" ألن أسمع صوتك ! ما هذا الزواج الصامت ؟"

كانت ملامحها جِديّة جدا

"سيد شعبان أنا "

قاطعها بفزِع

"سيد ماذا ؟ أنا زوجك الآن سامية ماذا دهاكِ"

ابتسمت ثم أكملت ما انتوت عليه

"شعبان ...لن أطلب منك سوى شيء واحد ..
إيّاك والخيانة والطعن من خلف ظهري ...لا أريد
سوى الثقة والاطمئنان "

نظر إليها مُطولاً هويعلم أنها مرت بتجربة خِطبة
فاشلة لكن يبدو أنها كانت مؤلمة

وبها الطمأنينة التي تريد

"أنت الآن بكنف رجُل .. حرم شعبان القناوي ...

وستثبت لكِ الأيام أي ظهر تحتمين خلفه"

تطلعت بعينيه وجدت صدقاً لكن مأساة الماضي

أجبرتها على الخوف

وكان هو مُقدّراً وممتناً لقبولها العرض

" لن تندمي سامية "

أومأت برأسها بابتسامة هادئة

أخرج عُلبة من جيبه بها هاتف جديد

"الآن يمكننا أن نتعرف أكثر على بعضنا البعض بفترة الخِطبة "

قضمت شفتيها بخجل

"أشكرك"

أمسك كفها وقبلها برقة شديدة

"أراكِ قريباً سامية ... سوف أمر لاصطحابكم إلى بلدتنا "

ورحل وبقيت هي على حالها ، دخلت أمها فوجدتها شاردة استدارت إليها وسألت

"هل أثق أمي ؟"

وكانت الأم أكثر حيرة ولكن ابنتها تبحث عن طمأنة

"اقتربي على مهل سامية ، ولا تسلمي كامل الدقات احتفظي ببعضها حتى يأتي أوانها .."

ثم استطردت "لكنني متفائلة "

وكان عزفاً جديداً لم تعتده أذنها ولم تمارسه أصابعها

لن تطمع بمهارتها به فقط ربما تستطيع فقط مجاراة الألحان .

***

ماض وحاضر يتجاذبانك

أمل جديد وصفحات تمر من كتاب الحياة

ومهارة الاختيار ليست بالسهلة

زارتهم فاتن وقصت عليهم ما حدث

فرحت نجلاء بشدة رأت بمنير وأطفاله مكافأة

السماء لها على جميل صنعها

ونيرة كذلك رأته أمل جديد

وعندما أتت على ذكر الزوج الراحل والماضي

والمشاعر أجابتها نيرة

"أنت لا تقلبين صفحة حياتك بلا رجعة فاتن

بل هو كألبوم الصور ستطالعينه متى أردت...

لن تمحي عزمي بمنير ... ولن تنتهي مشاعره بقلبك أبداً لأنه الاختيار الأول ...

أنت الآن بنضج مختلف ومشاعر مختلفة يغلفها الاحترام والمودة وهو ما يبحث عنه كلاكما "

كانت منصتة باهتمام شديد لكلمات تلك السيدة الراقية بكل شيء .

واقتنعت فاتن

واجهت مشاكل مع أهل زوجها الراحل لكنها استطاعت تجاوزها بتدخل السيد محفوظ

أعطت نجلاء مفتاح البيت وأخبرتها أن تذهب متى يحلولها

جهز منير البيت استعداداً لقدومها

وفرح الأولاد جداً فهي تعاملهم بكل حب

وبيوم العقد كانت كسيدة راقية ترتدي ثياباً تلائم العمر بجوارها أبناء منير ونجلاء تطوف حولها بسعادة .

حضر السيد محفوظ ونيرة وعلي وزوجته وأندرو وسامي وبعض الجيران وبعض أقاربهم

كان كفها بكف منير مرتجفاً والمأذون يطلب من كليهما ترديد الصيغة

"زوجتك نفسي "

"قبلت زواجك "

وقبل كفها وعيونه تتحدث قبل لسانه الذي أقر

"مبارك يا حب العمر"

كانت نجلاء توزع الشربات على الجميع عندما أوقفها سامي بمدخل المطبخ

"ألم يحن موعد توزيع شرباتنا !"

استنكرت بعينيها

"سامي !"

زفر بحرارة "من الأفضل لكِ ألا تذكري سامي هذه مجددا أمامي "

ضحكت بصفاء

"احترت بأمرك أذكرها أم لا ؟"

وكانت تشاغب بشقاوة راقت له

فاقترب هامساً

" بل تذكريها بكل حين وقعها على قلبي كأنغام الكمان "

شهقت بخجل "سامي "

نفض ملابسه بقلة حيلة " اذهبي نجلاء لتوزيع الشربات"

انطلقت وهي تضحك وهو يغمرها بنظراته العاشقة البادية للجميع.

وكانت بداية ... بداية للجميع .

تأسيس حياة .. تغيير قناعات .

وميلاد أمل لقلوب أنهكها السفر بين جنبات اليأس والحزن.

**

شتلات زروع مصفوفة بعناية ..

بالأعلى والأسفل وبعضها متدلي من السقف..

وكأنك طرقت جنة خضراء على الأرض ...

صار لها مزاجيتها الخاصة باختيار الزروع

تنصح بها زبائنها ،تعلمهم طرق العناية بها ،وتدمج بعضها البعض في تناغم بديع يعطي للعين بهجة وللروح سكينة.

داخل المشتل كانت ملكة وهو المملكة .

متدلي من البوابة خيوط نحاسية تلامسها يحدث رنيناً رقيقاً .

سمعت الصوت فالتفتت ترى القادم ، كان فوزي من يمدها بالزروع وبصحبته...

وصدمت عندما سمعت النداء

"نجلاء"

ولم يصمت بل أتبعها بانفعال وهو يشير بإصبعه

"إنه أنت ... نجلاء إسماعيل عبدالحفيظ"

تعجبت واقتربت فكان الوجه مألوفاً لديها

"مرحباً من تكون يا سيد "

"أنا مجاهد من قريتكم "

حشرت الأنفاس بحلقها ولكنها استدعت ثباتاً

وبصوت مرتجف وعيون زائغة ردت

"حقاً !!مرحبا بك "

وزاد الأمر رعباً

"لقد كنت صديقاً لحسين رحمه الله "

أومأت برأسها فاستفاض بما لا ترغب أن يسمعه أحد

"أين اختفيت بعد الوفاة .. بحثت عنكِ كثيراً"

زوت بين حاجبيها وناظرته بجهل وتعجب وتوجل

"بحثت عني ! لماذا ؟"

ابتلع ريقه وارتسم على ملامحه الخجل

"كان هناك أمر عليك أن تعلميه "

استأذنت من السيد فوزي واطصحبته إلى ركن منزوي بقلق شديد

......

إذا طرقت الحقيقة أبوابك ... افتح لها على مهل

فقد لا تتحمل ما ستلقاه

حينما أخبرها

" لدي ما أعلمه عن حسين وعنكِ وعن صغيرتك"

لم تتخيل يوماً أنها ستسمع ما سمعت

"أي أمر ؟"

أخفض رأسه بخجل وخِزي

" ما كان يجب أن أنتظر كثيراً بعد وفاته لكنني كنت مرتعب ، لم أملك القدرة على الحديث "

وصل توترها إلى أقصاه

"تحدث بالله عليك لقد دمرت أعصابي "

نظر إليها بحرج شديد

"عديني أولاً أن تسامحيني "

اهتاجت أعصابها فعلى صوتها قليلاً

"أسامح على شيء أجهله !! تحدث أولاً "

تلعثم كثيراً وكان وجهه يقطر عرقاً بمنتصف يناير

ثم أضاف ما كان مخالفاً لترتيب الألحان

"حسين لم يمت بحادث عرضي.. هناك من أفسد إعدادات الفرامل "

سقطت الأشياء التي كانت بيدها وفغرت فاها

"ماذا!"

" عادل هوالمدبر للحادث "

وشهقت بفزع وغطت فمها بكفها غير مصدقة

وكأن الأرض مادت بها فسقطت جالسة وهي تنكر

"أنت تكذب !"

انحنى أرضاً جوارها

"أقسم لك بحياة أولادي أنها حقيقة .. ليلة الحادث رأيت عادل بسواد الليل متشحاً بما يغطي وجهه واختفى أسفل السيارة ... باليوم التالي علمت بالحادث لكني خفت منه .. حتى علمت أنه سيتزوجك قررت البوح بكل شيء لكنك رحلت"

دوار يكتنف رأسها ورعشة سيطرت على كل خليّة بها

وصار لا بديل عن العودة مهما كان الثمن .

الأخير

على عتبات الحياة......

تمهلنا قليلاً

سقطت غير مصدقة ..

ساقاها مفرودتان أمامها وذراعاها ملقيان جوارها

بضياع، بيأس، بقلة حيلة.

لابد أنه يهذي!

أو هو أحد أعداء عادل ربما!

تجبر نفسها على الإنكار

فما بعد الاعتراف والتصديق طريق من الأشواك

الحادة، وقد مر بها الكثير

ولا طاقة بها للمزيد

استراحت وارتكنت واطمئنت

وسوط الغدر هذه المرة أكثر حِدة... لاذعاً جداً.

شعرت بطنين بأذنيها واستمعت إلى أصداء صوت دقات قلبها يصدر من عظامها .

نخر أذنيها صوت شهيقها وزفيرها .

باب الحقيقة يُفتح الآن ليته ظل مصكوكاً إلى الأبد.

بُهِت الرجل من حالها ، حاول المساعدة فلم يجد سوى كلمات بلا القيمة

"أنا آسف"

وأي أسف قد يفيد الآن !

اقترب صديقه فزِعاً

"ماذا فعلت بها ؟"

رفع بصره إليه ثم أخفضه وأقر بحزن

"أخبرتها ما كان يجب أن تعلمه منذ زمن "

نظر الرجل إليه بريبة واقترب منها قلقا

" ابنتي ، هل أنت بخير ؟"

نظرت إليه بضياع ولم تنبس ببنت شفة

"كيف أساعدك ؟ "

أشارت بكفها علامة الابتعاد عنها

"هل نرحل ؟ "

احتارت بالإجابة وكان لزاماً عليها حسن التصرف

اتكأت على كفيها ثم على قوائم المقعد ونهضت

"سيد مجاهد ،هل بإمكانك الانتظار قليلا ؟"

نقل بصره بينها وبين فوزي ثم وافقها بما طلبت

سحبت الهاتف وشخصا واحدا هو من تحتاجه الآن

واستمعت إلى صوته

"مرحبا نجلاء، كيف حالك !"

لم ترد

أعاد الكرة

"مرحبا نجلاء أين أنت يا فتاة "

وتفتح فمها للحديث فتتطاير الحروف .. ثم حسمت

أمرها

"سامي أحتاجك بأمرٍ هام"

صوتها بكائها طلبها المساعدة ، جميعها استنفرت

خوفه فأجابها وهو يتحرك

"دقائق وأكون أمامك "

وصدق فكان بعد خمس دقائق فقط بجوارها

داخل المشتل مذهولاً من هيئتها

ومتعجباً من الشخص الموجود

اقترب فزِعاً

" نجلاء ماذا حدث "

أخذته إلى ركن بالمشتل حيث لن يسمعهما أحد

تنحنحت تحاول الحديث نخرج صوتها مبحوحاً

"سنوات وأنت تحاول الوصول إلى خزائني الخاصة كما كنت تسميها "

رفع حاجبا مستغرباً وعيناه تستفسر بصمت

"رفَضَت الزواج وواجهت الدنيا حتى نكون معاً بالأخير "

رفعت بصرها وبحسم واضح أعطته حرية الاختيار لأول مرة

"لطالما تعجبت من إحجامي عن الخوض معك في التفاصيل ..

ولطالما تعجبت أكثر من تمسكك بي رغم أني تركت الباب موارباً ولم أفتحه ...

لكنني الآن أفتحه وأضع أمامك الخيارات سامي "

زاد اندهاشه لكنه ظلّ على صمته .. انتظر هذه المصارحة منذ دقّ القلب لها وأتى الموعد .

" أنا أرملة بالفعل سامي لكني لم أرحل بناء على رغبة حسين "

وعلى ذكر اسمه تغضن جبينه وأصابه بعض من غَيْرَة

" لست من المنصورة ولم تطأها قدمي يوماً بل لم أخرج من الأسكندرية من قبل "

واندهاشه يزداد وبدأ القلق بالتسرب ودقات القلب في الارتفاع لاحظت تعرق جبينه

"لا تخف لم أقتُل أحداً "

لانت ملامحه قليلاً بشبه ابتسامة مبتورة مع ارتعاشة شفاه ،أكملت ما بدأت

" أتيتُ من قرية بضواحي الأسكندرية .. بالأحرى علي أن أقول (هرِبت) "

وتصمت تلتقط أنفاسها وتستجمع طاقتها لإلقاء الحِمل مع من قررت أن يشاركها الصدمة

"هرِبت لأن عمّ ابنتي كان سيجبرني على الزواج منه

ولأن خطيب ابنة عمه تحرش بي ولأن ....."

فاغرٌ فاه وغاب فيها وهو يستمع إلى تفاصيل حكايتها

مبهوت .. غير مصدق أن تلك الصغيرة التي التقاها قبل أعوام قد دهسها قطار الحياة مبكراً بهذه الكيفية .

انتهت ثم رفعت بصرها إليه زاوية ما بين حاجبيها بهمّ وعزم

" والآن هل تساعدني في الوصول إلى حقي وحق حسين من أخيه "

همّ أن يجيبها لكنها رفعت كفها بوجهه تقرر .. تؤكد .. وتوضح

"أياً كان قرارك لن ينقص ذلك من قدرِك شيء لكني لم أسمح لنفسي ببداية الرحلة الجديدة دون معرفتك "

وذاك صاحب الحياة الهادئة الخالية من أي لحن

أنته من تهز أوتاره بقوة ، برقة ، بحزن

ورُغم جهله بنقرة البداية

كان أكثر من مستعد للمشاركة

اقترب ممسكاً كفها فزجرته بعينيها

"هذا عهدي نجلاء ، معكِ حتى نصِل للحقيقة

،وحتى تحصل أميرة على حقها "

ثم أضاف ما كان واجباً "وبعدها أنا من سيترك

لك القرار "

كانت دموعها تنهمر بغزارة

تنتحب بصوت مرتفع

سحب كفها من كفه بهدوء وأحضر كوباً من الماء

ارتشفت منه ثم نظرت إليه بامتنان .. بحب ربما

بل بأمل

"هل تعلم أني أكثر من محظوظة "

اندهش و تبسم ثم سألها

"وكيف هذا !"

جاهدت للابتسام فلم تفلح ، أرجعت رأسها للخلف

مرتكنة على الجدار بتعب ثم سحبت شهيقاً عميقاً

"كل شيء بموعد ،سوف تعلم كل شيء بموعده

سامي "

وافقها بهزة رأس ثم انتقل مباشرة إلى الحماس

"الآن نحن بحاجة إلى بعض العون ، أظن أن السيد محفوظ وقريبه قد يفيداننا بهذا الأمر "

اعتدلت بجلستها ووافقته فوراً

" أحسنت، بالفعل هاني قد يكون مفيداً جداً "

اعتذرا للسيد مجاهد على طول المكوث لكنه لم يظهر تضرراً

التقط هاتفه ونقر الرقم سريعاً وفور أن أجابه محدثه انطلق بحماس

" سيد محفوظ ، هل باستطاعتك القدوم إلى المشتل الآن "

"بالطبع سامي "

على الجانب الآخر كان محفوظ قلِقاً ، تناوله نيرة الملابس وهو يتمتم

"صوته لم يكن طبيعياً ،هناك خطب ما ، سلِّم يارب "

حاولت تهدئته تخشى عليه لكنه أضاف

"نجلاء الباقية لنا الآن بعد الرحيل المفجع "

سقطت على حافة الفراش بحزن لا تريد التذكر

تنقل بصرها بين أركان الغرفة عدا أن تلاقي بصره
حتى لا تنهار أمامه .

رحيل بالعراق لأحد الأبناء لاشتراكه مع إحدى
الشركات التي تنقب عن البترول هناك

مفجع قاصم وتقبلاه بصمت ولم يخبرا أحد به.

ثم استدعت مرحاً مصطنعاً يعلم جيداً سببه

" سيظل خيالك خصباً يبتكرُ قصصاً وحكايات ،
الفتاة بخير بإذن الله ، ربما أراد سامي أن يخطبها "

"وهل سيخطبها مني ولها والد "

"وهل يعلم سامي لها أحداً إلاك "

استراح لما طرحته وانتعل حذائه وتوجه مباشرة إليهما

لكن ملامحهما لم توحي بأي خير

سردا عليه ما جدّ وسألاه المشورة ، لم يطل تفكيره حتى هاتف هاني ليأتي

جلسوا جميعاً يفندون الحقائق ويستفهم هاني من مجاهد ويسأل نجلاء عن بعض تفاصيل الحادث ثم نطق

" حسناً لا نستطيع أن نُجزم الآن أن عادل هو الفاعل "

شهقت نجلاء "ماذا " وتعجبوا جميعاً

حاول احتواء الموقف

" استمعوا قليلاً ، من رآه السيد مجاهد قد يكون عادل وقد يكون غيره ، صحيح أن المواصفات الجسمية منطبقة عليه لكنها غير كافية "

بدا كلامه منطقياً ثم أكمل

" سنبحث عن التقرير الجنائي عن الحادث وحالة السيارة وما إلى ذلك "

وصمت قليلاً قبل أن يردف " وبعدها يمكننا التحرك "

جلس طويلاً مع مجاهد وحفظ رقم هاتفه لإعلامه بموعد قدومه للقرية .

شكره الجميع ثم رحل

وبصوت واحد سألوه جميعهم

"هل صدقته "

بدا عليه التفكير الطويل يخلل خصلات شعره بيده ويزفر بضيق

"يبدو عليه الصدق ، كما أنه لا مصلحة له من كذبة كهذه "

التفت إلى نجلاء " الطريق ليس سهلاً نجلاء ونحتاج وقت ، كما أنني بحاجة ملحة للذهاب إلى القرية دون علم عادل "

فكرت قليلاً بتوتر

" سوف أحاكي أبي ليحضر في الغد ، بإمكانك سؤاله عمّا تُريد ، وهو وحده من يستطيع ترتيب هذه الزيارة "

وافقها القول ثم رحل وبقي معها محفوظ وسامي ولحق بهم علي

"لا تخافي نجلاء جميعنا إلى جوارك ، لن يقدر علينا عادل "

شردت قليلاً

" أخشى أن يكون هو من أرسل مجاهد "

"ماذا "

وكان علي مندهشاً من تفكيرها

"صحيح أن حكايتك تغلبت على حبكات الأفلام لكن خيالك شطح هذه المرة يا بسكويتة "

تبسمت رُغماً عنها فانطلق بالمزاح

" ثم تذهبين إلى دوار العمدة فتجدين من يجلس على المقعد

ثم يستدير المقعد ويظهر الرجل الثاني تا تا تا "

ضحكوا جميعهم فأسهب أكثر

" ونجد بالأخير أن مجاهد هو الرجل الأول "

وغرقوا بالضحك وهم يتخيلون هيئة السيد مجاهد بحُلة رسمية وربطة عنق .

انحنى عليّ بأداء مسرحي كمؤدي يُحيي الجمهور

" أشكركم أشكركم هكذا قمت بدوري على أكمل وجه"

نظر محفوظ إليه بمحبه

" لا يوجد منك اثنان يا عليّ ، أنت وحدك من تنتشلنا من الأحزان"

اقترب منه علي ممسكا كفه بمودة

"كيف هذا سيد محفوظ ! هل نسيت كيف انتشلتني أنت من قاع اليأس ، كيف أمسكت بكفي حتى قابلت مركبي المرسى"

نقلت نجلاء بصرها بينهم والتمعت عيناها بالدموع

" أشكركم .. أشكركم على الكثير "

كاد سامي أن يقترب مهوناً عليها عندما صرخ علي

" أمينة رزق ، تذكرت الآن هذا أحد أدوار أمينة رزق .. فلتكُفي يا فتاة "

وضحكوا ثانية ثم ودعهم راحلاً

أغلقت أضواء المشتل وهي متوجسة كان سامي إلى جوارها

"لا تخافي أنا معك "

أوصلها والسيد محفوظ إلى المنزل ثم قفل راجعاً .

***

ريثما وصل وجد والدته غافية على إحدى الأرائك

واستيقظت على صوت إغلاق الباب

نهضت فزِعة " سامي أين كنت ؟"

غمغم بصوت منخفض

" كانت هناك مشكلة لدى نجلاء "

وعلى ذكر اسمها هبت واقفة وهي تزجر

" من ! نجلاء ، ألم تبتعد عن تلك الفتاة بعد كل هذه السنوات "

حاول استحضار الهدوء بعد هذا اليوم الحافل

"ومن قال أني أريد الابتعاد "

اقتربت منه تزجره بحدة

" لماذا الإصار ، لماذا ترفض طاعتي ، كل هذا من أفعالها ، هي من تقسي قلبك نحوي "

فرك وجهه بكفيه بنفاذ صبر

"أمي لا شأن لنجلاء بقراري هذا ، ثم كيف أرفض طاعتك ألم أذهب معك لزيارة أكثر من فتاة ولم يعجبني "

خبطت كفاً بكف " وهل تسمي هذه زيارة ، لقد كنت حاضراً غائباً ، لا تنظر إلى إحداهن ولا تحاكيها كيف يتم القبول إذاً"

لوى شفتيه باستهجان

" بلى كنت أنظر وأسمعك وأنت تحاكيهن ولم أجد بنفسي شارة بداية لاستكمال أي حوار "

ازدادت الحدة

" لأن بالك مشغول مع تلك المنفلتة لا متسع لغيرها "

ارتفعت وتيرة غضبه ورُغماًعنه خرج صوته حاداً مدافعاً

" أمي لا تنعتيها بهذه الأوصاف ، لا يوجد بأدب نجلاء وأخلاقها ورجاحة عقلها "

تبدلت ملامح وجهها لبدايات بكاء

" سامي أنت وحيدي ، لماذا يا ولدي تحرمني أن أشاهد ذريتك قبل أن أموت " وانهارت من البكاء

اقترب واحتضنها وقبل كفها

" أطال الله بعمرك أمي "

ومن بين انهيارها أوضحت له

" لماذا تحرمني سعادة أن أختار لك عروسا تليق بك ، وأرى أحفادي وأنعم بهم "

سحب شهيقاً عميقاً ثم سألها

" ألا تبحثين عن سعادتي ! "

شهقت بجزع وتعجب من السؤال

" بالطبع يا ولدي"

" وأنا راحتي مع نجلاء " وخرج صوته محملاً بعاطفته .. انتظاره .. لهفته.

" صدقيني حاولت واربت الباب لغيرها لكني لم أجد قلبي سوى لديها هي ..هي وفقط

ولن أستطيع الزواج بسواها مهما طال العمر "

كانت تنظر إليه بيأس وحزن كبير فاقترب مقبلاً رأسها

واضعاً نفسه بين أحضانها

"افتحي قلبك لها أمي وسوف تشاهدينها بوجهها الحقيقي "

كانت ممتعضة وهي تجيبه " دعني أفكر"

قبّل كفيها وكان أكثر من راضٍ

يبدو أن زمانه قد يبتسم له قريباً

***

هناك ببقعة أخرى كانت المرابطة على حدود

اليأس تتلقى أول بوادر الأمل

صريخ صغير يقدم إلى الدنيا

وممرضة ما تهلل "صبي ... أتت بصبي "

شعبان بالخارج يحمد الله

وفادية غير مصدقة لكرم الله

وهي لازالت تحت تأثير المخدر

عندما أفاقت وجدته جوارها يخبرها

"صبي يا سامية "

تمتمت بخفوت " الحمد لله "

"صبري "

اقترب منها يتأكد مما قالت "صبري ! "

"نعم سأسميه صبري "

ربت على كتفها "لكِ ما شئت يا أم صبري "

تجرعت كئوساً من الهوان والغدر والألم

وصبرت

وأتي عوض الصبر خيراً حلو المذاق كما لم تذق يوماً

تتشمم رائحته باشتياق ، كأنها كانت على موعد

معه وإن أتى متأخراً

تطعمه حليبها وحنانها وصبرها

تراه اكتمال الحياة والسند والظهر

تنسى كل لحظة ألم مع كل نظرة إليه

تغفر لمن أساء مع كل ضمة منه تشبع أمومتها التي

تفجرت مع قدومه

وأحبت الدنيا والحياة ورحلتها ..

وشعبان

كان يرى كل هذه المشاعر بوجهها فاقترب جلس

جوارها وأسندها على كتفه

" دائما سنظل هكذا سامية كتفاً بكتف "

لم ترفرف بأجنحتها بحكاية وردية

لم تستمع إلى عبارات الغرام والهيام

لم تنتظر لقاء أمير الأحلام ببلهفة كل فتاة

لكنه وكما وعدها

كان رجُلاً

أراحت ظهرها بارتكان مستحق بعد تعب سنين

ووجد هو بها أكثر مما تمنى

الزوجة راجحة العقل التي أدارت دفة حياته بمهارة

من يأتيها القريبب والغريب من عائلته فلا تُرده.

الأنثى التي تفتحت بين يديه برضا تام لكليهما .

والأم لأولاده إذا ما قدِموا بزيارات

اقتربت الفواصل بينهم لرغبتهم في مجالستها .

صدق بالفعل .. لم تكن حكاية كما الأساطير

لكنها كانت خرافية بعينيها ... حيث الوصول بعد

سفرٍ طويل .

وأراحت رأسها على كتفه وراحت في سبات

عميق

***

بذل هاني جُهدا خرافياً

تواصل مع العديد من معارفه

وتلاقى مع الحاج إسماعيل

تجمعت الكثير من الخيوط بين يديه

كانوا يجتمعون جميعهم بالمشتل كل ليلة يفندون ما وصلوا إليه

وأخيراً حسموا أمرهم على الخطة المتبعة

وكانت نجلاء بطلتها

.....

صبيحة يومٍ عادي

لكنه لديها ليس كأي يوم

حيث من تعثرت بدروب الحياة عليها الآن أن

تغزل الدرب وتجيد الغزل

ارتدت ملابسها

خرجت فوجدت فاتن ونيرة بانتظارها

يبثانها بعض الطمأنينة

سامي وعلي مستعدان لمرافقتها

وهاني ينتظر بسيارته بالأسفل

محفوظ يجلس منكساً رأسه

" أنا جاهزة هيا بنا "

تلاشت النظر لأي منهم وسحبت أميرة من يدها

ونزلت

على عتبات الحياة

نقف بخطى متعثرة

لا نملك حق الاختيار

وليس لدينا فرصة للرفض

لكننا نتحمل دوماً النتيجة .

على عتبات الحياة قف بشموخ

واملك زمام اختياراتك

بكل الأحوال أنت من تتحمل النتيجة

.....

ذات الطريق الذي قطعته قبل أعوام محملة بخطايا ما اقترفتها

بقهر وكمد لم تكن يوماً سبباً بهم

بألم كان يخرج مع كل دقة من قلبها

ذات الطريق الذي تدثرت فيه بخوفها وقوتها الواهنة...

تقطعه الآن

بغضب مستحق

بحيرة وحاجة إلى إجابات عن كل لماذا حملتها منذ دخولها هذا البيت.

بعزم وبأس وحسم حان موعد ظهورهم

بتصميم على الوصول للحق مهما كلفها الأمر

محتضنة الصغيرة التي لم تعد صغيرة

ذات التشبث لكنه تشبث صاحب الحق ..

بل وما أخفته حتى عن نفسها ...صاحب الانتقام

تسعى لانتقام منه عما اقترفته يداه

خرجت وخيوط الظلام تلفها وعادت بوضح النهار

شمس الظهيرة ترقص في السماء تشاركها ذات

التحدي

تسترجع كل ما مضى

"والآن عديني

بماذا !

بالسعادة .. فلنبقى سعداء مهما حدث ومهما كان "

" أنا حامل "

"حبيبة حسين "

"أنت من اختار الثوب "

والاصطدام

تسترجع وتزداد حنقاً وتستشعر الظلم أكثر فأكثر

وصلوا القرية

بدت تائهة فمعالم المكان تغيرت كثيراً

كان الحاج إسماعيل بانتظارهم وتقدمهم إلى البيت

وبالطريق توقفت خطواتها

"سوف أذهب إلى المصنع مباشرةً"

لم يفلح أحدهم أن يثنيها عمّا انتوت

"لا تقلقوا لن يأكلني "

"اذهبوا وتأكدوا مما اتفقنا عليه "

خطوات تخطوها الآن

مع كل خطوة تفكر

ترتفع أنفاسها

نجلاء التي كبرت قبل الأوان ونال منها نصل الفقد مبكرا

بدأت تعزف أنغاما جديدة بل وتضع ألحانها.

طمع بها من طمع لكنها الآن قادرة على حماية نفسها وصغيرتها بشراسة صنعها الزمن.

لم يبق الكثير حتى تدمج الألحان بأداء أوبرالي فريد وواقعي

....

دلفت إلى الداخل

لم يعرفها أحد .. الأشخاص تغيروا ... وملامحها تغيرت

تلك الطفلة صارت أنثى مشرقة.

أخبرت أحدهم أنه تود مقابلة السيد عادل

دعاها للدخول إلى مكتبه

شدت قامتها

رفعت أنفها بشموخ وكبرياء

وكأن خطواتها تدق بالأرض مظهرة قوتها الناعمة .

تودع عصراً مضى بكل ما فيه من ضعف وبؤس

كان جالساً خلف المكتب منهمك بأوراق وحسابات وأرقام

اللعنة على الأرقام التي تحول الإنسان إلى صنم

"مرحباً عادل "

باغتته فاهتز القلم بيده ورفع بصره غير مصدق

"نجلاء !"

وكان يستفسر بعيون محدقة

تبسمت بوجع والتواء شفاه ساخر

"بلى نجلاء يا أبا البنات"

ثم صمتت تستدرك بسخرية

" آسفة ... لقد صرت أبا للبنين أيضاً "

واقتربت من المكتب تردف

" أتى الوريث من يحمل الاسم "

هب واقفاً يبادرها بالهجوم

" أين كنتِ طوال هذه السنوات"

نظرت إليه ملياً تجاهد لإخفاء اشمئزازها وبغضب مكتوم قدمت أميرة خطوتين

" دعك مني ألن ترحب بأميرة ...ابنة أخيك ... الراحل "

ما بالها تتحدث هكذا ، كان يحاكي حاله ثم اقترب

ببروده المعتاد

قبل الصغيرة على وجنتيها

" أميرة .. لقد صرت أميرة بالفعل "

والصغيرة التي لم تكمل عشرة أعوام أحست بفطرتها

النفور منه

فابتعدت فورا

"أين كنتم نجلاء ؟ لماذا هربتم ؟"

أن تأمن للزمان

هو شأنك الخاص

لكن أن تأمن لشرورك ..موبقاتك ..

ترتكن أنها تظل طي الكتمان أبد الدهر

لهي الحماقة بعينها

كان الغِلّ واضحا في نظراتها وهي تُجيب

"لماذا قتلته ؟"

نظر إليها متعجبا

"ماذا تقولين ؟"

احتدت عليه

" أسألك لماذا قتلت أخاك يا عادل ؟"

اقترب منها أكثر

"أي هذيان تلقين به هذا ؟"

خبطت بكفيها على المكتب

" ليس هذيان وأنت تعلم "

التف من خلف المكتب وصار مواجها لها

وبكل ثقة أجابها

"لطالما شككت بك ، وبعد أن هربت زادت شكوكي ، يبدو أنك من تسببت برحيله "

لم يحصل على اهتزازها .. لم يرمش له جفن ..

ظلت ثابتة كجبل صلد بمواجهة الرياح .

ثم تلونت شفتيها بذات الابتسامة الساخرة

"ومفترض بي أن أرتعب وأبحث عن سبيل لنجاتي

أليس كذلك "

كان متفاجئاً

لم تعد القطة الصغيرة التي تبحث عن كنف وتهرب

عند سماع الصوت

قطعت هي المسافة بينهما بخطوة واحدة ، تدق

الأرض بقدمها .

" وأنا من قطع حبل الفرامل عشية الحادث! "

غامت عيناه للحظة كانت أكثر من كافية لها أن

تُكمل المخطط دون تراجع

" وأنا من نقد أمين الشرطة ليخرج التقرير أن الفرامل قُطعت لعيب صناعة !"

تراجع للخلف غير مصدق ما تلقيه بوجهه ، يحاول التماسك ما استطاع

" وأنا من أخفيت السيارة عن الوجود حتى لا يبحث خلفها أحد ثانيةً !"

وصرخت بها مرتفعة

"علام اعتمدت بمخططك ... ذكائك أم سذاجة المحيطين "

واقتربت من أذنه " أم كليهما !"

شيدت ورفعت البنيان

ويأتي من يهدم المعبد فوق رأسك

أمامك خيارين إمّا ..

الهروب .

أو الموت تحت الأنقاض .

وهو لم يكن جيداً بالهروب

"سأخبر الجميع أنكِ السبب ... اتفقت مع أحدهم للتخلص منه حتى تتزوجي ممن تحبين "

أرادت أن تصفق له ، نالت اعترافاً ضمنياً دونما جهد .

"ولماذا لم أتزوجه ؟ لم أتحصل على ميراث ؟ لماذا

هربت ؟

دعني أخبرك عادل أنك خذلت توقعاتي وما

خططت له بمستوى ذكائك "

استفهم بعينيه

فرأى نظرة انتصار بعينيها

تجابهه النظرة بالنظرة

التحدي بمثيله

الغضب بأضعافه

القوة بما يفوق تخيله

وفازت بضربة البداية

"ابنك قتل أخاه يا حاجة فاطمة "

نظر خلفه فوجد والدته ، الحاج إسماعيل ، وجمعٌ

لا يعرفه

وأحدهم يضغط على جهاز فيسمع ما دار بينهما

بالكلمة

ارتج للخلف غير مصدق وزاغ بصره قليلا

الصغيرة أحكمت شِباكها حوله

وهُدِم المعبد بالفعل

ثم رد لها الضربة أمام الجميع

ومهما وضعت من سيناريوهات لهذا اللقاء الحاسم

فما صرح به نسفها جميعها وألقاها بوجه الرياح

"كنت أقصدك أنت وليس أخي"

صدمة على الوجوه

وخرس إجباري أصاب ألسنة الجميع

لكن الانهيار المستحق كان من نصيب الأم

المكلومة

"ماذا تقول يا بني !"

وحرر طاقة الغضب والحقد من داخله وهويمرر

حروفاً كنصل السكين

" علمت أنك حامل ، قبل أن تخبري أحداً "

ويصمت ويتمتم

" خِفت أن تأتي بصبي ، صبي يرث كل شيء

دون جهد

لم أشأ أن يرحل أحد ، كنت أسعى لحادث صغير

يُفقدك الجنين "

وشهق الجميع غير مصدقين

"حدث الحادث ، وحزنت وتألمت وكنت

سأتزوجك لتصليح الخطأ "

نظرت إليه والدته بخِزي

"من أنت ؟ هل أنت ولدي ! من حمِلته برحمي وسهرت به صغيراً "

وكذئب جائع كان يهذي

" ومن حملته برحمك ، من كان كالثور بالساقية كان سيفقد تعب العُمر تحت أقدام هذه النجلاء "

نظرت إليه مُنكرة لكل ما يتلفظ به

وكان الألم ظاهراً على وجهها ،جبينها متعرق وصوتها مرتجف

"سامحك الله يا ولدي ، قبل الحادث بأيام كان حسين يحاكي والدك أن يكتب لك جزئاً من

أملاكنا ، كان يخبره برغبته بترك القرية والعمل بمفرده بمكان آخر"

فغر فاه غير مصدق وسقط على الكرسي بحلق جاف يؤلمه كأشواك

يجلد نفسه بسياط الذنب

لكن السياط غير كافية

فالقصاص كان واجباً

وقفت أمامه بتحدي

"تظن الآن أني سأتركك لعذاب الضمير تتلظى به حتى آخر العمر

أنني سأخشى على اسم العائلة أن يتلوث "

ثم زوت حاجبيها بغضب وقوة

" لكني لن أحقق لك تلك الأمنية ، تلك الساذجة ماتت على يديك ودفنتها أنا بيدي حقي وحق ابنتي لن أتركه ، وسأترك للقانون العقاب المناسب"

واقتحمت قوة من الشرطة المكان بصحبة هاني ووجد نفسه مكبلاً بالأغلال .

***

بقاعة محكمة

تجلس بانتصار

جميعهم جوارها

إسماعيل وسعاد .. إخوتها

سامي .. علي ومحفوظ ونيرة وفاتن

جوارها مباشرة فاطمة محتضنة أميرة .

بالاتجاه الآخر كانت سامية وشعبان وفادية .

جوار القفص كانت ...

سلوى

فالأخرى رحلت وتركت له الصبي

رأت ابنتيه صارتا شابتين رائعتي الجمال

بعض من شفقة لمس قلبها تجاههما

لكنها نفضته

عليه أن يتحمل وِزر ما فعل

وأخيراً خرج القاضي مُعلِنًا الحكم

" خمسة أعوام "

لعدم كفاية الأدلة وكون التسجيل بغير إذن النيابة

.....

الأم مصدومة بصمت وشددت من احتضان أميرة

سامية تبكي غير مصدقة

وهي ... لا تدري

وهو صرخ بصوت مرتفع

"نجلاء "

صمتٌ مفاجيء غلّف القاعة وحدقت العيون بها منتظرة ردها

صاحبها سامي واقتربت من القفص نخاطبها باستعطاف

"سامحيني "

حدقت به طويلاً دون كلمة

وانسابت الدموع على وجهها أنهاراً

طلب السماح ليس واجب القبول

فما وراء المسامحة كان طريقا طويلا

خسارات

ألم

دموع

أرق ليال طوال

رعب من أي خرمشة تقترب من الباب

حزن يُطوى داخل القلب يرتحل ويستقر معها حيثما حلت

بصريخ أقرب إلى الهذيان كانت تواجهه بوجه احتقن من الغضب والبكاء

"الآن تطلب السماح! الآن !"

" أين كنت وأنا أبكي حسين كل ليلة "

"أين كنت وابنته تسأل عنه كل يوم "

"أين كنت وأنا أهرب من سطوتك إلى مجهول "

ثم صرخت بوجهه

"كنت طفلة ..طفلة"

"ماذا تفعل المسامحة الآن ماذا تفعل "

وتركته خلفها وخرجت بشبه ركض تهرب من

كل الوجوه

لحقتها سامية

"نجلاء "

استدارت إليها بعيون متورمة من أثر البكاء

" لا أُعفي نفسي من المسئولية ، لم أقف بصفك ،

لم أواجهه "

لم يكن بها طاقة للمزيد من الحديث

أومأت برأسها وخرجت مسرعة

وأغلقت الصفحة بأكملها

***

استعادت ميراثها وأميرة

أفدنة من الأرض

نصيبهما بالمصنع والمعمل وغيرهما

حضر محامي بحضور فاطمة وسامية

كل شيء صار موثقاً

كان سامي معها طوال هذه الأيام

وببيت برهام كانت تجلس وابنتها

فاطمة لا تقبل رحيلهما

وافقت أن تمضيا معها بعض الوقت

أوصلت سامي إلى الباب

كانت ستخرج معه حتى موقف الحافلات

أوقفها بإشارة من يده

"يكفي هذا نجلاء "

رفضت بشدة

"لا سأوصلك وأعود إنها خطوات"

نظر بعينيها طويلاً

"ليست خطوات يا نجلاء العينين"

تعجبت من حديثه

"ما بك سامي !"

يقرض شفاهه بتوتر يتنقل ببصره بين البيوت

ثم يعود إليها

"لم تعد خطوات نجلاء .. صار الفارق أميال

"لن تتخلي عن الحياة هنا ، الأملاك ، الأسرة ...

من أجل ماذا "

انسابت دموعها على وجهها

"سامي !"

فأكمل هو بشجن تملك من صوته

"يبدو أن هذه ستكون التدوينة الأخيرة لنا ، سأكتب الآن بت مطمئناً على نجلائي مهما حدث"

نهرته على هذا الحديث

" سامي توقف عمّا تقول "

" ما أقول هو الحق نجلاء "

أخفضت وجهها وصمتت

" أن أرحل الآن أفضل لقلبي من طلبك أنت الرحيل"

رفعت بصرها إليه

" ماذا تقول ، إنها فقط فترة صعبة وأنت تعلم "

"سامي أنا أحب...."

وقبل أن تُكمل أوقفها

" لا تصرحي بها لأني لن أتركك بعدها أبداً "

"تتخلى عني هكذا "

استنكر ما صرحت به ولكن صوته كان يائساً

"حاشاي أن أفعل ..فلنقل أني سأترك الباب موارباً

كما كان منذ أعوام ولا أحد يعلم ماذا يحمل

المُستقبل "

وعلى باب الدار كانت تقف باكية

وولاها هو ظهره ذاهباً لمستقبل يبدو أن مكانها به

أبداً لن يكون موجود .

الختام

بين سطور الحكاية ...

كان هناك ظالم ومظلوم ومتألم وخائن ومجروح.

بين سطور الحكاية...

كانت هناك موجات عاتية تحتاج إلى سباح ماهر.

لطمتها قذفتها وبالأخير سبحت فوقها بمهارة متشبث بالحياة.

بين سطور الحكاية ...

رغم اليأس ما خفت شعاع الأمل

ورغم الألم لم يمحي الحنان.

بين سطور الحكاية ...

كانت صغيرة

صارت أنثى فأما فأرملة دون فواصل ودون أن

تعي ماهية الحروف.

بين سطور الحكاية ...

تولدت ذات العنفوان

صاحبة البأس

اللينة بقشرة صلابة مستحدثة

والثابتة بأرض صلبة .

بين سطور الحكاية ...

برزت المغلوبة على أمرها بعرف العقل والزاهدة بعرف البشر .

عام تبعه عام تبعه غيره الطفلة صارت شابة جميلة تسر العين.

تتحرك نحو مدرستها ممسكة بكفها ...

صغير آخر

"محمود لا تترك كف أختك ، الطريق به سيارات لو أخبرتني أنك لم تطعها سيكون لي معك شأن"

وهذا الصغير الماكر احتال عليها

" تعاقبين محمود يا نجلاء "

وانقض عليها يقبلها

ضحكت بصفاء وهي تقرص وجنته

" لا أدري من أين أتيت بكل هذه الرقة "

عانقت أميرة وأوصتها بأخيها وأغلقت الباب

خلفهما

عندما وجدت من يحتضنها من ظهرها فجأة

متسائلاً

"لا تدرين من أين أتى بكل هذه الرقة ! "

استدارت إليه

" لا يوجد بالكون من هو أرق منك سامي "

أطال النظر لعينيها ، وكأنه يخاف أن ترمش عينه

فيفوته رؤياها

شعرت بالخجل فأخفضت بصرها

رفع ذقنها بأصابعه وشرد بعينيها مجدداً

" حقي أن أتأكد كل يوم أنك معي

أن أتشبع من رؤياك حتى أثمل ، لا زلت غير مصدق "

أمسك كفيها

لا زالت ذكرى اليوم محفورة بقلبه

فور أن عادت من بلدتها وتوجهت نحوه بخجل

"هل أغلقت دفترك أم لازال به مساحة من الورق"

نظر إليها غير مصدق

" هل آن الأوان نجلاء !"

أومأت برأسها وابتسمت ابتسامة نجلى

"بلى "

اتسعت ابتسامته حتى شملت كل تقسيمة بوجهه

"لقد أغلقت الدفتر القديم "

تغضن وجهها بحزن رقيق مثلها فعاجلها

"لكننا اليوم سوف نبتاع آخراً جديداً ، ندون فيه سوياً أيامنا معاً "

كانت متعبة

متعبة ومحملة بتاريخ من الخيبات

وأتى من عرض الحياة

فكان لابد من الموافقة

ألحانها الآن طوع يداها تصوغها كما تشاء

فأحسنت العزف

خطبها من والدها بعرض زواج يليق بها كما وعدها

حضرت أمه مكرهه تحت ضغط إلحاحه عن الزواج

أسس شقة جوار أمه

وأصر على حفل زفاف

ذهبت لتودع محفوظ ونيرة وتأتي بأغراضها

تجلس بالحجرة المفضلة ذات لون الفستق

تحسس الكمان

وتسأل هل لها من عودة !

كان الفراق مؤلماً تعلم أنهما ليس لديهما سواها

وهاني

عانقتهما بتأثر

على وعد باللقاء كلما استطاعت

...

بالزفاف

الجميع كانوا يتقاسمون معها الفرحة

أندرو أصر على صنع مشويات بيديه

وعلي يراقص أميرة كل حين

فاتن أتت مع منير والأولاد كأُسرة سعيدة

عائلتها حاضرة تتعرف على رفقاء رحلتها

وهي تائهة بدرب سعادة جديد عليها

وتغرق بعيني سامي كلما التقت بعينيها

وبدأت حياة جديدة بمشاعر جديدة وبنجلاء

أخرى .

تحملت حماقات أمه المتعددة حتى كبُرت وتوقفت

وعدت فاطمة أن تُحضر أميرة كلما استطاعت

تزور أهلها وتترك أميرة مع جدتها أياماً

حتى خرج عادل من محبسه

فصرحت لفاطمة أن تأتي لملاقاة أميرة لدى

والديها .

وأميرة اليوم بالصف الثالث الثانوي ولديها

طموحات عالية بارتياد الجامعة .

تلمح عيني"كريم" ابن الجيران يتابعانها فتبتسم

صغيرتها كبرت دون أن تعي متى !

سامي لديها بمكان الأب الذي فقدت

ومهما بذلت أو قدمت لن تكفيه نجلاء قدر صنيعه

هذا.

أفاقا من شرودهما على بكاء الصغير

"علي "

وكانت أجمل معزوفة قد تسمعها يوماً

بَعضُ مِن كَمَان

تمت بحمد الله

داليا والي

13/12/2019

شكر مستحق

لإدارة جروب شخابيط وردية

على إتاحة الفرصة والدعم حتى تخرج الرواية للنور.

والشكر لا يكفي

شكر وامتنان

لكل من استقطع بعضا من وقته ليقرأ حرفاً

ويشاركني برحلة أنغام الكمان

أنتم كنز حقيقي.

شكر ودعاء

لسيدة النساء (أمي)

للأسرة الصغيرة والكبيرة

الأصدقاء الأعزاء

كل من دعم وساند وشجع

تعرفون أنفسكم

لا حرمني الله إياكم.